الصليب

سيفاً

و

حرفاً

دكتور
كامل سعفان



الصليب

سيفاً وحرفاً

دكتور
كامل سعفان



بسم الله الرحمن الرحيم
فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ
صدق الله العظيم

دار الأمين
طبع * نشر * توزيع

القاهرة : ١٣ شارع البركة الناصرية
(خلف ١١ شارع نوبار) لاظوغلي
ت : ٣٥٥٤٣٧٦ ف : ٣٩٠٠١٣٠
ص.ب : ١٣١٥ العتبة ١١٥١١
الجيزة : ١ شارع سوهاج من شارع الزقازيق (خلف قاعة سيد درويش)
الهرم - تليفون : ٥٦٣٤٦٩٩
ص.ب : ١٧٠٢ العتبة ١١٥١١
جمهورية مصر العربية

الطبعة الأولى
١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م

رقم الإيداع ١٤٧٦٦/١٩٩٩
ISBN : 977-279-269-9

التنفيذ الطباعى : دار الأمين للطباعة

الإخراج الفنى : جمال فتحى أحمد

فهرست

بسم الله الرحمن الرحيم

● **ارجو ملاحظة :**

- أن (الأعـلام) يختلف نطقها من لغة إلى أخرى .

- أن (الأرقـام) متباينة ، ومبالغ فيها أحياناً .

- أن (الأحداث) لا تجرى فى أقلام المؤرخين على نسق واحد .

وهذا كله لا يمنع حصول القارئ على ما يزيده خبرة بالحياة وبالتاريخ .

وإذا كان لى حظ من (النَّخْل) والتعليق ، فهذا جهد المقِلّ .

لكن أهم ما أهدف إليه - فى كل ما أعرض من التاريخ - هو تذكير القارئ بواجبه نحو دينه ووطنه ، ونحو الإنسانية بعامة .

وقد تكون التورية ، أو (إياك أعنى فاسمعى يا جارة) ، من وسائلى ، بالإضافة إلى الإلحاح على حقيقة مريرة ، وهى أن (رجل الدين فى ثورته أشد ضراوة من ضَبُعٍ فى ثورته) ، لأنه يضع نفسه فوق (الآخرين) ، بحجة أنه يملك ما لا يملك الآخرون ، ومن هنا كانت دعاوى الوصول ، والكشف ، والقداسة ، والعصمة ، وأن (العلماء ورثة الأنبياء) - بغير ما أراد الصادق الأمين - وأنهم خلفاء الله ، وأوتاده .. وقد يصل الأمر إلى دعوى أن لهم حق التشريع ، و (تحريف الكلم عن مواضعه) ، باسم الاجتهاد ، وأنهم ينطقون بلسان (الحق) جل شأنه !!

وإذا كان الدين طبّ الأرواح ، والتعليم طب العقول ، والعقاقير طب الأجسام ، والقضاء طب التجاوزات الاجتماعية - فإن أى تهاون ، أو سكوت (شاهد) على تقصير فى حق من الحقوق ، يعد مشاركة فى الجرم ، وتشجيعاً على التفريط ، وعلى نشر الفساد ، وصدق الله سبحانه (فإنه آثم قلبه) ، وصدق الرسول - ﷺ - إنه (شيطان أخرس) !!

أقول قولى هذا ، وأستغفر الله لى ولكم .

تعويذة..

- ١ -

جاء فى (رسالة التوحيد) للأستاذ الإمام محمد عبده ص ١٠٧ :

(ليس من وظائف الرسل ما هو من عمل المدرسين ومعلمى الصناعات ، فليس مما جاءوا به تعليم التاريخ ، ولا تفصيل ما يحويه عالم الكواكب ، ولا بيان ما اختلف من حركاتها ، ولا ما استكنّ من طبقات الأرض ، ولا مقادير الطول فيها والعرض ، ولا ما تحتاج إليه النباتات فى نموها ، ولا ما تفتقر إليه الحيوانات فى بقاء أشخاصها وأنواعها ، وغير ذلك مما وضعت له العلوم ، وتسابقت فى الوصول إليه الفُهوم ، فإن ذلك كله من وسائل الكسب ، وتحصيل طرق الراحة ، هدى الله إليه البشر ، بما أودع فيهم من الإدراك ، يزيد فى سعادة المحصّلين ، ويقضى فيه بالنكد على المصّرين ، ولكن كانت سنة الله فى ذلك أن يتبع طريقة التدرج فى الكمال ، وقد جاءت شرائع الأنبياء بما يحملُ على الإجمال السعى فيه ، وما يكفل التزامه بالوصول إلى ما أعدّ الله له الفطَر الإنسانية من مراتب الارتقاء) .

والأستاذ الإمام بهذا يحصر الرسالات فيما هدى الله إليه ، ويحصر الشرائع فيما هو من فطرة الإنسان السويّة ، ويحصر دور الرسل فى تبليغ ما أوحى الله به ، وبيانه وتفصيله قولاً وعملاً .. والتبليغ تحول دونه معتقدات زائفة ، وعصبيات راجفة ، وطموحات عاصفة ، مما يستوجب الجهاد ، وحب الاستشهاد ، من أجل توصيل كلمة الله إلى الناس ، ومن أجل الضرب على أيدى الكفرة العتاة ، الذين طمس الله على قلوبهم وعقولهم ، وغشّى على أبصارهم وبصائرهم .. وهذا ما تحدث به القرآن الكريم عن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى .

قد يكون سِفْر التثنية وسفر يشوع قد بالغا فى الفتك بالمنهزمين ، لدرجة الإبادة الشاملة لكل نسمة حية ، لكن هذا السلوك الوحشى لم يكن إلا ثمرة معاناة الكهنة فى السبى ، أولئك الذين أعادوا صياغة التوراة ، والأسفار الملحقة بها ، فى المنفى ، وبعد العودة فى عهد قورش الملك الفارسى ، ثم بعد ما أنزل بهم الرومان من قتل وسبى وتخريب لمقدساتهم ، فقد ظل الكهنة (يحرّفون الكلم عن مواضعه) ، حتى بعد ظهور المسيحية .

أما بالنسبة لعيسى عليه السلام ، داعية السماحة والمحبة والسلام ، فقد أصاب تراثه ما أصاب تراث موسى ، لأنه أرسل إلى اليهود ، ولليهود سابقة الجرأة على ما أنزل الله .. من هنا كان تناقض فيما جاءت به الأناجيل ، سبق تفصيل هذا التناقض فيما تناولتُ من دراسات ، لكن ما يعنينا هنا هو ما يخالف طبيعة ما نزل على عيسى ، عليه السلام ، مثل ما جاء فى إنجيل (متى صح ١٠) : (لا تظنوا أنى جئت لألقى سلاماً على الأرض ، ما جئت لألقى سلاماً ، بل سيفاً ، فإنى جئت لأفرّق الإنسان ضد أبيه ، والابنة ضد أمها ، والكنّة ضد حماتها) .

وجاء فى إنجيل لوقا صح ١٩ : (أما أعدائى ، أولئك الذين لم يريدوا أن أملك عليهم ، فأتوا بهم إلى هنا ، واذبحوهم قدامى) .

إن دعوة السيد المسيح لم تدم أكثر من ثلاث سنوات ، وإن الأناجيل تمثل (صدى) دعوته بعد أن رفعه الله إليه ، وتمثل معاناة الحواريين والرسل بعد أن انتشروا تحت سلطان الإمبراطورية الرومانية ، التى امتحنتهم شر محنة ، وأعان عليهم اليهود الذين نظروا إلى المسيحيين نظرة (المنشقين) على اليهودية .. من أجل هذا كانت الدعوة إلى (السيف) ضرورة المعاناة ، بعد انتهاء دور السيد المسيح .

● والوقوف عند عيسى - عليه السلام - رسولاً ، ورد فى الإنجيل وفى القرآن ، منددا بسطوة الأغنياء والعشّارين والكهنة من اليهود ، وكادت مكائد اليهود تصل به إلى (القتل) ، لولا أن (رفعه الله إليه) ، (وما قتلوه وما صلبوه ، ولكن شُبّه لهم) .

وهذا ما تحدثت به أناجيل ، وما تجلّى فى شهادة مريم المجدلية ، إذ قال يسوع لمريم : (لا تلمسينى ، لأنى لم أصعد بعد إلى أبى ، ولكن ، اذهبى إلى إخوتى ، وقولى لهم إنى أصعد إلى أبى وأبيكم ، وإلهى وإلهكم) - يوحنا صح ٢٠

قال عيسى هذا بعد عملية (الصلب) لمن (شُبِّه لهم) .

جاء فى مجلة الهلال (يونية ١٩٩٥) عن المخطوطات التى عثر عليها بالقرب من جبل الطّارف شرقى نجع حمادى ، بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية - أن جماعة صوفية مسيحية كانت لهم مكتبة تضم عدداً من الأناجيل ، منها إنجيل توماس ، وإنجيل مريم المجدلية ، وإنجيل المصريين ، وإنجيل فيليب ، وغيرها .. وهذه الأناجيل تنفى قصة صلب المسيح .. وقد جاء فى إنجيل بطرس على لسانه : (يقول المخلّص : إن الذى رأيته سعيداً يضحك هو يسوع الحى ، لكن من يدخلون المسامير فى يديه وقدميه هو البديل ، قد وضعوا العار على الشبيه) .

وجاء فى كتاب (سيت الأكبر) : (كان شخص آخر هو الذى شرب المرارة والخل ، لم أكن أنا ، كان آخر هو الذى حمل الصليب على كتفيه ، كان آخر هو الذى وضعوا تاج الشوك على رأسه ، وكنت أنا فى العلاء ، أضحك لجهلهم) .

● التاريخ يتحدث عن أناجيل كثيرة تزيد على الخمسين ، تمت تصفيتها فى مجمع نيقيه ، فى عهد قسطنطين ، سنة ٣٢٥ ، والمعروف أن عملية التصفية لم تخضع لدراسة ومقارنة بين كل الأناجيل ، وأن قسطنطين لم يكن على علم باللغة التى كتبت بها الأناجيل ، ولا باللغةالتى جرى بها الحوار بين أعضاء المجمع ، ومع هذا كان هو الذى أعان على صدور (قانون الإيمان) ، الذى جعل من (التثليث) مبدأ أساسياً لا يغتفر الكفر به ، أو الشك فيه ، مع أن هذا المبدأ كان من صناعة (بولس) اليهودى الذى دخل المسيحية لينقض كيانها ، ويمزق وحدتها ، ويجعل منها شيئاً آخر يبرأ منه السيد المسيح .

ذكر الأستاذ سلامة موسى (حرية الفكر جـ ١ ص ٣٢ ط الهيئة العامة للكتاب ١٩٩٣) : أن (المسيحية نشأت فى حضن اليهودية ، وعاشت مدة غير قصيرة ، والمؤمنون بها يعتبرون أنفسهم يهوداً لهم مذهبهم الخاص ، ولذلك جرت المسيحية فى نظامها على ما رأت من النظم اليهودية ، فصار لها كهنة ، وكان هؤلاء الكهنة هم المضطهدون للعلم والفلسفة ، مدة ألف عام تقريباً ، فالكنيسة اضطهدت العلماء ، والمسيح الذى كان يطلب من المسيحى أن يدخل غرفته ويصلى ، لم يفكر قط فى إنشاء

كنيسة ، وإقامة كهنة عليها ، وإنما جاءت هذه الفكرة من بولس ، فالمسيحية الفاشية الآن ، ومنذ القرن الأول للميلاد ، هى مسيحية بولس ، وليست مسيحية المسيح) .

فى رسالة بولس إلى أهل غلاطيه صح ١ : (فإنكم سمعتم بسيرتى قبلاً فى الديانة اليهودية ، إنى كنت أضطهد كنيسة الله بإفراط ، وأتلفها ، وكنت أتقدم فى الديانة اليهودية على كثير من أترابى فى جنسى ، إذ كنت أوفر غيرة فى تقليدات آبائى).

مكّر بأمة المسيح ، فأشار فى تعاليمه بإبطال شريعة التوراة ، وأدخل فى عقيدة المسيح الخرافات . وقدس لهم التثليث ، وأحل لحم الخنزير ، وأبطل الهيكل والسبت والختان .

قامت ضده طوائف المسيحيين فى آسيا ، ورفضت تعاليمه ، وفى هذا أرسل إلى تيموثاوس يقول (الرسالة الثانية صح ١) : (أنت تعلم هذا ، أن جميع الذين فى آسيا ارتدوا عنى) .

ولما يئس من أمر الآسيويين ، انصرف إلى الأوربيين الوثنيين ، فأباح لهم المحرمات، ورفع عنهم كافة التكاليف ، فكثر تابعوه ، وثارت الخلافات بين أتباع المسيح وأتباع بولس .

كان بولس من الدهاء والطموح بحيث طوّع دعوته للبيئة اليونانية الرومانية ، فأباح ما اعتادت من الطعام والشراب ، وأوصى العبيد أن يكونوا أمناء فى خدمة سادتهم ، والعبيد - نتيجة الحروب الطويلة ، يونانية ورومانية - كانوا يمثلون أكثر من ثلث المجتمع، فقال فى (رسالته إلى أهل أفسس صح ٦) : (أيها العبيد ، أطيعوا سادتكم حسب الجسد بخوف ورعدة ، فى بساطة قلوبكم ، كما للمسيح) .

ولما كانت عبادة (مثرا) الفارسية منتشرة فى الإمبراطورية الرومانية ، أكسب المسيح صفات مثرا ، سواء فى تاريخ الميلاد (٢٥ ديسمبر كما هو عند الكاثوليك) ، والعودة إلى الحياة بعد دفنه ، وتخليص البشر من خطاياهم ، والصعود إلى السماء ، بعد قيامته من القبر ، وفى عدد الحواريين (١٢) ، وفى التعميد باسمه ، وفى الوساطة بين الله والبشر ، وفى العشاء الربانى المقدس ، وفى الشفاعة للمذنبين .

ولما كـان (الصلب) فى سـفـر (التـثنيـة صح ٢١) ينجس الأرض ، (لأن المعلق ملعون من الله) ، فقد جعل من (الصليب) شـعيرة مقدسـة .. جـاء فى رسـالته الأولى (إلى أهل كـورنثـوس صح ١) : (إن كلمـة الصليب عند الهـالكين جـهـالة ، وأمـا عندنا نحن المخلصين فهى قوة الله) .

أما عن (التثليث) فقد كان ترجمة للثلاثى المصرى (أوزير وحور وإيزيس) الذى كان منتشـراً فى الإطار اليونانى الرومـانى ، كمـا أن التثليث كان مألوفاً للفكر اليونانى الرومـانى من خـلال الآداب الهندية ، ممثلاً فى (براهمـا وفشنو وشيـفـا) ، ومن خـلال الآداب البابلية الآشورية ، ممثلاً فى (آنو وإنليل وإيا) .

وقد صبغ بولس هذه (الفكرة) ، أو (المعلومة) ، بصيغـة لاهوتية مشوبة بنزعـة فلسفية ، شغلت ، وما تزال تشغل ، الفكر المسيحى ، وتمزق الروابط الاجتماعية ، وتثير الإحَنّ والضغـائن والحـروب ، حتى صـار القـتلى بسـبب حـروب الطوائف أضـعـاف قـتلى الحروب مع أعداء المسيحية .

ومـا تزال الأنـاجـيل مـحـتـفظة بما ينفى هذا الفكر الدخـيل على (الرسـالة) المسـيـحـيـة ، وجـاء من أعلن أنه (ليس هناك من دليل واضح على أن حـواريي المسـيح اعتنقوا مبدأ التثليث) - معالم التاريخ الإنسانية مج ٣ ص ٦٩٢ - وذكرت دائرة المعارف البريطانية أنه (لم يدّعِ عيسى قط أنه من عنصر فوق الطبيعة ، ولا أن له طبيعة أسمى من طبـيـعـة البـشـر ، وكان قـانعـاً بنسـبـه العـادى ابناً لمريم ، منسـوياً من جهـة الأب إلى يوسف النجار) .

وقـد أدى طول (المراء) الفلسـفـى حـول ألوهـيـة المسـيح إلى أن صـار مـن المؤرخين والمفكرين من ينكرون وجود المسيح .

كان بولنجبروك والملتفون حوله ، وهم جماعـة (ارتاع فـولتِير نفسـه لأفكارهم) - يقولون فى مجالسهم الخاصة : إن المسيح قد لا يكون له وجـود على الإطـلاق .. وجهر (فلنى Volney) بهذا الشـك نفسه ، فى كتابه (خـرائب الإمبراطورية) ، الذى نـشره سنة ١٧٩١ .. ولما التـقى نابليـون فى سنة ١٨٠٨ بفيـلاند Wieland العـالم الألمانى ، لم يسـأله القـائد الفـاتـح فى السـياسـة أو الحـرب ، بل سـأله : هـل تؤمـن بتـاريخـيـة المسيح حـقـاً ؟

وفى سنة ١٨٤٠ بدأ برونو بور Brono Bauer سلسلة من الكتب الجدلية الحماسية ، يبغى بها أن يثبت أن يسوع لا يعدو أن يكون أسطورة من الأساطير ، أو تجسيداً لطقس من الطقوس ، نشأ فى القرن الثانى ، من مزيج من الأديان اليهودية واليونانية والرومانية .

وفى سنة ١٨٤٠ أصدر أرنست رينان Renan كتابه (حياة المسيح) الذى روّع ملايين الناس ، باعتماده فيه على العقل ، وسحر لب الملايين بنثره الجزل ، وقد جمع رينان فى كتابه نتائج النقد الألمانى ، وعرض مشكلة الأناجيل على العالم المثقف كله .

وفى هذه الأثناء وصلت المدرسة الهولندية - مدرسة بيرسُن Pierson ونابر Naber ومتثاس Matthas - (القضية) إلى أبعد حدودها ، إذ أنكرت - بعد بحوث مضنية - حقيقة المسيح التاريخية .

وفى ألمانيا عرض آرثر دروز Drews هذه النتيجة السالبة عرضاً واضحاً محدداً سنة ١٩٠٦ .

وفى إنجلترا أدْلى و. ب سمث Smith ، وج.م. روبرتسُن ، بحجج من هذا النوع ، أنكرا فيه وجود المسيح .

(وهكذا - كما يقول ول ديورانت - بَدَا أن الجدل الذى دام مائتى عام سينتهى إلى إفناء شخصيةالمسيح إفناءً تاماً) - قصة الحضارة جـ ١١ ص ٢٠٤/٢٨ .

وللأسف الشديد جرف هذا التيار شاباً مصرياً أقام زمناً فى إنجلترا ، فخرج بكتاب سماه (بيت المسيح) ، زعم فيه أن المسيح عيسى بن مريم ما هو إلا توت عنخ آمون نفسه ، وأن المسيحية ظهرت قبل الميلاد بنحو أربعة عشر قرناً من الزمان .. كما زعم من قبل أن يوسف عليه السلام ما هو إلا (يويا) الكاهن المصرى القديم ، والمحفوظة مومياؤه فى المتحف المصرى الآن .. كما زعم أن داود عليه السلام ما هو إلا الملك المصرى والفاتح العظيم تحتمس الثالث - جريدة الأهرام عدد ١٩٩٢/٥/٣٠ .

وهو بهذا يكذب ما جاء فى جميع الكتب المقدسة ، من أجل أن يقال إنه صاحب فكر حر ، وإنه باحث مجتهد ، قادر على إثبات أن التاريخ أكبر أكذوبة ، أو أن من الباحثين أكبر الكذابين .

وهو بهذا لا يبعد عن أفق الذين يبالغون فى إنكار الديانات ، وينالون من قداسة الرسالات السماوية .

وقد مضى فى هذا التيار من زعم أن المصريين من أصل عربى ، إذ لم تنقطع منها وإليها الهجرات ، ولأن قاموس اللغة المصرية القديمة به كلمات عربية ، وكان عليه أن يضيف أنه قبل نشوء البحر الأحمر كانت كل من أفريقيا وآسيا أرضاً متصلة ، ومن ثم كان المصريون والعرب شعباً واحداً .. وقد يصل الأمر إلى أبينا آدم الذى أنطقه التراث العربى شعراً ، كما أنطق الملائكة والشياطين ، وما دام المصريون من آدم فهم عرب .

قد نقول : هذه افتراضات ، والعلم فى جملته يبدأ بافتراضات ، لكن القوم يقطعون بالدليل ، ويؤكدون بالشواهد ، وعلى هذا يجب التسليم بأن مصر موطن الرسالات كلها ، وأن أرض مصر كانت خالية حتى تفضل العرب فسكنوها ، وأقاموا حضارة لم يتسع لها شبه الجزيرة ، بعدما شربوا ماء النيل ، وأكلوا من فومه وعدسه وبصله .

● لقد جاء القرآن الكريم محدثاً عن رسالة السيد المسيح ، بما هو جدير به من الصفات ، نافياً عنه الأباطيل التى نسبت إليه .

﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (٣٠) وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ ، وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا (٣١) وَبَرًّا بِوَالِدَتِي ، وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴾ (سورة مريم ، آية : ٣٢/٣٠) .

﴿ وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ، مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ ، وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ ، وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ ، وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ (سورة المائدة ، آية ٤٦) .

﴿ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ، إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ ، وَمَأْوَاهُ النَّارُ ، وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾ (سورة المائدة ، آية ٧٢) .

﴿ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ ، وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ، وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ، فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (٥٠) إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ، هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ .

(سورة آل عمران ، الآية ٥١/٥٠) .

﴿ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ، ابْتَدَعُوهَا ، مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلاَّ ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ ، فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ، فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ (سورة الحديد ، الآية ٢٧) .

هذا ما حدّث به القرآن ، نسب عيسى إلى ﴿ مَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُوحِنَا ﴾ (سورة التحريم ، الآية ١٢) .

على حين نسبته الأناجيل إلى يوسف النجار[1] ، لتجعل بينه وبين داود نسبا ، ولما كانت مريم خطيبة يوسف ، وليست زوجته ، فقد افتروا ، وباءوا بإثم عظيم ، ولم يكتفوا بهذه النسبة فى الأناجيل المتداولة (المعتمدة) ، وزعموا أن عيسى هو الله ، وأنه هو روح القدس ، وأنه ابن الله ، وخلعوا على مريم الألوهية ، لأنه ليس من المعقول أن تنجب الإله إلا إلهة !! غافلين أو متغافلين عن أن مريم (ابنة عمران) ولدت بينهم لأب وأم ، وعاشت بينهم زمناً ، ثم ولدت (عيسى بن مريم) . وعاش بينهم ثلاثين عاماً ، كما عاش لداته ، وكما يعيش الأبناء جميعاً ، ثم استولدوا مريم من يوسف أربعة أبناء ، هم يعقوب ويوسى ويهوذا وسمعان ، ثم خصوا عيسى ومريم بالألوهية ، وحرموا والدى مريم ، كما حرموا يوسف وأبناءه الأربعة من أى قدر من القداسة !!

لكنها (الأحجية) ، أقرها مجمع نيقيه ، ونشأت عنها انقسامات وطوائف ومذاهب ومحاكمات وحروب (فصّلتها فى كتابى « مسيحية بلا مسيح ») .. ولا تزال حتى اليوم صراعات الطوائف ، بين الأرثوذكس والكاثوليك ، وبين الكاثوليك والبروتستانت ، وبين ما انشعب أو خرج على هذه الطوائف ، مما أدى إلى كثرة الهراطقة ، وإلى بغاة محاكم التفتيش ، وكانت الحروب الصليبية إحدى وسائل الخروج من آفة الحروب الداخلية .

---

(١) هناك من يزعم أن يوسف من سبط يهوذا ، مع أن مريم من سبط لاوى ، ولا يجوز التزاوج بين سبطين ، لأن الشريعة اليهودية تحتم زواج البنت من سبطها .. جاء فى سفر عدد صح ٣٦ : (وكل بنت ورثت نصيباً من أسباط بنى إسرائيل تكون امرأة لواحد من عشيرة سبط أبيها ، لكى يرث بنو إسرائيل كل واحد نصيب آبائه ، فلا يتحول نصيب من سبط إلى سبط آخر) .
وقيل تزوجت من يوسف الحداد ، وقيل يوسف بن يعقوب ، وقيل يوسف بن هالى .
أقوال كثيرة حول (أم الإله) وأبيه من (الناس) ، ومع هذا تحولوا بدعاوى (بولس) إلى (الآب والابن والروح القدس إله واحد ، آمين) ، وإلى ألوهية (أم الإله) ، زوجة يوسف وأم أولاده .

ولما كان عصر النهضة ، حاول كثيرون هدم المعبد على رءوس الجميع ، لأنهم ضاقوا باستبداد الكنيسة ، وبآثامها ، ولأنهم عرضوا النصوص الكنسية على محك النقد ، فلم تستقم لها قناة ، وكان جدل وتكفير بين العقلانيين ، وجدل وتكفير بين الفيزيوقراطيين .

وجاءت الحروب الاستعمارية لتتخذ من هذا (الركام التراثى) وسائل تغرير وتغريب بين الوثنيين فى أفريقيا ، وفى آسيا ، وفى أمريكا اللاتينية .

وأصبح ما يسمى بالتبشير فى مقدمة الوسائل الاستعمارية ، وكانت الدراسات الاستشراقية وسيلة أخرى ، ثم كانت الدعوة إلى حماية الأقليات الدينية ، ورعاية حقوق الإنسان ، يؤيد هذا كله ترسانات أسلحة الدمار الشامل ، نووية وكيميائية وبيولوجية ، بالإضافة إلى أسلحة القروض والمعونات والخبراء ، وأسلحة الكلمة المسموعة ، والصورة الخبيثة ، والفكرة الضالة المضلة .

- ٢ -

اتخذ الكهنة مسح الملوك بالزيت (المقدس) ، أثناء التتويج ، وسيلة للسيطرة ، وإشعاراً بقدرة الكهنة على استنزال البركة الإلهية ، بحسبانهم الوسطاء بين الإله ، أو (الآلهة) ، والبشر .

كان المصريون الأوائل يترقبون (المخلص) المنقذ ، بعد زوال الدولة القديمة .. روى (بريستيد) عن الحكيم (إيپور) أن المخلص الموعود (يلقى برداً على اللهيب ، ويتكفل برعاية جميع الناس ، ويقضى يومه وهو يلم شمل قطعانه) .

وكان البابليون يؤمنون بعودة (مردوخ) إلى الأرض فترة بعد فترة ، لقمع الفتنة ، وتطهيرها من الفساد .

وكان المجوس يؤمنون بظهور رسول من إله النور كل ألف سنة ، ينبعث فى جسد إنسان .. وقيل إنه هو زارادشت ، رسول المجوسية الأكبر الذى يُرجعون إليه تشريع الاعتقاد فى كل من إله النور وإله الظلام .. وقد ظلت هذه العقيدة إلى ما بعد اليهوديّة والمسيحية والإسلام ، وأشار إليها الجاحظ ، وهو يتكلم عن أستاذه إبراهيم بن سيّار النظّام ، حيث قال : (إن السلف زعموا أن كل ألف عام يظهر رجل لا نظير له ، فإذا صدق هذا الزعم كان النظّام هو هذا الرجل للألف عام هذه) .

أما عن (المسيح) فمرجع تسميته إلى الشعائر التى وردت فى سفر (التكوين) ، وسفر (الخروج) ، وما جاء فى أسفار الأنبياء ، فإن المسح بالزيت المبارك كان من شعائر التقديس والتكريم .. وأول ما ورد ذلك فى سفر (التكوين صح ٢٨) ، حيث روى عن يعقوب أنه (بكّر فى الصباح ، فأخذ الحجر الذى وضعه تحت رأسه ، وأقامه عموداً ، وصب زيتاً على رأسه ، ودعا ذلك المكان بيت أيل ، أى بيت الله) .. وجاء فى سفر (الخروج صح ٣٠) : (الرب كلم موسى قائلاً : ... وأنت تأخذ أفخر الأطياب .. دهناً مقدساً للمسحة يكون .. وتمسح به خيمة الاجتماع ، وتابوت الشهادة ، والمائدة وكل آنيتها ، ومذبح البخور ، ومذبح المحرقة وكل آنيته ، والمرحضة وقاعدتها .. وتقدسها ، فتكون قدس أقداس ، كل ما مسّها يكون مقدساً ، وتمسح هرون وبنيه ، وتقدسهم ، ليكهنوا لى) .

وكان الأحبار والأنبياء يسمون (المُسحاَة) ، وتنهى التوراة عن المساس بهم ، لما جاء فى سفر (الأيام الأول صح ١٦) : (لا تمسوا مسحائى ، ولا تؤذوا أنبيائى) .

وكان شاءول وداود من مسحاء أنبياء بنى إسرائيل .

وتم التوسع فى لقب (المسيح) ، بعد ارتباطه بمفهوم (المنقذ) ، أو المخلّص (المسيّا) ، فكان (قورش الفارسى فى التاريخ اليهودى (مَسِيا) ، كما جاء فى سفر (أشعيا صح ٤٥) ، لأنه خلص اليهود من الأسر البابلى ، وأعانهم على العودة إلى فلسطين ، وزودهم ببعض الآثار (المقدسة) التى نهبها جيش نبوخذنصر ، كما ساعد فى إعادة بناء أورشليم .

وتكرر القول عن (المسيح) المخلص ، كلما اشتدت المحن باليهود .. ثم بعث الله السيد المسيح ليخلص اليهود مما أصاب شريعة موسى - عليه السلام - من التحريف والتبديل ، وليعود باليهود إلى شريعة الله التى لفقوا باسمها توراة وتلمودا ، من اختراع الكهنة الذين حقدوا على الإنسانية جميعاً ، والذين طمعوا فى الانتقام والسيادة العالمية .. لكنهم كفروا بالمسيح ، وترصّدوا له ، وآذوه ، وسعوا إلى قتله .

● كان من الأمثال اليهودية السائرة (لا خير يأتى من الجليل) ، ولعل هذا المثل يرجع إلى انقسام الدولة الإسرائيلية ، بعد سليمان ، إلى السامرة وأورشليم ، بين رحُبْعام ويَرُبْعام ، وزاد من هذا الخلاف ما كان من حروب المكابيين فى عهد الرومان ، إذ كان الشماليون (السامرة) على ولاء للحكومة الرومانية .

وقد جاء فى (إنجيل يوحنا صح ١) أن نثنائيل عجب حين قال له فيلبس : (إننا وجدنا الذى كتب عنه موسى فى الناموس والأنبياء ، يسوع بن يوسف الذى من الناصرة، فقال له نثنائيل : أمن الناصرة يمكن أن يكون شيء صالح ؟! قال له فيلبس : تعال وانظر) .

وحدث - بعد مولد السيد المسيح بسنوات - أن الجليل خرجت من سلطان ملك اليهودية ، على أثر وفاة هيرود الكبير ، وأنها دخلت هى والبادية المجاورة لها فى نصيب ابنه هيرود أنتيباس ، وربما كان عليه السلام فى العاشرة ، حينما هدم الرومان عاصمة الأمير الجديد ، وبنيت العاصمة الجديدة (طبرية) ، على مقربة من (الناصرة) ، حيث نشأ السيد المسيح ، وقد سميت العاصمة الجديدة باسم العاهل الرومانى (طيبريوس) ، تملّقاً ، وطلباً لمرضاته .

كان السيد المسيح قد تردد على (أورشليم) فى صباه ، واستمع إلى كبار الكهنة ، ورأى كثيراً مما أنكر .

وكان يوم السبت ، وما يزال ، مقدساً عند اليهود ، لأنه - فى زعمهم - اليوم الذى استراح الله فيه ، بعد أن خلق العالم (فى ستة أيام) ، مع أن الأيام لم تكن سُمّيت إبّان الخلق ، ثم إن أيام الله غير أيام الناس ، (وإن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون) ، أو كان (مقداره خمسين ألف سنة) .. إن أيام الله - سبحانه - أيام تكوين ، وأيامنا أيام دوران الأرض حول نفسها أمام الشمس ، وإذا كنا نقسم الشهر أربعة أقسام ، فالفراعنة وأهل الصين كانوا يقسمونه ثلاثة أقسام ، ثم إن كان يوم السبت بمعنى القطع فى لغة العرب ، وفى العبرية ، فإن توراة موسى لم تكن بالعربية ولا بالعبرية ، وقد سخر الله - جل شأنه - من هذا الزعم ، فكان يكثر الأسماك فى يوم السبت ، إذ اليهود (فى عطلة نهاية الأسبوع) لا يباشرون عملاً ، حتى إذا كانت أيام العمل تختفى الأسماك ، قال الله تعالى فى القرآن الكريم : ﴿ وَاسْئَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ ، إِذْ يَعْدُونَ فِى السَّبْتِ ، إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا ، وَيَوْمَ لا يَسْبِتُونَ لا تَأْتِيهِمْ ، كَذَلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ . (سورة الأعراف ، الآية ١٦٣) .

ومن فسقهم وخروجهم على تعاليم موسى أنهم ادعوا على الله دعاوى فاجرة ، ووصفوه فى توراتهم بصفات بشرية ، تجمع بين الخبيث والطيب ، وفى تلمودهم نسبوا

إلى الله أعمالاً يأباها البشر ، بل جعلوه يستعين بالحاخامات فى حل ما يعرض له - سبحانه - من مشكلات .

وقد رآهم السيد المسيح يمتعون - فى يوم السبت - عن عيادة المرضى ، وعن الدفاع عن النفس ، وعن قتال الأعداء ، وعن حمل أى شيء فيه ، وإذا جاع اليهودى ولم يكن عنده ما يأكل فضل أن يموت جوعاً من أن يبحث عن طعام ، فتحلّ به اللعنة ، ويستحق الرجم .

والكهنة الذين حرموا على الشعب كل عمل فى يوم السبت ، أباحوا لأنفسهم كل شيء ، لأنه (لا سبت فى الهيكل) ، فهم يذبحون الذبائح ، ويوقدون النار لطهوها ، ويختتون الأطفال ، ويتناولون العشور والنذور .

فلما قال الرسول عيسى : (لقد جعل السبت للإنسان ، ولم يجعل الإنسان للسبت) ، ثارت ثائرتهم ، وبعد أن كانوا يأنسون إليه ، ويعدونه أحد تلاميذهم ، صار خارجاً عليهم .

(إذا كان لأحدكم خروف وسقط فى حفرة يوم السبت ، ألا ينتشله ؟) .

(إنقاذ إنسان خير من إنقاذ خروف) .

(فى السبت تختتون الأولاد ، فإذا كان الإنسان يقبل الختان فى السبت ، لئلا ينقض ناموس موسى ، أفتسخطون على لأنى شفيت إنساناً فى السبت ؟) .

● (ما جئت لأنقض ، بل لأكمل) .

إنه لا ينقض شريعة موسى ، لكنه ينقض ما جاء به الكهنة ، وما ابتدعه الناقمون الحاقدون من أسرى بابل .

أحاطت اليهود به ، وقالت له : إلى متى تخفى أمرك ؟ إن كنت المسيح الذى ننتظره فأعلمنا بذلك - يوحنا صح ١٠ .

إنهم يريدون مسيحهم الذى صنعته الكوابيس خلال المحن التى نزلت بهم ، يريدون مسيحاً ينقذ (شعب الله المختار) ، وينكلون بكل الشعوب الأخرى .

قالوا له : (فأية آية تصنع لنرى ونؤمن بك ؟ ماذا تعمل ؟ آباؤنا أكلوا المنّ فى البرية ، كما هو مكتوب أنه أعطاهم خبزاً من السماء ليأكلوا) .

(فقال لهم يسوع : الحق أقول لكم ، ليس موسى أعطاكم الخبز من السماء ، بل أبى يعطيكم الخبز من السماء) - يوحنا صح ٦ .

إنه تحد قائم على مطالب مادية ، ومن قبل لم يكتفوا بما وهبهم الله فى المفاوز ، من (المن والسلوى) ، وتفجير الينابيع من الحجر ، وقالوا : ﴿ يَا مُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ ، فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ، قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ ، اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ﴾ .

(سورة البقرة ، آية ٦١) .

لكنهم قالوا : ﴿ يا مُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ ﴾ . (سورة المائدة ، آية ٢٢) .

إنهم شعب (صلب الرقبة) ، لا يكف عن مطلب ، مروا - بعد أن نجاهم الله من فرعون - بقوم (يعكفون على أصنام لهم) ، فقالوا : ﴿ يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ﴾ . (سورة الأعراف ، آية ١٣٨) .

وحين ذهب موسى للقاء ربه ، صنعوا لهم من ذهب المصريين الذى سرقوه قبل (الخروج) - ﴿ عجلاً جسداً له خوار ﴾ ، وقالوا : ﴿هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَىٰ ﴾ ، ﴿ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ ﴾ .(سورة طه ، الآية ٨٧/٩١) .

وكان أن عبدوا آلهة كثيرين ، أسوة بمن نزلوا بهم فى أرض كنعان ، وطغوا وبغوا ، وقتلوا الأنبياء ، ورقصت سالومى حاملة رأس يوحنا (يحيى بن زكريا) ، وحاولوا صلب المسيح ، كما حاولوا قتل النبى محمد - ﷺ - أكثر من مرة .

وكان غزو المسيحية (من الداخل) ، عن طريق (بولس) ، ثم كانت محاولات مختلفة لغزو الشعوب الأخرى ، عن طريق الربا ، ونشر الموبقات ، وتخريب الذمم والعقول ، والتسلل إلى مصادر صنع القرار ، عن طريق المحافل الماسونية ، التى سيطرت على معظم القيادات العالمية ، حتى دخلت الصهيونية قصر الفاتيكان ، وأقامت فى مجلس الكنائس العالمى ، واشتبكت المصالح الاستعمارية بالأهداف الصهيونية ، وسيطرت بروتوكلات حكماء صهيون على البنوك العالمية ، وبخاصة صندوق النقد ، والبنك الدولى ، كما سيطرت على الإعلام ، صحفاً ، وإذاعة مسموعة ومرئية ، وعلى صناعة الأفلام السينمائية ، وصناعة الفيديو والإنترنت ، ودخلت البروتوكلات كل مكان

مع القروض والمعونات والخبراء ، ومع الأقمار الصناعية ، ومع تجارة الأسلحة ، وتزوير جميع أطراف الفتن الوطنية ، والزعامات (سابقة التجهيز) ، بالأسلحة والتمويل ، وأخيراً إعلان الحروب على الشعوب المستضعفة ، بحجة القضاء على (الإرهاب) ، أو التفتيش على أسلحة (الدمار الشامل) ، أو شغل الشعوب عن قضايا الفجور الجنسى، وعن تهريب المخدرات ، أو تمكين زعماء (الشوفينية) القومية من تفريغ (البلقان) من (بقايا) المسلمين !!

• • •

الإسكندرية

- ١ -

ذكر ديودور الصقلى أنه كان ضمن القرارات التى قطع فيها رؤساء الجيش المقدونى برأى فى (بابل) - على أثر موت الإسكندر - أن يدفن جثمانه فى واحة سيوه ، بمعبد آمون ، استجابة لما قيل عن بنوة الإسكندر لآمون ، وأنه مثل الفرعون يصير إلهاً يُعبد .

لكن الفرعون كان يدفن فى (منف) ، أو فى (طيبة) ، وفيهما كان يجرى تتويج الملوك .

وقد رأى بطليموس أن دفن الإسكندر فى عاصمة ملكه (الإسكندرية) يعظّم من نفوذه عند المصريين .

ولعله تم نقل الجثمان إلى الإسكندرية ، بعد أن تم بناؤها ، وبعد أن أقام له بطليموس مدفناً يليق بعظمته ، وإن كان ثمة من يقول إن الجثمان نقل فى عهد بطليموس الثانى - مصر القديمة جـ ٧ ص ٧٧/٧٥ .

لم يقل لنا المؤرخ المصرى ما إذا كان الجثمان ظل فى (بابل) حتى تم بناء المقبرة ، وهل كانت المقبرة أول ما بنى من الإسكندرية ؟

المعروف أن الإسكندرية (المصرية) تم بناؤها بعد موت الإسكندر ، وبعد تقسيم الإمبراطورية بين كبار القواد ، فكانت مصر بين ما ورث بطليموس ، ثم شرع فى بناء المدينة التى سبق أن زار قائده (الأكبر) مكانها ، وتحدث بشأن بنائها ، ولم تكن فى عهد الإسكندر أكثر من قرية للصيادين ، وجزيرة يمكن ضمها إلى الشاطئ .. وبعد هذه (الزيارة) السريعة أخذ القائد (الأكبر) طريقه إلى فارس ، ثم إلى الهند التى اقتحم حدودها ، ثم آثر المصالحة .

ويقال إنه بنى فى آسيا سبع عشرة مدينة (إسكندرية) ، ما لبثت أن اندثرت ، وربما كانت هذه المدن لا تتجاوز مكان إقامة الجند ، فالقائد كان فى عجلة من أمره ، والمدن لا تقام بين يوم وليلة .

ولكون (الإسكندرية) على الشاطئ المقابل للعاصمة اليونانية ، فقد كان الاهتمام بها مركزاً حضارياً ينافس جميع العواصم فى الإمبراطورية اليونانية .

يقول صاحب (تاريخ العلم جـ ٤ ص ٥٤) : (كانت القصور الملكية ومجموعة كبيرة من المعابد والحدائق العامة تشغل جزءاً كبيراً من المدينة ، حوالى ربعها أو ثلثها ، وتقع المدافن والموسيون والمكتبة ، وكذلك معسكرات الحرس ، فى هذا الحى الملكى . الذى كان يسمى « بروخيون » ، وقامت على الطريق الكانوبى معابد ومبان عامة أخرى ، وعلى التل الشرقى الذى يسمى الآن « كوم الدكة » كانت حديقة كبيرة يطلق عليها اسم « البانيون » ، أى معبد الإله « بان » ، وعلى تل آخر كان « السارابيون » فى الجنوب الغربى من المدينة القديمة ، ثم كانت ملاعب رياضية وميادين لسباق الخيل) .

وكانت الإسكندرية تدعى بحق - خلال القرن الثالث قبل الميلاد - عاصمة الأدب والثقافة فى العالم الإغريقى ، إذ يدل ما لدينا من وثائق على أن العلوم التطبيقية ، كالجغرافيا ، والرياضة ، والطبيعة ، والطب ، والتاريخ الطبيعى ، وفقه اللغة - كانت هى أنواع المعارف التى شغلت كتّاب النثر فى هذه الآونة - مصر القديمة جـ ١٤ ص ٢٣٦/٢٣٧ - وذلك بفضل مكتبتها الشهيرة ، وبفضل الميوسيوم الذى كان بمثابة جامعة تضم كافة التخصصات .

- ولم تكن مكتبة الإسكندرية أولى مكتبات (الشرق) ، فقد سبقت مصر بمكتبة أو مؤسسة (بيت الحياة = بر - عنخ) التى كانت تحفظ سجلات مصر التاريخية والفنية والأدبية والدينية ، وتقوم بدور مكتبة الإسكندرية واليوسيوم معاً ، إذ كان فيها العلماء والباحثون فى كل مجال ، كما كان فيها كل المراجع التى يحتاج إليها العلماء ، وقد وجدت مؤسسة (بيت الحياة) منذ أوائل الأسرة الرابعة ، وقد استمرت موجودة حتى نهاية العهد الإغريقى الرومانى .. ولما قويت صلة مصر بدول آسيا التى كانت تستخدم الكتابة المسمارية ، وضع (معجم) باللغتين المصرية والبابلية ، كما وجدت

فهارس لما تضم هذه المكتبة .. ولما تم اكتشاف آثار (تل العمارنة) أمكن التعرف على كثير من ألوان النشاط التى قام عليها (بيت الحياة) .. وقد تضمنت آثار (تل العمارنة) كثيراً من الرسائل المتبادلة بين فرعون مصر وملوك آسيا .

ولأن مصر كانت على علاقة كبيرة ببعض الجزر اليونانية ، وبخاصة كريت ، حتى كان فى جيش مصر عدد كبير من المرتزقة والمتطوعين اليونان - فقد وفد إلى مصر عدد كبير من الفلاسفة والعلماء والمؤرخين الذين تتلمذوا على كهنة وعلماء (بيت الحياة) ، حتى قيل إن الفلاسفة والعلماء اليونان نقلوا ونسبوا إلى أنفسهم الأفكار المصرية ، وثمرات التجارب العلمية التى اشتهرت بها مصر ، وبخاصة فى التشريع والطب والكيمياء والرياضة والفلك واللاهوت والبناء وإقامة السدود ، وأسسوا دوراً للعلم ، على شاكلة (بيت الحياة) ، ينشرون من خلالها ما كان كهنة وعلماء (بيت الحياة) يضنّون به ، إلا على فئة قليلة ممن يتوسمون فيهم الإخلاص للعلم والمعرفة .

● وفى آسيا اشتهرت (نينوى) بمكتبتها الكبيرة التى توسع فيها آشور بانيبال ، فى القرن الثامن قبل الميلاد ، وجمع لها الكتب من كافة الأنحاء ، وقيل إنها كانت تضم آلاف المجلدات فى قواعد اللغة ، وفى المعاجم اللغوية ، وفى السجلات التاريخية ، وفى النصوص السومرية التى بين سطورها ترجمات آشورية ، وفى النصوص العلمية ، فلكية وتنجيمية وكيميائية وطبية ورياضية .. إلخ ، مما يفيد حرص هذا الملك على استمرار تنميتها ، وفى ذلك صدرت أوامره : (ابحثوا عن الألواح القديمة فى سجلاتكم، أو التى لا توجد فى آشور ، وابعثوا بها إليّ ، ولقد كتبت إلى الموظفين والمشرفين ، ولن يحجز أحد عنك لوحاً واحداً ، وإذا وجدت لوحاً أو نصّاً دينياً لم أكتب إليك بشأنه ، وأحسست أنت أنه مفيد فى قصرى ، فاستخرجه ، وخذه وأرسل به إليّ) .

وتدل كثرة الألواح فى هذه المكتبة على أن الملك آشور بانيبال استخدم طائفة كبيرة من العلماء والكتاب للنسخ ، والترجمة ، والتنظيم ، حتى غدت مدينة (نينوى - فى السنوات الخمسين الأخيرة من وجودها السياسى - مركزاً لمدرسة من المترجمين واللغويين ، يصح أن تسمى الأكاديمية السومرية) - تاريخ العلم جـ ٢ ص ٢٣٩ .

وكان لراغبى المعرفة من بلاد اليونان أكثر من سبيل إلى العلوم والآداب البابلية - من قبل غزو الإسكندر - عن طريق مصر ، وعن طريق الساحل الفينيقى ، وعن طريق الاتصال المباشر ، بالارتحال إلى أرض بابل .

ومع اتساع إمبراطورية الإسكندر تحرك كثير من طلاب المعرفة مع الجيوش اليونانية ، حتى وصلوا إلى الهند ، ونهلوا من معارف هذه البقعة الواسعة من آسيا .

● يقول الأستاذ سليم حسن (مصر القديمة جـ ١٤ ص ٢٣٩) : لم نسمع - فى بلاد اليونان - عن مكتبة عامة إلا بعد ما أنشئت الإسكندرية ، حوالى سنة ٢٩٠ ق.م . مما يفيد أنها أنشئت بوحى من (بيت الحياة) ، ومكتبة بابل ، فقد أنشأها بطليموس الأول لتكون أثراً خالداً يحدَّث به .

كانت تجمع بين مكتبة الدولة ، ودار نشر الدولة ، حيث يجرى العمل على نطاق لم يسمع بمثله الناس ، حتى ذلك الحين ، كما جاء فى (معالم التاريخ الإنسانية مج ٢ ص ٤٥٧) .

وقد روعى أن تكون ذات طابع موسوعى ، تهدف إلى الإحاطة الشاملة بكل نشاط فكرى أو وجدانى .

فلو أحضر شخص ما إلى مصر كتاباً غير معروف كان لزاماً عليه أن يقدمه لينسخ ويضاف إلى المكتبة ، وكانت طائفة كبيرة من الناسخين تقوم بنسخ عدة نسخ من جميع المؤلفات ذات الشهرة والأهمية ، لتيسير الاطلاع عليها .

وكان للمكتبة وكلاء بالخارج يقومون على تزويدها بكل جديد ، كما يقومون ببيع نسخ من محتوياتها .

ومن أهم (أمناء) هذه المكتبة ، كما جاء فى (تاريخ العلم جـ ٤ ص ٢٥٩) :

١ - ديمتريوس الفاليرى - حوالى سنة ٢٨٤ ق.م .

٢ - زينودوتس الأفيسى - حوالى سنة ٢٦٠/٢٨٤ ق.م .

٣ - كاليماخوس البرقاوى - ٢٤٠/٢٦٠ ق.م .

٤ - أبوللونيوس الرودسى - ٢٣٥/٢٤٠ ق.م .

٥ - آراتوستينس البرقاوى - ١٩٥/٢٣٥ ق.م .

٦ - أريستوفانيس البيزنطى - ١٨٥/١٨٠ ق.م .

٧ - أبوللونيوس إيدوجرافوس - ١٨٠/١٦٠ ق.م .

٨ - أرستارخوس الساموتراقى - ١٦٠/١٤٥ ق.م .

كان ديمتريوس الفاليرى من زعماء أثينا السياسيين ، بل الزعيم الأوحد لمدة عشر سنين (٣١٧/٣٠٧) ، لكن مقاليد الأمور أفلتت من يده ، لدرجة أنه واجه خطر الموت ، فهُرع إلى مصر ليساعد بطليموس فى تحقيق طموحاته ، وليصبح مستشاره ، ويضع نواة المكتبة والمدرسة (الميوزيوم) ، وبخاصة أنه كان خبيراً بمكتبة أرسطو فى أثينا ، التى زُعم أن الإسكندر زودها بكثير من ذخائر آسيا ، وكان من الطبيعى أن يوصى بإنشاء مكتبة فى الإسكندرية ، على غرار مكتبة أرسطو ، فوجد من بطليموس كل ترحيب ، ويسّر له سبل تأسيس المكتبة وتزويدها بكل جديد ، مهما غلا ثمنه ، حتى جمع فى فترة وجيزة ٥٤ ألف كتاب ، فكانت تحتوى على الكتب التى بعث بها الإسكندر من اصطخر وغيرها إلى مصر (١٩) كما اشترى مكتبة أرسطو ، وكثيراً من مؤلفات المصريين ، وذكر جوسيفوس المؤرخ اليهودى أنه جمع لها مائة ألف إضمامة .

ورُوى عن ابن النديم فى (الفهرست) أنه بعد ذلك قال لبطليموس : (أيها الملك ، قد بقى فى الدنيا شيء كثير ، فى السند والهند وفارس وجرجان والأرمن وبابل والموصل وعند الروم) .

أما زينودوتس فقد قام مع مساعديه بجمع مؤلفات شعراء اليونان ، ومراجعتها ، مع تأليف معجم لأهم كلمات هومر ، والكلمات الأجنبية الدخيلة .

وأما كاليماخوس البرقاوى المشرف على المكتبة أيام حكم بطليموس الثانى والثالث، فقد قام بتنظيم ما تجمع من الكتب وترتيبه وعمل فهارس له ، وأعانه على هذا أنه كان على علم بالأدب ، والفلسفة ، والشعر ، وفقه الله ، والتاريخ ، كما كان على علم بعمل المعاجم وتحقيق النصوص .

وحين تولى الحكم بطليموس أورجينوس عام ٢٤٧ ق.م ،أضاف إلى المكتبة ما وجده فى خزائن أثينا .. ويروى أن أورجينوس فرض على كل من يقيم فى الإسكندرية أو يمر بها من رجال العلم أن يقدم للمكتبة نسخة من كل كتاب يملكه ، حتى بلغ ما بها ٧٠٠ ألف مجلد ، كا ذكر زميانوس مارسلينوس - عن مجلة الرسالة ١٠/١٠/١٩٣٨ .

وكان لأبوللونيوس الرودسى ، المصرى المولد ، مكانته التاريخية ، بفضل شعره الملحمى الذى تجلى بصفة خاصة فى ملحمته (الأرجونوت) ، برغم أنها اندثرت ، ولم يصلنا منها شيء .

أما أراتوستينس فلم يكن رياضياً فلكياً جغرافياً فحسب ، بل كان ضليعاً فى التاريخ ، وفى فقه اللغة ، لدرجة أنه عُدّ أهم عالم فى فقه اللغة ، وقد أطلق على نفسه لقب فيلولوجوس (عالم اللغة ، أو عاشقها) ، واستطاع أن يقيس محيط الأرض بما يقرب مما وصل إليه العلم الحديث .

وكان أريستوفانيس رائداً فى تقنين النحو اليونانى ، وتصنيف معجم باللغة اليونانية ، وابتكاره علامات الترقيم فى الكتابة ، ولم تخلُ جميع النصوص التى حققها من شروح وتعليقات ، وأحياناً يزودها بمقدمات تُعرِّف بها وبكاتبها .

واشتهر أبوللونيوس ايدوجرافوس بما كتب عن القطاعات المخروطية لتبرز ظاهرة مرموقة .

وأما أريستارخوس فكان ناقداً أديباً نحوياً .. كتب عدداً كبيراً من التحقيقات والشروح ، وألف عدة دراسات فى النقد ، ولم يكن نقده إلا بحثاً فى علم دلالة الألفاظ.. ونسب إليه تحديد الاسم والضمير وأداة التعريف والفعل والمفعول والصفة والظرف وحروف الجر والعطف .

وقد وفق أريستارخوس إلى دوران الأرض حول الشمس ، مسجلاً سبقاً علمياً على كوبرنيكوس .

ويبدو أن توقف التاريخ عند ذكر أريستارخوس من أمناء مكتبة الإسكندرية يعنى أن المكتبة لم يعدْ لها الدور الكبير الذى لعبته ، أو أن الأمناء بعد ذلك كانوا من المصريين المتحدثين باليونانية ، وقد جرت عادة المؤرخين اليونان إهمال الدور المصرى فى شتى المجالات ، حتى ما كان من بناء الإسكندرية ، وبناء المنارة .. ومما يدل على استمرار ازدهار المكتبة بعد أريستارخوس أن بطليموس السابع (١٤٥/١١٦) أصدر أوامره إلى التجّار الذين يجوبون البحار أن يحصلوا على المخطوطات الأصلية لمؤلفات علماء اليونان وأدبائها وفلاسفتها ، مهما كلفهم ذلك من جهد ومال ، على أساس نسخ صور منها ، وإعادتها بعد ذلك .

ويضيف سارتون (تاريخ العلم جـ ٤ ص ٢٨٢/٢٦٦) أنه فى منتصف القرن الثالث صار المبنى ضيقاً ، فكان من الضرورى أن ينشأ ملحق للمكتبة ، وكان ذلك فى السّارابيون ، حتى صار حجم المكتبة ضخماً جداً ، ولما كانت فى نمو مستمر فإن أعداد لفائفها بلغت ٢٠٠ ألف لفافة ، أواخر عهد البطالمة ، وأن العدد وصل فى عهد قيصر إلى ٥٠٠ أو ٧٠٠ ألف لفافة .

ويذكر الأب قنواتى (المسيحية والحضارة العربية ص ٩٢) أنه كان يوجد بجانب (متحف) الإسكندرية الذى اندثر فى القرن الثالث الميلادى مدارس لها مكتباتها ، مثل (القيصرية) التى نهبت سنة ٣٦٦ ، حين حُول هذا المعبد إلى كنيسة ، ومثل هذا حدث لمكتبة السارابيوم التى أعدمت سنة ٣٩١ .

● وثمة مكتبة أخرى هى مكتبة (برجامه) ، التى أسسها وعمل على تطويرها يومينيس الثانى (١٥٩/١٩٧ق.م) ، ويقال إنها احتوت على ما يقرب من ٢٠٠ ألف مجلد ، عندما قام أنطونيوس بإهدائها - حسب ما يزعمون - إلى كليوباترة ، ولما احتاج يومينيس إلى خازن مكتبة قدير ليشرف عليها لم يجد إلا أريستوفانيس البيزنطى الذى كان خازن مكتبة الإسكندرية ، فى عهد بطليموس أبيفانس ، وعندما اكتشف بطليموس الأمر عمد إلى سجن أريستوفانيس ، ومنع تصدير ورق البردى إلى برجامه ، مما أجبر البرجاميين على إيجاد مادة أخرى ، وعلى تطور استخدام الجلد ، وسميت المادة الجديدة (الرق) - تاريخ العلم جـ ٥ ص ٢٨ .

ويقول سارتون (تاريخ العلم جـ ٤ ص ٢٥٨) : إنه كانت مكتبات أخرى فى رودس ، وأزمير ، وكوس ، وغيرها ، لكن مكتبة الإسكندرية كانت الكبرى ، وكانت الأطول عمراً .

● واشتهر من علماء الإسكندرية إقليدس فى الرياضيات ، وهو الذى وضع مبادئ الهندسة المسطحة ، فى القرن الثالث ق.م. كما أنه صاحب كتاب (العناصر) .

وقام هيبارخوس بأول محاولة لعمل سجل للنجوم ، وإثباتها على خريطة يمكن الرجوع إليها بغية تسجيل ما عساه يحدث في السماء من تغيرات .

وقدم أرشميدس نظريته فى الأوزان والروافع ، ويقال إنه استخدم معرفته فى انكسار الضوء على المرايا فى الدفاع عن مدينته سيراقوسه ، حين حاول الرومان الاستيلاء عليها سنة ٢١٢ للميلاد .

واخترع هيرون Hero الآلة البخارية ، والآلة التى تدار بوضع عملة صغيرة فى ثقب بها .

ومن رجالها الفيلسوف اليهودى فيلون الذى توصل إلى مذهب التوحيد اللاهوتى .

كما أن من رجالها أفلوطين الذى ولد بصعيد مصر سنة ٢٠٥ للميلاد ، وتعلم الفلسفة فى الإسكندرية ، عندما بلغ الثامنة والعشرين ، وبقى بها عشر سنوات ، دون أن يؤسس مدرسة فلسفية لها تلاميذها ، ثم انخرط فى معية الإمبراطور الرومانى (جورديان) الذى حاول أن يعيد تحقيق أسطورة الإسكندر الأكبر بغزو فارس والهند ، وكان أن قتل ولم يحقق حلمه ، فاضطر أفلوطين إلى العودة ، لكنه مدّ رحلته إلى رومة ، دون أن يمر بالإسكندرية ، وفى رومة أسس مدرسته الفلسفية (السكندرية) عام ٢٥٨، وأقبل عليه التلاميذ عشاق الفلسفة من كافة أنحاء الإمبراطورية ، وكانت (التاسوعيات) هى الصيغة النهائية التى سجلها فورفوريوس لتلك الفلسفة ، بعد وفاة أفلوطين سنة ٢٨٠ .

وفى مكتبة الإسكندرية تمت ترجمة (العهد القديم) ، وهى الترجمة المعروفة بالسبعينية .

- ٢ -

يقول ويلز (معالم التاريخ الإنسانية مح ٢ ص ٤٤٥) :

كان المتحف الذى أقامه بطليموس فى الإسكندرية بمثابة أول جامعة فى العالم .

كان المتحف مكرساً لخدمة التاسوع الإلهى Muses (عرائس الشعر والأدب وسائر الفنون) ، وكذلك كان شأن المشّائين فى أثينا ، أى شأن المدرسة التى أنشأها ثيوفراستوس فى أثينا ، تخليداً لذكرى أرسطو .. لكن المتحف احتفظ بطابعه الدينى (من الناحية الشكلية) ، رغبة فى التغلب على الصعوبات القانونية المتعلقة بالهبات المالية.. وكان فى جوهره جماعة من العلماء يعنون - بصفة خاصة - بالبحث العلمى

والتدوين، على أنهم كانوا يشتغلون أيضاً بالتعليم .. وأخرج المتحف - فى مدى جيلين أو ثلاثة - نخبة من العلماء لم تستطع مدينة أخرى أن تضارعها ، حتى أثينا ، فى أزهى عصورها .

وكان النشاط الرياضى والجغرافى بالغ الصحة والدقة .

يقول صاحب (مصر القديمة جـ ١٤ ص ٢٤٧/٢٥١) :

يحدثنا استرابون أن المتحف كان جزءاً من الحى الملكى ، يحتوى على ممشى ومبنى عظيم ، يوجد فيه حجرة للطعام مشتركة لعلمائه ، وكان له ميزانية مشتركة ، وكاهن موكل إليه أمر محرابه ، يعيّنه ملوك البطالمة .. وبعد قيام الدولة الرومانية كان يتم تعيينه عن طريق قيصر رومه .

وقد استدعى بطليموس الأول ، حوالى سنة ٣٠٠ ق.م ، استراتون اللامبساكى ليقوم بتربية وتعليم ابنه ، ولى العهد ، وهو الذى أضفى على مدرسة الإسكندرية (الميوزيوم) صبغتها العلمية .

يقول ديوجينوس : (تفوق استراتون فى فروع المعرفة ، بصفة عامة ، وفى الطبيعيات بصفة خاصة) .

ويرجع إلى بطليموس الثانى (٢٨٥/٢٤٦ ق.م) الفضل فى تزويد (المتحف) بالمجموعة الأصلية من اللفائف التى زينت مكتبته ، ثم زيدت على يد أمناء المكتبة الذين تولوا أمرها .

وقد ذكر الطبيب (جالن) مواطن (برجامه) الذى بلغ علمه مبلغاً عظيماً ، فى القرن الثانى بعد الميلاد - أن بطليموس الثالث (٢٤٦/٢٢١ ق.م) قد استعار من أثينا إضمامات البردى التى كانت ملك الحكومة الأثينية ، وكانت تحتوى على معظم المتون القيمة لتمثيليات أسكيلوس وسوفوكليس ويوريبيدز ، لنسخها من أجل مكتبة المتحف ، ودفع لذلك رهناً خمسة عشر تالنتا ، إلى أن تعاد سالمة لأثينا ، وعندما حان وقت إرجاع هذه المتون احتفظ بالأصول ، وأرسل نسخاً منها كتبت فى الإسكندرية .

وفى القرن الثالث بعد الميلاد كتب جالينوس أن البطالمة قد جمعوا ٧٠٠ ألف إضمامة ، ويحتمل أن يكون ما جمع فى عهد البطالمة ٤٠٠ ألف ، زيدت فى عهد يوليوس قيصر إلى ٧٠٠ ألف ، وفى عهد ماركوس أنطونيوس إلى ٩٠٠ ألف .

وعن طرق المكتبة والمتحف تفرعت وتنوعت علوم الفيزياء ، والتكنولوجيا والتشريح والطب والرياضة والهندسة والتاريخ الطبيعى والجغرافيا والتاريخ والفلك والتنجيم وفقه اللغة والفنون والآداب[١] .

- ٣ -

تبع النهضة الفكرية والتعليمية والمعمارية والرواج التجارى والاقتصادى - نشاط مسرحى ، إذ كان فى الإسكندرية عدد كبير من المسارح ، يعرض ألواناً مختلفة من فنون التمثيل ، لتوافق أمزجة الشعوب والملل المختلفة التى كات تتنافس جالياتها فى التعبير عن شُجونها وأحلامها ، عن ترحها ومرحها .. وكان ثمة كثرة من الفنانين ، ومخرجى الأعمال المسرحية ، وصناع الديكور والملابس ، إذ كانت حرية العرض المسرحى متاحة للجميع ، حتى قدمت مشاهد من التوراة ، تنتقد أوضاعاً دينية .

وتعد هذه النهضة امتداداً للفن المسرحى فى مصر القديمة ، قبل أن تكون امتداداً للنهضة المسرحية فى اليونان ، على أساس أن الإسكندرية - برغم نشأتها اليونانية - كانت تتنفس أنفاس مصر ، وتتحرك بحركة التاريخ الدينى والثقافى المصرى ، ونحن نعلم أثر الفعالية المصرية على كل من الوجود اليونانى والوجود الرومانى ، وبخاصة فى تلك المرحلة الصاخبة التى واكبت انتقال الحكم من السُّدّة البطلمية إلى السُّدّة القيصرية .. ثم لما كان المدّ المسيحى تميزت مصر بطابعها الدينى ، وكانت لها زعامتها الدينية ، وتأثيرها الخاص على مجرى الحياة الدينية ، فى الشرق الإمبراطورى ، البيزنطى ، وهو ما يمكن لمسه كذلك مع التاريخ الإسلامى .. ولا أحد ينكر - حتى اليوم - الزعامة المصرية فى كافة المجالات .

(١) آثرت ذكر هذه الأقوال الكثيرة ، مع ما بينها من تداخل وتناقض ، لأبين أن التاريخ كثيراً ما يعتمد على الحدس والتخمين ، والتعصب كذلك .

لهذا ، لا عجب أن يحتفظ التاريخ بنصوص مسرحية ترجع إلى الألف الرابعة قبل الميلاد ، فى عهد الأسرة الأولى ، مثل دراما التتويج ، ودراما انتصار حورس على أعدائه.

وانتشار هذا الفن الراقى ، تعبيراً عن الملكة الحضارية المصرية ، يزكّيه إنشاء معبد (السارابيوم) الذى أقيم فى (راقودة) ، إشادة بالإله المصرى (سيرابيس) .. ويزكيه إنشاء دار (الجمنازيوم) الثقافية الرياضية ، و (الأستاد) لكافة الألعاب الرياضية ، والقصر الملكى الفخم الذى شيد على شبه جزيرة ، محاطاً بقصور كبار رجال الدولة ، بالإضافة إلى المكتبة والمتحف ، وبالإضافة إلى المنارة ، إحدى عجائب الدنيا .

ومع أن الإسكندرية لا يختلف موقعها عن أكثر الموانئ على شواطئ البحر الأبيض المتوسط ، بل عن كافة الموانئ ، على مستوى العالم ، فقد تميزت الإسكندرية بهذه العجيبة ، مما يؤكد غلبة الطابع المصرى على كل ما يحدث فى ديار مصر ، وإن تحقق بأيد وإرادة غير مصرية .

روى كتاب (عصر الإسكندرية الذهبى ص ٤٨/٥٠) أن العالم الأندلسى يوسف ابن الشيخ المالقى (١١٣٢/١٢٠٧) ذكر أنه جاء إلى الإسكندرية سنة ١١٦٥ ، وكان بصدد تأليف موسوعة بعنوان (ألف باء) ، وقد طبع هذا الكتاب بالقاهرة عام ١٨٧٠ .. ويقع وصفه للمنارة على صفحتى ٥٢٧/٥٢٨ من الجزء الثانى .

زار الشيخ المالقى (فاروس) ، ووجد أن المنارة لم تعد صالحة للعمل ، لكنها كانت لا تزال محتفظة بهيكلها ، وإن فَقدت وظيفتها ، بدليل أنه صعد إلى قمتها ، وقاس كثيراً من أبعادها .

ومن الوصف التفصيلى للمنارة أوضح المالقى أنها شيدت على قاعدة صخرية ، يبلغ ارتفاعها عن مستوى البحر ٧,٢٠ من الأمتار ، وهى تتكون من ثلاثة طوابق ، الأسفل والمتوسط والأعلى ، وكلما ارتفع الطابق قلت مساحته .

وكان محيط الطابق الأسفل مربع الشكل ، والأوسط مثمن الأضلاع ، والأعلى مستديراً .

كان محيط قاعدة الطابق الأسفل ١٢٦ متراً ، ومحيط الأوسط ٥٦ متراً ، والأعلى ٢٨ متراً .

وبلغ ارتفاع الطابق الأسفل ٧١ متراً ، وبه ٥٠ نافذة فى جدرانه ، وطريق حلزونى من الداخل ، يصل إلى سطح الطابق الأسفل ، ويسمح لفارسين يمران راكبين فرسيهما .. وعند نهاية الطريق الحلزونى يبدأ سلم حجرى فى الصعود بدرجاته إلى سطح الطابق الأوسط ، حيث يبدأ سلم مشابه ليصل إلى سطح الطابق الأعلى .. ويبلغ ارتفاع السلم الأوسط ٤٢ متراً ، والسلم الأعلى ٢٨ متراً ، وبذلك يبلغ الارتفاع الكلى للمنارة حوالى ١٤١ متراً .

يقول الدكتور نبيل راغب : برغم أن شوستراتوس المهندس المعمارى الذى شيد المنارة نشأ على تقاليد المعمار اليونانى الذى لم يتميز بمثل هذه الضخامة ، فإن التأثير المصرى هو الذى أوحى إليه بهذه الضخامة الباهرة .

وكان يسند إلى العمال المصريين المهام الصعبة والدقيقة والمعقدة ، تحت إشراف مهندسين مصريين ، حتى تم الانتهاء من عجيبة العجائب .

● ● ●

حريق الإسكندرية

- ١ -

يقول شيخ مؤرخى العصر ، توينبى (مختصر دراسة للتاريخ جـ ٢ ص ٤٠٧) :

(أشيع أن الخليفة عمر قد أجاب رداً على استفهام من قائد كان قد تلقّى نبأ استسلام الإسكندرية ، وطلب من الخليفة تعليمات عما يفعل للتخلص من مكتبتها المشهورة ، فأجاب بقوله :

إن كانت كتب الروم هذه تتفق مع كتاب الله ، فلا نفع يرجى منها ، ولا حاجة للمحافظة عليها ، وإن كانت تخالفه فإنها مفسدة يجب القضاء عليها) .

صيغة شيخ المؤرخين تثير أكثر من تساؤل - إن صحت الترجمة - فعبارة (أشيع) لا تُناسب مؤرخاً فذاً ، يفترض فيه البحث عن الحقيقة ، إلا إذا كان هدف السيد المترجم (الشيوع) والانتشار ، لكن وصف القائد العربى الإسلامى عمرو بن العاص ، بلفظ (قائد) للتجهيل والتهوين من أمره ، يرشح القصد السيئ من عبارة (أشيع) .

ثم إن ما نسب إلى عمر من قول يدل على (غباء) نسبته إليه ، لأن الكتب لا تخلو أن تكون موافقة لما فى كتاب الله ، أو مخالفة ، فكان الأحرى أن يقول (أحرقها) بدلاً من هذا (التفصيل) الذى لا مبرر له ، وبخاصة أن مثل هذا التفصيل ينطبق على جميع ماخطته الأقلام على مدى التاريخ الإسلامى ، فكأن عمر (الفاروق) قد حكم بإحراق كل ما كتب ، حتى ما هو فى خدمة القرآن الكريم ، من علوم القرآن وتفسيره ، ومن التاريخ الإسلامى ، ومن علوم الفقه واللغة والأدب والفلسفة ، ومن العلوم الحضارية المختلفة !!

وقيل إن يوحنا النحوى هو الذى اخترع قصة تفريق الكتب على الحمامات ،

وإحراقها ، مع أن هذا (النحوى) رحل عن الدنيا قبل فتح العرب لمصر بنحو ثلاثين عاماً ، كما ذكر ألفريد بتلر صاحب كتاب (فتح العرب لمصر) .

وثمة تساؤل : لماذا لزم المؤرخون العرب واليونانيون والرومانيون الصمت المطبق[1] عن حريق هذه المكتبة ، مدة ستة قرون ، بعد الفتح العربى ، حتى جاء ابن القفطى (١١٧٢ / ١٢٤٨) ومن بعده ابن العِبْرِى (١٢٢٦/١٢٨٦) ليعلق فى عنق كل من عمر ابن الخطاب وعمرو بن العاص أمر إحراقها ؟!

تقول الدكتورة سيدة الكاشف (مصر فى عصر الولاة ص ١٩١/١٩٥) : (يلاحظ أن هذه الفرية لم ترد على لسان المؤرخين إلا بعد أكثر من خمسمائة سنة على فتح الإسكندرية ، ولم يرد خبر هذا الحريق فى كتب المؤرخين المسلمين المتقدمين ، أمثال ابن عبد الحكم والبلاذرى واليعقوبى والطبرى ، كما لم يرد فى كتب المؤرخين المسيحيين ، مثل حنا النقيوسى الذى كان قريب العهد بفتح الإسكندرية ، ومثل سعيد بن البطريق المتوفى سنة ٩٦٠م .

والمؤرخ أوراسيوس الذى كتب سنة ٤١٦م ذكر أنه رأى الرفوف أو الصناديق فى السرابيوم فارغة ، ليس فيها شيء من الكتب ، ولم يشر إلى وجود أى مكتبة تستحق الذكر بالإسكندرية .

ولعل ما ذكره عبد اللطيف البغدادى وغيره كان نقلاً عن مصدر عَدُوّ للإسلام والمسلمين . ولم يصل إلينا) .

ثُمّ إن حرص المسلمين على طلب العلم (ولو فى الصين) ، وأخذ (الحق من كل من جاء به ، ولو كان كافراً) ، يؤكد عدم تفكير مسلم فى حرق كتاب ، وثمة خبر عن صَحَابى قال : كان الناس يسألون عن الخير ليتبعوه ، وكنت أسأل عن الشر لأجتنبه ، وهذا يعنى وجوب قراءة كل شيء لنتبين الخبيث من الطيب ، والذين يرفضون فكر الأعداء إنما يرفضون معرفتهم ، حتى يقعوا فى شباكهم ، وسنرى كيف حرص المبشرون والمستشرقون على معرفة كل شيء عنا ، حتى يتمكنوا منا .

---

(١) سيأتى أن من المؤرخين الرومان من تناول هذ الحريق ، بالرغم من أن استرابون وهريتوس وشيشيرون مروا بهذا الحدث مر الكرام .

وإذا كانت ظروف المسلمين - فى بداية (الدعوة) - قد شغلتهم عن علوم ما ليس فى (القرآن الكريم والحديث الشريف) فإن الاستقرار فى العهدين الأموى والعباسى أدى إلى طلب ما أمكن الحصول عليه من الآثار الهندية والفارسية والرومية .

وإذا كان المسيحيون فى الإسكندرية اشتركوا فى تدمير (الأكاديمية) ، وأحرقوا الكتب ، فإن الصليبيين (أحرقوا الكتب فى طرابلس الشام فى القرن الثالث عشر ، والأسبان أحرقوا الكتب العربية ، بعد طرد العرب من الأندلس ، وأحرق الفرنسيون الكتب العربية بعد استيلائهم على تونس والجزائر والمغرب) .

يقول صاحب (عصر الإسكندرية الذهبى ص ٦٩) ، نقلاً عن ألفرد بَتْلر : على فرض وجود المكتبة عند الفتح العربى ، فإن العرب لم يدخلوا الإسكندرية إلاّ بعد أحد عشر شهراً من فتح مصر ، وكان من شروط المعاهدة أن يأخذ الرومان ماشاءوا من آثار وتحف ومقتنيات ، فلماذا لم يأخذوا الكتب ، وكان عندهم متسع من الوقت لنقلها عن طريق البحر ؟ ولماذا لم تستول الأديرة والكنائس على هذه الكنوز المستباحة ؟

تقول زيجريد هونكه فى كتابها (الله مختلف تماماً) : إن العرب عندما دخلوا الإسكندرية عام ٦٤٢ لم تكن هناك مكتبة فى الإسكندرية ، فقد تم إحراقها قبل ذلك بقرون ، كما أنه لم تكن حمامات عامة هناك ، وبينت (المستشرقة) الألمانية أن المكتبة القديمة الملحقة بالأكاديمية (الميوزيوم) ، التى أسسها فى الإسكندرية بطليموس الأول، حوالى عام ٣٠٠ ق.م - قد أحرقت عام ٤٧ ق.م ، عندما حاصر يوليوس قيصر المدينة ، وقد أعادت كليوباترا تشييد المكتبة ، وزودتها بكتب من (برجامون) .

وشهد القرن الثالث الميلادى بداية التدمير المنظم للمكتبة ، فقد عطل القيصر كراكالا الأكاديمية ، وقام المتحمسون الدينيون بتدمير المكتبة عام ٢٧٢م ، بوصفها عملاً وثنياً .. وفى عام ٣٩١ استصدر البطريرك تيوفيلوس (٤١٢/٣٨٥) من القيصر ثيودوسيوس إذناً بالموافقة على تدمير ما بقى من الأكاديمية ، وإحراق ما بقى من المكتبة الملحقة بها ، والتى كانت تحوى ٣٠٠ ألف لفافة ، وذلك من أجل إقامة كنيسة ودير مكانهما .. واستمر التدمير فى القرن الخامس عن طريق الإغارة على العلماء الوثنيين ، وعلى أماكن عبادتهم ، وتدمير مكتبتهم .

● وجاء شيخ المؤرخين المصريين (مصر القديمة جـ ١٤ ص ٢٦٣/٢٥٧) ليقول : ذكر أولوس هيريتوس ، صديق يوليوس قيصر ، أن القيصر أمر بحرق كل السفن الراسية على طول حياض الميناء الكبرى ، على امتداد الساحل ، وذلك بمثابة إجراء حربى ، لحماية نفسه من حرب الثوار التى كانت ناشبة أظافرها فى شوارع الإسكندرية بعصابات كبيرة ، ولم يتحدث هيريتوس عن تخريب النار للمكتبة ، وكذلك لم يكتب شيشرون أى كلمة عن حريق المكتبة ، كذلك لم يفعل استرابون .

وقد وصل إلينا من لوسيوس أنايوس سنكا ، معاصر نيرون (أن أربعين ألف كتاب أحرقت فى الإسكندرية) .

وذكر بلوتارخ أن الحريق انتشر من أحواض الميناء ، وامتد إلى المكتبة العظيمة فأتلفها .

وبعد ذلك يقول المؤرخ الكبير : لا ريب فى أن أقوى حجة على عدم إتلاف مكتبة الإسكندرية أن هذا الحادث لم يذكره أحد لنا قط حتى الآن (!؟) .

وخلاصة القول أننا إذا أردنا أن نصر على إيجاد صورة تفسر لنا كارثة اختفاء مكتبة الإسكندرية – فإن المنطق السليم يرجع إلى سبب بسيط ، (وهو أن الكتب مثلها كمثل الجلباب ، أو الحذاء ، فإذا استعملتها بليت) !!

مع الاعتذار عن كلمة (الحذاء) مقارنة بالكتاب ، فإن المؤرخ الكبير نسى أن برديات مصر القديمة وقوالب آشور ظلت على قيد الحياة إلى يومنا هذا ، وما تزال تعمر متاحف أوربا وأمريكا .. ثم إن الكتب تتجدد بتجدد النسخ ، وكان بكل من المكتبة والمتحف هيئة من النساخين ، ثم إن مؤلفات كثير من علماء وأدباء وفلاسفة الإغريق ما تزال متداولة بيننا .. ونسى المؤرخ الكبير ما ذكره عن سنكا وبلوتارخ ، وكان بوسعه أن يجد عذراً لمن لم يتم الحصول فى كتاباتهم على ذكر الحريق ، بسبب أن كتبهم لم تصل إلينا كاملة ، أو لأنهم آثروا الصمت خزياً وشعوراً بالعار (الحضارى) ، أو لأن مؤرخين آخرين بسطوا القول فى هذا الموضوع ، فآثروا الانشغال بغيره .

ويضيف مؤرخنا أن محتويات المكتبة والميوزيوم كانت إنتاجاً إغريقياً ، (وليس لأبناء مصر الأصليين أى مجهود ، اللهم إلا كتاب التاريخ الذى وضعه مانيتون المصرى

بالإغريقية) .. كأن اللغة هى المبرر ، ونسى أنه سبق أن تحدث عن معجم مصرى بابلى دُوِّن فى عهد أخناتون ، ووجد فى آثار (تل العمارنة) ، من أجل قوة الاتصال بالحضارة البابلية ، كما نَسِى قوة الاتصال بين مصر واليونان ، من قبل الإسكندر وبعده ، وأن يونانيين تتلمذوا فى (بيت الحياة) المصرى ، وهل كانت رحلة الإسكندر فى مصر وآسيا بدون مترجمين ؟ ولماذا الحديث عن الكتب التى كان يرسلها الإسكندر - حيث حل - إلى أستاذه أرسطو ؟ لقد فات المؤرخ الكبير أن الذى يُنشئ مكتبة كبرى لا يقتصر على لغة واحدة . وما كانت إمبراطورية البطالمة والرومان لتعجز عن مترجمين ، وهم يحكمون شعوباً شتى ، هل نسى أن الحضارة اليونانية حضارة تجارية ، وأن (الأسطول) اليونانى كان يجوب شواطىء البحر المتوسط ؟ ثم أين كانت تقع الإسكندرية ، أمن الممكن أن ترفض التراث المصرى ، وأكثر الذين بنوها وعملوا فيها - دون شك - مصريون ؟ إن للأستاذ سليم حسن كتاباً من جزءين ، يضم ما حصل عليه (من الأدب المصرى القديم) ، وفيه تعليقات تفيد أن الإغريق - ابتداء من هومر - اطلعوا على هذا الأدب وأخذوه منه ، وذلك من قبل البطالمة بقرون ، ففيم كانت هذه التعليقات ؟! ويستمر المؤرخ الكبير فى دعواه أن (أغرب ما يلفت النظر فى أمر علماء الميوزيوم أنه لم يوجد من بينهم واحد تحدث عن اللغة المصرية ، أو ترجم شيئاً عنها ، فكأن لغة مصر وعلومها الغابرة عندهم لم تكن شيئاً مذكوراً) .

كأن سيادته لم يتحدث - خلال ١٦ مجلداً - عن فضل الحضارة المصرية ، وسبقها الحضارة الإغريقية بعشرات القرون ، (وعلى أى حال سنرى - فيما يلى - أن علماء الإغريق كانوا على الرغم منهم متأثرين بحضارة مصر القديمة ، التى كانت متأصلة فى كل فروع علومهم وآدابهم) .. أكان هذا التأصيل على غير علم منهم بلغة هذه الحضارة ؟!

إن المؤرخ الكبير وقف حائراً أمام (حريق المكتبة) ، مع شهرته ، وكثرة ما كتب بشأنه ، فكيف يجزم بخلو المكتبة من التراث المصرى ، وأمر هذه المكتبة قد انتهى منذ أكثر من خمسة عشر قرناً ؟!

إن بعض الدارسين مثل چورج جيمس فى كتابه (التراث المسروق) ، ومارتن برنال فى كتابه (أثينا السوداء) ، أعلوا من شأن الحضارة المصرية وأثرها على الإغريق .

وقد نقل الأب قنواتى (المسيحية والحضارة العربية ص ٩٤) عن (تاريخ الحكماء) لابن القفطى : « والإسكندريون هم الذين رتبوا بالإسكندرية دار العلم ، ومجالس الدرس الطبّى ، وكانوا يقرءون كتب جالينوس ، ويرتبونها على هذا الشكل الذى تقرأ اليوم عليه ، وعملوا لها تفاسير وجوامع تختصر معانيها ، ويسهل على القارئ حفظها وحملها فى الأسفار ، فأولهم على ما رتّبه إسحق بن حنين اصطفن الإسكندرانى، ثم جاسيوس ، وأنفيلاوس ، ومارينوس ، فهؤلاء الأربعة عمدة الأطباء السكندريين ، وهم الذين عملوا الجوامع والتفاسير » .

وإذا كان هؤلاء الأربعة من بقايا الحكم الرومانى ، فإن تفوقهم الطبّى يشير إلى تتابع الوجود السكندرى المصرى ، وإن اختلفت الملل ، وإن تنوعت الجذور ، فالأرض التى يقيمون عليها ، والبيئة التى يتنفسون أنفاسها ، هى عامل الخلق والإبداع ، وهذا ما تعبر عنه الحضارة الإسلامية أبلغ تعبير .

ثم إن مؤرخنا الكبير هو القائل : (لا نزاع فى أن بطليموس الأول قد حث الباحثين على درس المدنية المصرية ، وغيرها من المدنيات المعاصرة) ، من أجل أن يثقفوا أنفسهم ، أم من أجل أن يزودوا المكتبة والميوزيوم بآثار هذه المدنيات ؟!

أحسب أن الأستاذ الجليل أعجله الأمر - وهو يدون ستة عشر مجلداً فى تاريخ مصر القديمة - أن يراجع مقروءاته الكثيرة ، ويقارن بين أخبارها ، ويغربل منها ويختار ، وأخشى أن أقول إنه خضع لآفة (المستورد) من الأفكار والأخبار ، التى تسود العالم العربى ، منذ الاتصال بفارس والهند والروم .

روى الجاحظ (البخلاء جـ ٢ ص ٤) عن أسد بن جانى : (وكان طبيباً فأكسد مرة ، فقال له قائل : السنة وبيئة ، والأمراض فاشية ، وأنت عالم ، ولك صبر وخدمة ، ولك بيان ومعرفة ، فمن أين تُؤتَى فى هذا الكساد ؟ قال : أما واحدة فإنى عندهم مسلم ، وقد اعتقد القوم ، قبل أن أتطبب ، بل قبل أن أخلق ، أن المسلمين لا يفلحون فى الطب .. واسمى أسد ، وكان ينبغى أن يكون اسمى صليباً ، ومرايل ، ويوحنا ، وبيرا .. وكُنيتى أبو الحارث ، وكان ينبغى أن تكون أبو عيسى ، وأبو زكريا ، وأبو إبراهيم .. وعليّ رداء قطن أبيض ، وكان ينبغى أن يكون رداء حرير أسود .. ولفظى عربى ، وكان ينبغى أن تكون لغتى لغة أهل جنديسابور) !!

كسد الطبيب العالم لأنه عربى ، والناس مع (المستورد) فكراً ولغة وملابس ومطاعم ومراكيب !!

- ٢ -

ومن المستورد ما أورد بتلر (فتح العرب لمصر ص ٣٢٩/٢٧٠) أنه لابد أن نقول : إن المتحف قد تخرب وزال قبل ذلك - الفتح العربى - ولعل زواله كان فى الحريق الذى أحدثه يوليوس قيصر، عندما حاصره المصريون فى ذلك الحى ، تحت قيادة (أخيلاس)، أو لعل ذلك وقع فى النضال الأخير الذى كان فى أواخر الوثنية ، والاضطراب الذى حل بها عند احتضارها .

أما عن معبد (سرابيس) فقد تهدم قبل فتح العرب بمدة طويلة ، ولكن لاشك فى أنه قد كان بناء من أروع الأبنية وأعظمها .

لكن أهم من ذلك كله أن عقود هذا المعبد كانت لها أبواب تفضى إلى حجرات فى البناء الأعظم (السرابيوم) ، كان فى بعضها مكتبة الإسكندرية الكبرى ، وكان فى البعض الآخر مشاهد لآلهة مصر القديمة .

إن تلك الكتب إذا كان قدقضى عليها بالحرق لأحرقت حيث هى ، وما كان عمرو ابن العاص - وقد أبى أن يعطيها لصديقه (فليبونوس) - ليجعلها فى أيدى أصحاب الحمامات فى المدينة ، فإنه لو فعل ذلك لاستطاع (حنا فليبونوس) أو سواه من الناس أن يستنقذوا عدداً كبيراً منها بثمن بخس ، فى تلك الشهور الستة التى قيل إنها جُعلت وقوداً للحمامات فيها ، فمما لا شك فيه أن كثيراً من الكتب فى مصر ، فى القرن السابع ، كانت من الرق ، وهو لا يصلح للوقود ، وما كان أمر الخليفة ليجعله يصلح لذلك ، وإذا نحن استبعدناها فكيف يتصور أحدٌ أن ما يبقى من سواها يكفى لوقود أربعة آلاف حمام مدة مائة وثمانين يوماً ؟!

إن إيراد القصة على هذه الصورة مضحك ، وإنه ليحق لنا أن نسمع ما فيها ونعجب .

ومن المؤلم أن (استرابو) لا يذكر شيئاً عن المكتبة ، فإنه لو ذكر شيئاً لكان دليله قاطعاً فى هذه المسألة ، ولعرفنا الحقيقة عما رواه بعض المؤرخين القدماء من ضياع

المكتبة سنة ٤٨ ق.م ، أى قبل زيارته ببضع سنين ، فقد كان قيصر عند ذلك محصوراً فى حى (البروكيون) ، يحيط به المصريون من كل جانب ، وعليهم قائدهم (أخيلاس) ، فأحرق السفن التى فى المياه ، وقيل إن النار امتدت من هناك فأحرقت المكتبة ، وأفنتها.

أما (بلوتارخ) فلم يكن به شك فى الأمر ، إذ قال : (ولما رأى أسطوله يقع فى يد عدوه اضطر أن يدفع الخطر بالحريق ، فامتدت النار من المراسى فى الميناء فأحرقت المكتبة) .

وواضح أن (سنكا) قد صدق هذه القصة ، إذ قال : (لقد أحرقت فى الإسكندرية أربعمائة ألف كتاب) .

وما أغرب ما قال (ديوكاسيوس) : (وامتدت النيران إلى ما وراء المراسى بالميناء، فقضت على أنْبار القمح - الصوامع والأهراء - ومخازن الكتب) .. وقيل إن هذه الكتب كانت كثيرة العدد ، عظيمة القيمة .

وقد وصف (أميانوس مرسلينوس) مكتبة الإسكندرية (التى لا تقوم بثمن ، والتى اتفق الكتاب الأقدمون على أنها كانت تحوى سبعمائة ألف كتاب ، بذل فى جمعها البطالسة جهداً كبيراً ، ولقوا فى سبيل ذلك عناء كبيراً ، وقد أحرقتها النيران فى حرب الإسكندرية ، عندما غزاها قيصر وخربها) .

وكتب (أورسيوس) ما يعزز هذا القول ، وذلك حيث يقول : (وفى أثناء القتال أمر بإحراق أسطول الملك ، وكان عند ذلك راسياً على الشاطئ ، فامتدت النيران إلى جزء من المدينة ، وأحرقت فيها أربعمائة ألف كتاب ، كانت فى بناء قريب من الحريق ، فضاعت خزانة أدبية عجيبة ، مما خلفه آباؤنا الذين جمعوا هذه المجموعة الجليلة من مؤلفات النابغين) .

وخلاصة القول أننا نرى الأقرب إلى العقل أن نصدق ما جاء من أخبار ضياع المكتبة فى حريق الإسكندرية ، على يد قيصر ، لا أن نكذبها .

ويضيف (بتلر) : فى أوائل التاريخ المسيحى أنشئت مكتبة كبرى بدل مكتبة المتحف التى ضاعت ، وجعلت فى معبد السرابيوم ، على قلعة (الأكروبوليس) .. وقيل إن (أورليان) هدم أبنية المتحف ، وسواها بالأرض عام ٢٧٣ ، وذلك عندما أوقع بحى

(البروكيون) . فخربه انتقاماً من أهل الإسكندرية ، وعلى ثورتهم مع (فيرموس) ، وهرب عند ذلك أعضاء المتحف الذين كانوا ينتسبون إليه ، فلجئوا إلى (السرابيوم) ، أو خرجوا فى البحر فراراً ، وكانت مكتبة (السرابيوم) تعرف بالمكتبة الصغرى ، أو المكتبة الوليدة ، ولكنا لا نستطيع أن نعين تاريخاً لنهاية المكتبة الأم ، ولا لابتداء المكتبة الوليدة ، على أنه قيل فى الأخيرة ، إن الذى أنشأها بطليموس فلادلفوس .

إذن قد سار معهد (السرابيوم) على سنة الماضين فى تحصيل العلم ، وأنشئت جامعة بها عدد عظيم من الكتب ، وبقى اسم أرسطو متصلاً بالعلم السكندرى ، فى معبد (السرابيوم) ، كما كان من قبل متصلاً بمعهد المتحف .

وكان مقدراً على (السرابيوم) أن يقضى عليه فى أواخر القرن الرابع ، سنة ٣٩٦ ، على يد المسيحيين ، يقودهم ثيوفيلوس .

ومن قبل خُرب (القيصريون) ، ونهب سنة ٣٦٦ ، فى أثناء نضال دينى ، وأغلب الظن أن المكتبة التى كانت فيه قد ذهبت .

قال أونابيوس : (إنهم خربوا السرابيوم ، وحطموا أوثانه ، ولم تبق إلا الجدران ذاتها ، إذ عجزوا عن إزالة تلك القطع العظيمة من الحجارة) .

وقال ثيودوريت فى وصف هذه الحوادث عينها : (ونزعت محاريب الأصنام من أساسها) .

وقال سقراط : (وأمر الإمبراطور بهدم كل معابد الوثنيين فى الإسكندرية) ، ثم قال : (فهدم ثيوفيلوس معهد السرابيوم) ، وقال : (وهدمت المعابد ، وصهرت الأوثان التى من معدن البرونز ، واتخذت منها الأوانى) .. وقال فى موضع آخر : (إنه قد كشفت حجارة عليها نقوش بالحرف المصرى القديم ، عندما كان الناس يهدمون معابد السرابيوم) .

وقال مثل ذلك (سوزومن) ، وهو يذكر أن المسيحيين استولوا على السرابيوم ، منذ أخذه ثيوفيلوس .

وقيل إن الكتب نقلها جورج القبادوقى من هناك ، قبل ثورة المسيحين بقيادة ثيوفيلوس ، وقبل أخذهم المعبد بنحو ثلاثين سنة .

وقيل إنه عندما أخذ المسيحيون الأكروبوليس أرسلت تلك الكتب إلى الإسكندرية.

وإنه لمما يشك فيه أن يكون الثائرون قد أبقوا على تلك الكتب ، وأشفقوا على تلك الكنوز أن تضيع ، وهى فى نظرهم كتب الوثنيين ، قد وضعوها هناك وديعة عند الوثن الكبير .

إنهم خليقون ألا يفعلوا ، وهم الذين حطموا أوثان سرابيس ، وأحرقوا حطامه ، ولم يبقوا فى معبده حجراً قائماً ، ذلك المعبد الذى كان آية العظمة والإبداع فى بلاد العالم .

وإنا لنعجب من إغفال كتّاب ذلك العصر هذا الحادث ، ولكنا مع ذلك نجد الأقرب إلى الأفهام أن تلك الكتب قد ضاعت طعمة اللهيب الذى أحرق وثن سرابيس ، وأنها لم تنزع من براثن ذلك التخريب الذى مزق المعبد كله ، ولم ترسل فى البحر إلى موضع آخر .

وإنا لنستبعد كل الاستبعاد أن تكون مكتبة السرابيوم الكبرى قد بقيت إلى القرن السابع ، من غير أن نجد فى كتابة أحد من كتّاب القرنين الخامس والسادس ما يدل دلالة صريحة لا لبس فيها ولا إبهام ، وقد زار مصر قبل فتح العرب بسنين كثيرة كاتبان مكثران ، هما حنّا مسكوس ، وصفرونيوس ، ولم يذكرا شيئاً عن تلك المكتبة .ولا يتأتى مع كل هذا أن يقول قائل : إن الإسكندرية كانت بها مكتبة عامة كبرى عند فتح العرب .

أما ما كان من أمر العرب ، فإنهم لم يدخلوا الإسكندرية إلا بعد أحد عشر شهراً من الفتح ، وقد جاء فى شروط الصلح أن الروم فى مدة الهدنة لهم أن يخرجوا من البلد إذا شاءوا ، وأن يحملوا معهم كل ما استطاعوا نقله من متاعهم ، وأموالهم ، وكان البحر فى كل هذه المدة خالياً من العدو) لا يقف شيء فيه بين الروم وبين القسطنطينية ، أو سواها، من ثغور البحر ، فلو كانت مكتبة (السرابيوم) عند ذلك باقية لطمع الناس فى ثمن كتبها ، وأغراهم ذلك بنقلها إن لم يُغْرهم شيء آخر ، إذ كانت كتباً قيمة عظيمة القدر ، يقبل على شرائها كثير من الناس الذين لهم شغف بالعلوم، وكان لابد لمثل هؤلاء أن يكونوا على مثال الشخص الذى جاء فى القصص ، وهو حنّا فيليبونوس ، فيسعوا إلى نقل تلك الكنوز العلمية فى وقت الهدنة ، إذ كانت الفرصة ممكنة ، وما كانوا ليتركوها تقع لمحاربى الصحراء الذين لا علم لهم بقيمتها ، وهم على وشك أن يدخلوا المدينة .

ولو كان فى المدينة مكتبة عامة كبرى قبل الفتح . ثم أحرقها العرب ، عند فتحهم لها ، لما أغفل هذا الحادث رجل مثل حنّا النقيوسى ، وهو كاتب قريب العهد بالفتح ، فقد أفاض فى ذكر الإسكندرية ، وفصّل فى وصف فتحها .

إن قصة إحراق العرب لهذه المكتبة لم تظهر إلا بعد نيف وخمسمائة عام من وقت الحادثة التى تذكرها !.

إن الأدلة القاطعة تبرر ما ذهب إليه (رينودو) من الشك فى قصة أبى الفرج ، وهو ما ذهب إليه (جيبون) من عدم تصديقها ، ولابد لنا أن نقول إن رواية أبى الفرج لا تعدو أن تكون قصة من أقاصيص الخرافة ، ليس لها أساس من التاريخ .

ولا شك فى أن العرب عنوا فيما بعد بجمع كثير من الكتب القديمة وغيرها ، مما وقع فى أيديهم ، وعنوا بحفظها ، وترجموا منها فى كثير من الأحيان ، وفى الحق أنهم أقاموا مثلاً يجدر بفاتحى هذه الأيام أن يحذو حذوه ، فقد نقل (سديللو Sedillot) أن الفرنسيين - عندما فتحوا مدينة قسنطينة فى شمال أفريقيا - أحرقوا كل الكتب التى وقعت فى أيديهم . (كأنهم من صميم الهمج) ، أى أنهم تجاوزوا ما فعله الإمبرطور سفيروس .

وبعـــد ...

إذا كان سديللو قد تكلم عن جريمة (الحضارة) فى قسنطينة ، فقد فاته ما حدث فى مدن أخرى بشمالى أفريقيا ، وما صنع نابليون فى مصر ، وأخطر من هذا كله ما صنع الأسبان بعد انتصارهم على العرب ، وبخاصة فى قرطبة وأشبيلية وغرناطة .

ولكن المثير للدهشة هو ما يشبه الإجماع على أن الإسكندر هو بانى الإسكندرية ، مع أنه كان فى عجلة من أمره ، وعلى فرض أنه بنى شيئاً ، فهو على مثال ١٧ إسكندرية أخرى بناها فى رحلته إلى الهند ، أى مجرد (معسكرات) ينتهى أمرها بمجرد الخروج منها ، ثم إن بناء الثغور يحتاج إلى دراسة طويلة لطبيعة التربة ، وعلاقتها بالمد والجزر.

كذلك الشأن بالنسبة لحرق أسطول قيصر .. كيف للقائد الكبير أن يحرق أسطوله خشية أن يقع فى أيدى الثوار ، فيضع نفسه رهينة فى أيديهم ، أليس الأسطول هو ضمانة رجوعه إلى رومه ؟!

أورد الأستاذ خليل الطوال (الرسالة ١٠/١٠/١٩٣٨) أقوالاً عن الحريق ، على طريقة (وشهد شاهد من أهلها) ، يجبّ به ما نسب إلى يوحنا النحوى والبغدادى وابن القفطى وابن العبرى ، فقال : فى عام ٤٧ ق.م حوصر أسطول يوليوس قيصر بالإسكندرية ، بأسطول مصر الذى كان يفوقه عدداً وعدة ، فنجح قيصر فى إشعال النار بالأسطول المصرى وساعدت الريح على امتداد النار إلى أرصفة الميناء ، ثم إلى جزء كبير من المكتبة .

وهذا تعليل معقول لأنه لا يصدّق أن يشعل (قيصر) النار فى أسطوله ، مخافة وقوعه فى أيدى الثوار ، فيسجن نفسه فى أرض الأعداء ، ويشجع الثوار على الإمساك به وبجنوده ، ولا أمل فى أن تصله نجدة من الرجال أو من المؤن .

وروى أرمانيوس مارسلينوس أن السبعمائة ألف مجلد التى كانت بالمكتبة أتلفت تماماً حين الحصار ، لأن كلاً من قيصر والثوار كان فى شغل بما هو أهم من إطفاء حريق ، وكلاهما يعمل على تأمين نفسه ، وعلى الإيقاع بعدوه .

ولما تولى الإمبراطور ثيودوسيوس ، أصدر أمراً بتحريض جماعة من المتعصبين للمسيحية بالقضاء على جميع المعابد الوثنية ، فنال المكتبة من جراء ذلك ضرر جسيم ، فإن من السهل أن تنزع فتيل القنبلة ، ولكن من العسير أن تتحكم فى مدى انفجارها .

وفى عهد هذا الإمبراطور منعت الآداب والفلسفة اليونانية منعاً باتاً بأمر الأسقف تيوفيل ، وبأمره أيضاً دمرت السرابيوم عام ٣٩١ ، وكان بها بعض الكتب ، وبنى على أنقاضها كنيسة .

وحوالى عام ٤١٤ زار أورازيوس الإسكندرية ، وذكر أنه وجد رفوف هذه المكتبة خالية من الكتب .

قال مسبرك فى كتابه : (الادعاءات الكاذبة) : (إن الإفرنج هم الذين أحرقوا خزانة الإسكندرية) .

وقال بونه مورى : (يجب أن نصحح خطأ شاع طوال القرون الوسطى ، وهو أن العرب أحرقوا الإسكندرية بأمر الخليفة عمر ، والحال أن العرب فى ذلك العصر كانوا

أشد إعجاباً بعلوم اليونان وفنونهم ، فكيف يقومون بعمل كهذا ؟ كما أنه معلوم أن قسماً من تلك الخزانة كان قد احترق فى أثناء ثورة الإسكندرية التى باد فيها أسطول قيصر ، وأن قسماً آخر أحرقه النصارى فى القرن السادس ، واختط العرب الفسطاط ، وتركوا للقبط ممفيس ، ولم يتعرضوا لهم فى دينهم وعاداتهم ، وأطلقوا الحرية لهم فى اختيار البطريرك وبناء الكنائس) .

وجاء فى (سقوط الإمبراطورية الرومانية) لجيبون : (إن هذه الفرية على المسلمين قد لفقها أبو الفرج ابن العبرى ، فى كتابه « مختصر الدول » ، وذلك بعد ظهور الإسلام بنحو ستة قرون ، ولم يتعرض أحد قبله من المؤرخين لذكرها) .

وقد كتب أفتيكيوس ، لبطريرك الإسكندرية ، كلاماً مستفيضاً عن استيلاء المسلمين على ثغر مصر ، ولم يشر إلى هذه الحادثة ، وكذلك أوتينّموس ، والمؤرخ يوحنا نقيوس ، وتاريخه يعتد به .

● وأضافت الدكتورة أميرة مَطَر (الفكر الإسلامى وتراث اليونان ص ٧٥) أن أبحاث بعض المستشرقين - ومنهم كازانوفا وفورلانى - تقول : لا يمكن أن تكون مكتبة الإسكندرية موجودة بعد نهاية القرن الرابع الميلادى ، والأرجح أن تكون الثورات قد عصفت بها قبل الفتح العربى .

ويؤيد هذا القول أنه فى القرن الرابع الميلادى كانت هناك مكتبات ملحقة بالأديرة، عرفت إحداها باسم المكتبة القيصرية ، وقد نهبت هذه المكتبة ، حين تحول المعبد الملحق بها إلى كنيسة .. ومثل هذا حدث لمكتبة السرابيوم التى قضى عليها حوالى عام ٣٩١ ، فى عهد الإمبراطور ثيودوسيوس الأول ، وفى هذا الصدد يقول العالم الإيطالى برتشيا : من الصعب ، بل من المستحيل أن نفترض وجود مكتبة كبيرة بالإسكندرية ، بعد نهاية القرن الرابع الميلادى ..

ويقول سارتون (تاريخ العلم جـ ٤ ص ٢٨٢) : إن قصة حرق عمرو بن العاص المكتبة يعوزها التأييد ، لأنه لم تكن توجد كتب فى المكتبة وقتذاك لتدميرها .

ويضيف (تاريخ العلم جـ ٢ ص ٢٨١/٢٨٢) : إنه فى أواخر القرن الرابع الميلادى كانت الوثنية فى طريقها إلى الزوال من الإسكندرية ، حيث كان الموسيون والسيرابيوم آخر المعاقل الوثنية بها ، على فرض أنهما كانا باقييْن وقتذاك ، ومن المعروف أن أوائل

المسيحيين وتلاميذهم كرهوا المكتبة أشد الكره ، لأنها كانت فى نظرهم معقل الكفر والخلاعة ، ولهذا كانت موضع الهجوم الصامت حتى آل إليها الخراب .

● وعلى أثر ضياع مكتبة ومدرسة الإسكندرية ، وبعد أن فقدت الإسكندرية مركزها التجارى ، أصبحت أنطاكية من أهم المراكز القريبة من الدولة البيزنطية ، وتحولت إلى مركز ثقافى ، جذب خيرة أساتذة الإسكندرية ، وصارت مقراً لبطريرك اليعاقبة ، وانتشرت حولها أديرة الرهبان الذين كانوا ينقلون الكتب من اليونانية إلى السريانية ، وبخاصة أعمال الفلاسفة .

ومنذ الفتح العربى انعزلت الإسكندرية ، وانفصلت عن بيزنطة ، بسبب حروب البحر المستمرة ، وكان لا مناص من أن تفقد دورها الثقافى والاقتصادى ، وبخاصة بعد أن أصبحت دمشق مركزاً لإدارة الإمبراطورية الإسلامية الجديدة ، هذا إلى أن الفلسفة لم تجد لها رواجاً عند الأقباط ، بعد الفتح العربى .

وتتفق المصادر القديمة على أن مركز التعليم قد انتقل من أنطاكية إلى حران ، إذ كانت حران مركزاً هاماً للثقافة اليونانية ، خاصة فى تلك المناطق التى كان أهلها يتحدثون الآرامية والسريانية ، إذ كانت الدراسات اليونانية فيها نشطة من زمن ، ويقوم بها النصارى والسريان والوثنيّون على السواء .

وكانت حران كذلك مركزاً متقدماً فى دراسة الفلك والرياضيات والطب والسحر .

ويذكر كل من المسعودى والشهرستانى أن الحرانيين كانوا يقولون بالوسائط الروحانية ، وأن الكواكب تمثل الملائكة المقربين إلى الله ، رب الأرباب ، وهم الذين عرفوا بالصابئة ، وقد يرجع بهم هذا الفكر إلى ما قبل الإسكندر الأكبر .. وكانت لحران مكانة كبيرة فى خلافة المتوكل .

● ● ●

عصر الشهداء

- ١ -

اتخذ الصراع بين الدولة الرومانية والمسيحية صورة مادية عنيفة ، استغرقت نحو ثلاثة قرون ، بين سنة ٣٠ و ٣١١ للميلاد ، نشط فيها اليهود مع الوثنيين ضد المسيحيين، حتى عانى المسيحيون ألوان العذاب .. وكان تمسكهم بعقيدتهم وطقوسهم وآدابهم يزيد من سخط كل من الوثنيين واليهود ، كما كان يُشعر المسيحيين بنشوة التفوق والتميز والاستعلاء .. ولما كان تسلط نيرون سنة ٦٨ ، وحريق رومه ، ألصقت تهمة الحريق بالمسيحيين ، تخلصاً من أوزار القيصر المأفون ، الذى أراد - كما يقال - أن يتخلص من الأحياء العشوائية ، ليعيد بناء المدينة على أساس من (حلم) حضارى . سبق إلى خيال (مجنون) ، ولما لم يستطع التحكم فى النيران التى انتشرت فى أنحاء العاصمة ، أشعل (نيران) السخط على المسيحيين ، فثارت ثائرة الوثنيين واليهود ، وأوقعوا بهم مقتلة طاغية ، استشهد فيها - كما يقال - القديس بطرس .

ولما كان عهد تراجان عام ١٠٦ تكررت المأساة ، على أساس إخماد عناصر الفتنة ، وتوحيد شمل الأمة .

وكان كراكلا يعد العدة لشنّ حرب ضد بارثيا Parthia ، ويبدو أنه خشى أن تهدد الاضطرابات فى الإسكندرية خطوط إمداد قواته الغازية ، فكان أن احتال للموقف ، وعند قدومه إلى الإسكندرية خرج كبار رجالات الإسكندرية إلى الضواحى لتحيته ، فأمر بقتلهم فى الحال ، وبعد أيام أمر بوقف المذبحة ، ثم أباح لقوته فى المدينة القتل والنهب ، ثم أصدر سلسلة من الأوامر ، يقول أحدها :

(كل المصريين الموجودين فى الإسكندرية ، وخاصة الريفيين الذين فروا إليها من أماكن أخرى ، ويمكن بسهولة التعرف عليهم ، يجب طردهم كلية ، باتباع كل السبل ،

ويستثنى من ذلك تجار الخنازير ، وعمال القوارب النهرية ، وأولئك الذين يحضرون البوص لتدفئة الحمامات) .

إن أمر الطرد الذى أصدره كراكلا يذكرنا بأن (الشرق شرق ، والغرب غرب) ، وأن من الأوفق التمييز بين المشاعر الوطنية المصرية وبين تسلط الرومان وحرصهم على أن تكون مصر مجرد سلة غذاء ، فعلى مدى آلاف السنين برهن المصريون ، على مدى ارتباطهم بالأرض ، مهما كلّفهم من عناء . ومهما طمع فى عطائها الطامعون ، فالفرار وترك المصرى بيته ، مهما كان تواضع هذا البيت - يعد أخطر قرار يتخذه المصرى ، وهو ما اضطر إليه كثير من المصريين ، بسبب سوء الإدارة الرومانية ، مما دفع إلى حدوث ثورات متلاحقة ، ومذابح جماعية متتابعة .

وفى منتصف القرن الثالث لاحظ الإمبراطور ديكيوس (٢٤٩/٢٥١) أن المسيحية قد زاد انتشارها ، وبدأ أنصارها يظهرون كقوة لها دور فى الحياة العامة ، ذلك لأن القانون الطبيعى (قوة الضغط تولد الانفجار) ليس قانوناً نفسياً فقط ، بل هو قانون فزيولوجى وبيولوجى أيضاً .. وكان أن قرر القيام بحملة شاملة للقضاء على جميع أتباع الدين المسيحى ، فى جميع أنحاء الإمبراطورية ، وشهدت مصر اضطهاداً للمسيحيين بالتعذيب والصلب والقتل والنفى وهدم البيوت ونهبها .. ولم ينج إلا من فرّ إلى الصحراء، أو التجأ إلى المغاور والكهوف والمقابر .

كان على كل (مسيحى) ، ذكرًا كان أو أنثى ، صغيراً أو كبيراً ، أن يشارك فى عبادة وثنية ، فى حضور مندوبين خصصوا لذلك فى كل محلّة ، لكى يشهدوا مدى الامتثال للأمر ، ومن رفضوا الإذعان عوقبوا باعتبارهم مسيحيين ، أما أولئك الذين امتثلوا فقد منحوا شهادات ، عثر على عشرات منها فى مصر ، على قصاصات صغيرة من البردى ، تقدم عند الطلب .

ومن ضحايا ديكيوس اللاهوتى الشهير (أوريجين) ، أحد أبناء الإسكندرية .

واستمرت حملة الاضطهاد حتى توفى ديكيوس ، فى معركة ضد القوط الذين غزوا الإمبراطورية .

ثم ألغى الاضطهاد بأمر من الإمبراطور جالينوس الذى كان مشغولاً بمنافسيه على العرش ، وبالبرابرة الذين يتربصون على الحدود ، وسمح لمصر بالعودة إلى أديانها ،

وممارساتها ، وكان المسيحيون أحراراً فى مواصلة خلافاتهم الداخلية حول العقيدة ، وكثيراً ما كانت هذه الخلافات تتحول إلى معارك دموية .

وحدث فى عهد الإمبراطور دقلديانوس (٢٨٤/٣٠٥) أن خرج عن طاعته واليه فى الإسكندرية ، فحاصرها ثمانية أشهر ، ، ثم فتحها عنوة ، وأطلق جنوده فيها يقتلون ويحرقون وينهبون .

وكما يقول جيبون (اضمحلال الإمبراطورية الرومانية جـ ١ ص ٣٢٧/٣٣٢) : ادعى أصحاب المصالح الوثنية أن المسيحيين الذين نبذوا عبادة رومه ونظمها قد أسسوا جمهورية من الميسور القضاء عليها قبل أن تكون لها قوة عسكرية ، يتولى زمام الأمر فيها حكام منها ، ولها أموالها العامة ، وتربط بين مختلف أحزابها - بروابط وثيقة - تلك الاجتماعات المتكررة التى يعقدها الأساقفة الذين انصاع لقراراتهم ورعاياهم الكثيرون الموسرون انصياعاً تاماً صريحاً .

ومثل هذه الإشارات قطعت على دقلديانوس سبيل الإحجام ، وكان أن تحدد يوم العيد الرومانى لوضع القيود على تقدم المسيحية ، ففى الساعات الأولى من فجر ذلك اليوم قصد رئيس الحرس البريتورى على رأس عدد من القواد والتربيون ومأمورى الدخل إلى الكنيسة الرئيسية فى نيقوميديا ، وفتحوا الأبواب عنوة ، واندفعوا إلى المحراب ، وأحرقوا مجلدات الكتاب المقدس .. وفى بضع ساعات هدموا هذا البناء السامق المقدس ، الذى طالما أحنق الوثنيين واليهود .

وفى اليوم التالى صدر مرسوم الاضطهاد العام الذى ينص على هدم الكنائس فى كل الولايات ، والحكم بالإعدام على كل من يجرؤ على عقد أية اجتماعات بقصد العبادة الدينية ، وطلب إلى الأساقفة والمشايخ أن يسلموا كل كتبهم المقدسة إلى الحكام ، ليتولوا أمر إحراقها بطريقة علنية مهينة .. وتمت مصادرة أملاك الكنيسة ، وبيعت لمن يدفع أكثر ، أو ضمّت إلى أملاك الإمبراطور ، ورئى أن يخضع للتعذيب من لا يرجعون إلى ديانة رومه .. وحرم جميع المسيحيين من حماية القانون ، ورخّص للقضاة فى محاكمة أى مسيحى ، ولم يسمح للمسيحى بالشكوى من أى ضرر يقع عليه .

وبالرغم من أن المسيحيين تخلّوا فى رضا عن زخارف كنائسهم ، فلم يكن فى وسعهم أن يقرروا إبطال اجتماعاتهم الدينية ، أو تسليم كتبهم المقدسة .. ويبدو أن ورع

الأسقف الإفريقى فيلكس قد أزعج صغار موظفى الحكومة ، فأرسله أمير مدينته إلى (البروقنصل) الذى حمله بدوره إلى رئيس الحرس البريتورى فى إيطاليا ، فأطيح برأسه، وكان بوسعه أن يفتدى نفسه بإجابة مراوغة ، كما فعل كثير من الأساقفة والمشايخ .

وقد لجأ بعض العامة إلى المقاومة ، فأبيدوا ، كما حدث فى فريجيا .

وتجاوز جنون دقلديانوس مخاوفه ، فأعلن فى سلسلة من المراسيم الصارمة (فى سنتى ٣٠٣/٣٠٤) عن عزمه على محو المسيحية .. وقضى أول هذه المراسيم على حكام الولايات باعتقال كل رجال الكنيسة ، وسرعان ما امتلأت السجون المخصصة لكبار المجرمين بجموع الأساقفة والمشايخ والشمامسة والقراء ، بل وطاردى الأرواح الشريرة.. وأمر الحكام فى المرسوم الثانى باستخدام العنف ، حتى يضطر هؤلاء إلى عبادة الآلهة القائمة ، وفرضت العقوبة الصارمة على كل من يجرؤ على إنقاذ أى مشاريع للمسيحية حرمت من حماية القانون .

لقد أراد محو المسيحية ، وكل ما يتعلق بها ، حتى إذا جاء الجيل الجديد لم يجد ما يتعلق به .

ونظم أعوانه العبادة الوثنية ، إذ وضعوا لها ترتيبات وطقوساً تحل محل ترتيبات وطقوس المسيحية .

وأوغل فى الانتقام ممن لم يستجب لمراسيمه ، وممن نافق ولم يرتد ، فأحرق الأحياء ، دون أن يفرق بين جنس وجنس ، ولم يرحم شيخًا أو امرأة أو طفلاً .. كانت الجماعات تلقى فى النيران ، حتى ارتاعت الجماهير الوثنية من قسوة هذه الإجراءات، وبخاصة حين كان يلقى بالمسيحيين للوحوش فى ساحة الألعاب .

يقول رفاعة الطهطاوى نقلاً عن المقريزى :

(إن دقلطيانوس ، أحد ملوك الروم المعروفين بالقياصرة ، أوقع بالنصارى ، فاستباح ديارهم ، وغلق كنائسهم ، ومنع من دين النصارى ، وحمل الناس على عبادة الأصنام ، وأسرف فى قتل النصارى ، وعمّ أرض مصر كلها بالسبى والقتل ، وكانت أيامه شنيعة ، قتل فيها من أصناف الأمم ، وهدم من بيوت العبادات ، ما لا يدخل تحت حصر ، وكانت وقعته بالنصارى هى الشدة العاشرة ، وهى أبشع شدائدهم وأطولها ،

لأنها دامت عليهم عشر سنين، لا يفتر يوماً واحداً يحرق فيه كنائسهم، ويعذب رجالهم ، ويطلب من استتر منهم أو هرب ليقتل .. يريد بذلك قطع أثر النصارى ، وإبطال دين النصرانية من الأرض ، وممن قتل فى الإسكندرية بطرس بطرك الإسكندرية) .

ومع هذا ، يقول صاحب (حرية الفكر جـ ١ ص ٣٦) : ليس هناك ما يدل على أن الأقباط الذين قتلوا فى هذه الاضطهادات يزيدون على بضع مئات ، فإن القاضى الرومانى لم يكن يدرك شيئاً عن المسيحية ، سوى ما كان يتعارض فيها والسلطة الرومانية ، فكان يقنع بأوهى اعتراف بهذه السلطة لتبرئة المسيحى فى العهد الأول لظهور المسيحية ، ثم لما زاد عدد المسيحيين زاد الاضطهاد ، فصارت الدول تقتفى آثارهم وتكبسهم فى معابدهم ، وتقدمهم طعاماً للوحوش فى الملاهى الكبرى .. وقد اشتهر بالاضطهاد للمسيحيين إمبراطور يدعى دقلديانوس ، مات سنة ٣١٣ ، وأخفق فى إدارة الدولة إخفاقاً تاماً حتى خلع نفسه عن العرش ، وذهب يزرع الكرنب فى دَلْماطيا ، ولم تكن مسألة المسيحيين إلا إحدى المسائل العديدة التى عالجها ولم يستطع حلها .

إذا أخذنا بقول (الأستاذ) سلامة موسى ، وهو من هو (عظم شأن ومكانة وكثرة مريدين) ، وجب أن ننسى أنه فى القرن العشرين ، فى عصر (حقوق الإنسان) ، يأمر الضابط بالقبض على (فلان) فيأتيه الجند بفلان وعائلته وأصحابه ، ومع أن سجون (الاحتياط) ، وسجون الأحكام ، والمعتقلات ، خاضعة لتفتيش (النيابة العامة) ، حتى لا يزج فيها بالأبرياء ، أو حتى لا يقع على (الموقوفين) اعتداء - فإن هذه الأسوار جميعاً تضم كثيراً ممن لم تدون أسماؤهم فى (السجلات) الرسمية ، وكثيراً ما ينسون وراء الأسوار حتى الموت ، ويعفّى على آثارهم ، وقد يحرمون من (التعفية) تحدياً وتجبراً وتنكيلاً بالأهل والصحاب ، وتزلفاً لصاحب السلطان !!

ليس كل من يقبض عليه يحاكم ، وحين يعلن الإمبراطور القضاء على طائفة ، تسبقه كلاب الحراسة ، وكلاب الصيد ، والكلاب البوليسية ، والكلاب الضالة .

إن القاضى الذى (لم يكن يدرك شيئاً عن المسيحية) لا يقنع (بأوهى اعتراف) بالسلطة الرومانية (لتبرئة المسيحى) ، لأن القاضى من أولئك الذين يذهبون إلى (المجتلد) ليلهو (بصراع العبيد) ، وليلهو بأكل الوحوش لحوم المسيحيين و (قرقشة)

عظامهم ، إن (القاضى على دين مليكه) ، والتقاضى إبان المحن لا يعدو أن يكون مثل تعويذة (ماذا فى نفسك) قبل تنفيذ الحكم بالإعدام !!

فى قرتينا كانت معارك الثأر تقام ليلاً فى حفلات (الأفراح) بالزواج ، أو موالد الأولياء ، وتبدأ المعركة بضرب الفوانيس ، ثم يختلط حامل (الفرْفِر) بحامل (الساطور) ، ومن تمرّس بلعبة العصا بمن لم يمسك فى حياته عصا .

وإذا اضطرمت الفتنة لا يكفى لخلاصك أن تكون (إمّعة) ، أو أن تكون (قاضياً) ، فالأمر كما قال الشاعر :

لم أكن من دُعاتها علم الله وإني بحرها اليوم صَالي

- ٢ -

هذا هو منطق الأحداث حتى اليوم ، فكيف منذ حوالى ألف وسبعمائة عام ، حين كان الوصول إلى الحكم بالقتل ، وإدارة الحكم بالقتل ، وحين كان القتل وسيلة انتقام ووسيلة لهو ، وكلما عنف القتل فى (المجتلد) ارتفعت صيحات الاستمتاع ، وحين كان الحكم بالإعدام يعنى (الخزق) وتقطيع الأطراف ، وربط اليدين والساقين بعدة خيول ، تذهب بأجزائه فى كل اتجاه ، أو ربطه من رجليه فى عربة حتى تتفتت أجزاؤه على الطريق بين جماهير تصيح فرحة مرحة ، ترجم الممزق (البرئ أحياناً كثيرة) بالحجارة واللعنات ، وقد يكتفى (بالمشهرة) والحرق فى حفل عام ، كما فعلت محاكم التفتيش بعد ذلك بألف عام .

روى جيبون (اضمحلال الإمبراطورية الرومانية جـ ١ ص ٣٠٩) : أن العلامة أوريجن - وهو من ضحايا هذه الأحداث - أعلن فى (أجلى بيان أن عدد الشهداء كان قليلاً جداً) ، ويقول معقباً : (قد تكون حجته وحدها كافية لدحض القول بوجود هذا الجيش العرمرم من الشهداء الذين أخذت رفاتهم -فى معظم الأحوال- من قبور رومه ، وزخر بها كثير من الكنائس، والذين كانت أعمالهم الخارقة موضوع مجلدات كثيرة جداً من القصص الدينى ، ولكن توكيد أوريجن العام قد توضحه وتعززه الشهادة الخاصة بصديقه ديونيسيوس الذى يعُد - فى مدينة الإسكندرية الضخمة ، وفى ظل اضطهاد ديكيوس العنيف - عشرة رجال وسبع نساء، قتلوا باعترافهم بأنهم مسيحيون).

ويقول جيبون (جـ ١ ص ٣٤١) :(يمكن أن نستخلص من تاريخ يوسيبيوس أن عدد شهداء فلسطين لا يتجاوز تسعة أساقفة ، وأن عدد الشهداء المسيحيين لا يتجاوز اثنين وتسعين) .

(ومن المعقول أن يذهب بنا الاعتقاد إلى أن البلد الذى شهد مولد المسيحية أنجب على الأقل جُزءاً من ستة عشر جزءاً من الشهداء الذين لقوا حتفهم فى نطاق اختصاص جاليريوس ومكسمين ، وعلى هذا يكون مجموع الشهداء عامة نحو ألف وخمسمائة شهيد ، وهو إذا قسم بالتساوى على أعوام الاضطهاد العشرة ، لكان نصيب العام الواحد مائة وخمسين شهيداً ، فإذا خصصنا نفس النسبة لولايات إيطاليا وأفريقيا ، وربما أسبانيا كذلك ، حيث أوقفت أو ألغيت العقوبات الصارمة بعد سَنَتيْن أو ثلاث ، لهبط عدد المسيحيين الذين وقعت عليهم عقوبة الإعدام - بمقتضى حكم قضائى - فى الإمبراطورية الرومانية إلى أقل من ألفى شخص) .

(وحتى مع التسليم - دون تردد أو بحث - بكل ما سجله التاريخ ، أو زينه النسك والتعبد ، فى موضوع الاستشهاد ، فإن المسيحيين - فى خصوماتهم الداخلية - أصلى بعضهم بعضاً ، من ألوان العنف والقسوة ، ما هو أفظع مما عانوا من غيرة الكفار والزنادقة) .

● يبدو أن رؤية كل من أوريجن ويوسيبيوس مرتبطة بالشهداء (القديسين) ، وبأولئك الذين آثروا الاعتراف بمسيحيتهم أمام المحققين أو رجال الشرطة ، برغم ما ينتظرهم من أحكام رهيبة ، أو لعل كلاً منهما - مع أن أحدهما كان من الشهداء - لم يخرج إلى الشارع أثناء المحنة ، حتى لا يؤخذ بدون جريرة .. ثم إن عصر الشهداء مرتبط بمصر ، ومنذ زيارة يوليوس قيصر لمصر والثورات ضد الرومان لم تنقطع ، حتى بالنسبة للمسيحية ، كان لمصر توجهها الخاص ، وما زال إلى اليوم .. من هنا كانت معاداة المسيحية معاداة للمصريين جملة ، وكان سقوط الضحايا من المصريين أضعاف سقوطهم من المسيحيين ، فمن تحدث عن (الكثرة) لم يفصل بين المصريين والمسيحيين، ومن تحدث عن (القلة) كان تركيزه على (القيادة) المسيحية .

ويلاحظ أن الأرقام (العسكرية) وأرقام النكبات - حتى اليوم - تخضع لاعتبارات (سياسية) أكثر مما تخضع للحقيقة .

وهذا (بلينى) ينقل عنه جيبون (جـ ١ ص ٣٩٤) - متحدثاً عن أسباب اضطهاد المسيحيين - (مهما يكن من أمر المبدأ الذى يحكم سلوكهم ، فإن عنادهم الذى لا يلين ولا ينثنى بدا جديراً بالعقاب) .

وتوهم المسيحيون أنهم - بكتمانهم العجيب الذى كان يحيط بالأسرار الإليوسية (احتفالات دينية كانت تقام فى الربيع قديماً بمدينة إليوسيس فى اليونان) ، قد يضفون على نظمهم المقدسة مزيداً من الاحترام فى أعين العالم الوثنى ، لكن هذا التصرف - كما يبدو غالباً فى عمليات السياسة الحاذقة - خدع أمانيهم وآمالهم ، فقد استنتج أنهم إنما حجبوا فقط عن الأنظار كل ما كان يجدر أن تحمر وجوههم خجلاً لإخفائه ، فإن فطنتهم قد هيأت الفرصة للحقد أن يتسع ، وللسذاجة المرتابة أن تصدق تلك القصص الشنيعة التى نعتت المسيحيين بأنهم شر البلية ، وأنهم كانوا فى خلواتهم المظلمة يأتون من المنكرات ما يزينه لهم أحط الخيال ، ويلتمسون رضا إلههم المجهول ، عن طريق التضية بكل فضيلة أخلاقية .

وكان ثمة كثيرون ممن ادعوا الاعتراف بطقوس هذا المجتمع البغيض ، أو سرد أنبائها ، فقيل - على وجه التأكيد - أن (طفلاً حديث الولادة مغطى تماماً بالدقيق ، كان يعرض - وكأنه رمز روحانى للدخول فى الأخوية المسيحية - لسكّين المهتدى الجديد ، الذى يهوى بها ، فيثخن على غير هدى الضحية البريئة ، بكثير من الجروح الخفية القاتلة ، حتى إذا ما انتهى من ارتكاب هذا الجرم القاسى شرب المجتمعون الدم، ومزقوا الأوصال المرتعدة فى شره ونهم ، وتعاهدوا على كتمان السر إلى الأبد ، شاعرين شعوراً متبادلاً بالذنب ، كما قيل - بنفس القدر من التأكيد - إن هذه التضحية غير الإنسانية كان يعقبها حفل لائق تلعب فيه الخمر برءوسهم ، وتوقظ الشهوة البهيمية الجامحة بين ضلوعهم ، حتى إذا حانت اللحظة المقررة أطفئت الأنوار فجأة ، وخلعوا عذار الحياء ، وتناسوا الفطرة الطاهرة ، واختلط الحابل بالنابل ، ولوثوا سواد الليل بارتكاب أشنع الفواحش ، الإخوة مع الأخوات ، والأبناء مع الأمهات) .

يقول تاسيتوس : (أنزل نيرون أشد ألوان العذاب بهؤلاء الذين كانوا - تحت اسم المسيحية القبيح - قد وصموا فعلاً بأبشع العار ، فقد اشتقوا اسمهم ونشأتهم من المسيح الذى لقى حتفه فى عهد تِيبريوس ، على يد نائب الحاكم بيلاطس البُنْطى ،

وأخمدت هذه الخرافة المروعة لفترة قصيرة ، لكنها ما لبثت أن انتشرت وذاعت ، لا فى أرض الميعاد وحدها ، وهى الوطن الأول لهذه الطائفة الشريرة ، بل كذلك وصلت إلى رومه ، وهى الملاذ العام الذى يتلقى ويحمى كل ما هو ملوث ، مهما كان تلوثه ، وكل شيء فظيع ، مهما بلغت فظاعته .. وكشفت افتراءات المقبوض عليهم عن شركاء كثيرين لهم ، وأدينوا جميعاً بتهمة كراهيتهم للجنس البشرى ، أكثر منهم بتهمة إشعال النار فى المدينة ، وعذبوا حتى ماتوا ، وزاد السباب والسخرية من مرارة التعذيب ، ودُقَّ بعضهم بالمسامير على الصلبان ، وخيط آخرون فى جلود الحيوانات المتوحشة ، وتركوا طعاماً للكلاب ، وصُب على بعضهم مواد محرقة ، وأوقدت فيهم النيران ، واستخدموا كمشاعل تضيء حلكة الليل ، وخصصت حدائق نيرون للمشهد الحزين الذى صحب سباق الخيل ، والذى شرف بحضور الإمبراطور الذى اختلط بالشعب فى زى وهيئة قائد عَجلة حربية ، واستحقت جريمة المسيحيين فى الواقع أقسى عقاب يكون فيه عبرة لغيرهم ، ولكن المقت العام تحول إلى إشفاق ، استناداً إلى أن التضحية بهؤلاء الأشقياء التعساء لم تكن من أجل المصلحة العامة ، قدر ما كانت لقسوة الطاغية الحقود) .

ولعل اليهود لعبوا دوراً كبيراً فى هذه المأساة ، إذ كانوا يملكون ناصية دفاع قوى جداً فى القصر ، بل حتى فى قلب الطاغية ، وهى زوجته ومحظيته (بوبيا Popea) الجميلة ، ولاعب أثير من قوم إبراهيم ، استخدما بالفعل شفاعتهما لمصلحة الشعب الكريه ، وكان لزاماً أن تقدم بدلاً من هذا الشعب « أية ضحايا أخرى » وكان من أيسر اليسير أن يقال - رغم براءة الأتباع الأصلاء لشريعة موسى من وزر الحريق ، حريق رومه - إنه قد ظهرت بينهم طائفة جديدة خبيثة من أبناء الجليل ، فئة قادرة على اقتراف أبشع الجرائم .

ويروى أن مرقس الرسول الإنجيلى سفك دمه سنة ٦٨ بالإسكندرية فى عهد نيرون.

ويقول جيبون (جـ ١ ص ٢٨٩) بعد ثمانين عاماً من موت المسيح ، عوقب تلاميذه الأبرياء بالإعدام على يد (بروقنصل) وديع مولع بالفلسفة ، بناء على قوانين سنها إمبراطور اتسمت إدارته العامة بالحكمة والعدل ، وكم امتلأت صفحات الدفاع التى وجّهت مراراً إلى خلفاء تراجان بالشكاوى المحزنة المثيرة ، من أن المسيحيين الذين استجابوا لحرية الضمير ، وتوسلوا إليها ، حُرموا وحدهم ، دون سائر رعايا

الإمبراطورية ، من المزايا المشتركة لحكومتهم السعيدة الموفقة ، وسجلت بعناية وفاة عدد قليل من الشهداء البارزين .

ويقول جيبون (جـ ١ ص ٣٠٦/٣٠٧) : وظل المسيحيون هدفاً لتعصب الوثنيين . بسبب تخلفهم عن حضور الاحتفالات الوثنية المهيبة ، أو شعورهم بالحزن إذا شهدوها .. ومن هنا كان تلمس أو اختراع الأسباب للإيقاع بهم .. فإذا ألمّت بالإمبراطورية أية كارثة حديثة : طاعون ، مجاعة ، حرب غير موفقة .. أو إذا فاضت مياه نهر التِّيبر على جوانبه ، أو لم يأت فيضان النيل ، أو زلزلت الأرض ، أو اختل النظام اللطيف فى تعاقب الفصول - وَهِمَ الوثنيون المؤمنون بالخرافات بأن كُفْر وجرائم المسيحيين الذين أبقى عليهم إفراط الحكومة فى الرفق واللين ، هى التى استفزّت العدالة الإلهية آخر الأمر .

لكن مراسيم هادريان وأنطونيوس بيوس نصت على أن صوت الجماهير لا يجوز أن يسلّم به ، كدليل قانونى ، لإدانة أو عقاب أولئك التعساء الذين اعتنقوا العقيدة المسيحية .

هذا إلى أن المسيحيين الذين ثبتت جرائمهم ثبوتاً قاطعاً بشهادة الشهود ، أو حتى باعترافهم الاختيارى - ظل فى مكنتهم هم أنفسهم أن يستبدلوا الحياة بالموت ، لأن الجُرم السابق لم يكن يثير سخط الحاكم قدر ما تثيره المقاومة العملية ، فقد أيقن الحاكم أنه إنما قدم لهم عفوا ميسوراً ، إذا ارتضوا أن يضعوا بعض حبات البخور على المذبح الوثنى ، ولهم بعد ذلك أن يغادروا ساحة المحكمة فى أمان واستحسان .

● وفى عهد قسطنطين شهدت المسيحية عصراً ذهبياً ، فقد صارت الدولة دولتهم، وانتشرت الديانة انتشاراً سريعاً ، وصار للكنيسة الكلمة الأولى فى مسيرة الحياة ، سلماً وحرباً ، ولولا تلك الخلافات (العقائدية) التى اتسع مداها حتى أخذت شكل الحرب الكلامية التى كانت تتطور أحياناً ، وتحتاج إلى تدخل السلطة (الزمنية) - لحققت المسيحية نجاحاً فى أكثر من ميدان .. فلما ولى جوليانوس الذى ارتد عن المسيحية سنة ٣٦١ ، والذى قتل فى حربه ضد الفرس ، فى نفس العام ، بيد أحد المسيحيين ، كما قيل - ظل محافظاً على حرية العبادة الدينية .. ثم علم أن المسيحيين

يتفاخرون باسم المسيح ، مخلصهم وفاديهم ، فشجع على استخدام اسم آخر أقل تشريفاً لهم ، وهو (الجليليون) .. ثم وضع مبدأ نقل بمقتضاه إلى أحبار ديانته حق التصرف فى المنح السخية التى كان قسطنطين وأبناؤه قد أغدقوها من الخزانة العامة على الكنيسة المسيحية ، وقضى على ذلك النظام الذى يحدد مكانة رجال الكهنوت ، وسَنّ من القوانين ما حال دون الحصول على الهبات والوصايا .. وأصدر قانوناً يحرم فيه على المسيحيين تعلم فنون النحو والبلاغة ، ليضعف قدرتهم على (الكرازة) وكان تعليم الشباب فى كل مدن العالم الرومانى موكولاً إلى أساتذة النحو والبلاغة الذين ينتخبهم الحكام ، وينفقون عليهم من الأموال العامة .. وأكد فى غرور أنهم إذا رفضوا عبادة آلهة هوميروس وديموستين ، وجب عليهم أن يقتنعوا بشرح إنجيل لوقا وإنجيل متى ، فى كنائس (الجليليين) .

وذكر أنه ليس من حق (الجليلى) أن يستخدم سيف القتال ، أو سيف العدالة (القضاء) .. وفرض على الجليليين أن يقدموا تعويضاً كاملاً عن المعابد التى دمروها فى عهد قسطنطين ، ولم تكن الكنيسة فى ذلك الوقت تنتظر موافقة السلطات العامة على هدم المعابد ، وكانت الأراضى الموقوفة على المعابد قد آلت إلى الملك ، أو إلى رجال الدين ، وقد أقام المسيحيون عليها صروحهم الدينية ، مما استدعى هدم ما بنوا ، وإعادة بناء ما هدموا من معابد الوثنيين .

وحدث شغب فى إداسا (الرها) ، فأرسل جوليانوس أمراً إلى حكام إداسا بمصادرة كل أملاك الكنيسة ، ووزعت الأموال على الجنود ، وضمت الأراضى إلى أملاك الدولة ، وعلق جوليانوس على هذا الإجراء بقوله : (إنى بهذا الإجراء إنما أثبت أنى صديق للجليليين ، ذلك أن شريعتهم الرائعة قد وعدت الفقراء بملكوت السماء ، ولهذا أزالت عنهم عبء الممتلكات الدنيوية ، حتى يسيروا فى طريق الفضيلة والإخلاص بهمة أكبر) .

● واستمرّ الاضطهاد والتعنت ، وكانت ردود أفعال .. يقول جيبون (جـ ٢ ص ٤٣ و ٦١) : هدم الأسقف مرقس فى أرتوذا أحد معابد الوثنيين ، فطولب بدفع ثمن المعبد الذى هدمه ، ولما لم يكن يملك ما يدفعه فقد جلدوه بطريقة وحشية ، ونتفوا لحيته ، ثم

طلوا جسده العارى بعسل النحل ، وعلقوه فى شبكة ، ليكون عرضة للدغ الحشرات ، ولأشعة الشمس السورية ، لكن الأسقف استهان بجلاديه ، ووجه إليهم الإهانات ، وأخيراً عفا عنه جوليانوس ، لأنه كان أظل طفولة الإمبراطور بحمايته .

وفى عهد الإمبراطور جوفيان كان ضابط شجاع يحمل اسم جوفيان ، فلما علم الإمبراطور بأمره أمر بانتزاعه من مائدة عشائه ، وألقى به فى بئر ، ورُجم بالحجارة حتى الموت ، دون محاكمة ، ودون إشارة إلى أنه ارتكب جرماً .

● وفى عهد الإمبراطور ثيودوسيوس الكبير (٣٧٩/٣٩٥) اعترفت الدولة الرومانية سنة ٣٧٩ بالديانة المسيحية ديناً للدولة ، وتم إغلاق جامعة أثينا رمز ومعقل الوثنية .. وكان يمكن للمسيحية أن تحقق مكاسب جديدة ، لكن الخلافات التى مزقتها طوائف متناحرة تجدّدت فى أسقفيات رئيسية ، تبادلت الاتهامات ، وشنت حروباً داخلية ، حتى كانت مرحلة الإصلاح الدينى التى أكلت فيه القطط أولادها .

يروى جروشيوس (١٥٨٢/١٦٤٥) أن عدد البروتستانت الذين أعدموا فى ولاية واحدة - فى ظل حكم واحد - يجاوز كثيراً عدد الشهداء الأولين ، على مدى ثلاثة قرون، وفى نطاق الإمبراطورية الرومانية كلها .. وأسفرت معركة سان بارتولوميه سنة ١٥٧٢ ، التى شنتها الكنيسة الكاثوليكية والحكومة الفرنسية ضد البروتستانت الفرنسيين - عن مقتل ٢٥ ألف فرنسى ، وأدى هذا (الانتصار العظيم) إلى أن أنشأ البابا جريجورى الثالث عشر نوطاً فى ذكرى هذه المذبحة (حرية الفكر جـ ٢ ص ١٣٥) فإذا أضفنا ما أحدث البروتستانت فى كل من ألمانيا وسويسرا وهولندا ، وما أحدث ويحدث الكاثوليك ضد البروتستانت فى كل من إنجلترا وإيرلنده ، وما أحدث الكاثوليك ضد الجزويت (من الكاثوليك) ، وما حدث من قبل بين الأرثوذكس والأريوسيين والنّساطرة والملكيين - لتبين لنا أن ما أحدثه عصر الشهداء كان مجرد (تجربة) على طريق الطغيان (المسيحى) الذى نزع منزع الإبادة الجماعية فى الحروب الصليبية ، وفى أسبانيا ، وفى الحروب الاستعمارية ، وفى الحروب العالمية التى خلفت عشرات الملايين من القتلى والمشبوهين ، وأهدرت عشرات الآلاف من الملايين النقدية ، ممثلة فى أسلحة الدمار ، وتخريب المنشآت ، وإهدار القيم الإنسانية ، تحت شعارات براقة ،

من الحرية ، أو التحرير ، وحماية الأقليات ، وحقوق الإنسان ، ونبذ العنصرية والقضاء على النازية والفاشية والشوفينية والدكتاتورية .

● كان التسامح الدينى قد نصت عليه قوانين البطالسة والقياصرة ، وإن تجاوز (النصوصَ) كثيرٌ من القياصرة المتألهين .. وفى ظل هذا (التسامح) نعمت الجالية اليهودية (٤٠ ألفاً) ، بإقامة طويلة (٧٠٠ سنة) ، منذ تأسيس الإسكندرية ، وفى هذه الأثناء تولى كيرلس بطريركية الإسكندرية ، فى عهد الإمبرطور تيودوسيوس الثانى (٤٠٨/٤٥٠) ، وكان أن هذا البطريرك - دون سند قانونى ، ودون تفويض إمبراطورى - قاد جمهوراً متمرداً ، مثيراً للفتنة فى أحد الأيام ، لمهاجمة المعابد اليهودية ، ونهب ممتلكات اليهود ، وطردهم من المدينة .

شكا أورستيس حاكم مصر، لكن شكاواه لم تجد اهتماماً عند حكومة ثيودوسيوس، فأسَرّها كيرلس فى نفسه ، وهاجم عربة أورستيس بخمسمائة من رهبان صحراء النطرون ، وكانوا قد شغلوا بالسياسة منذ عهد أثناسيوس ، ففر حراس الحاكم ، وكاد يهلك ، لولا أن هب أبناء الإسكندرية لنجدته ، وسقط أحد الرهبان قتيلاً ، فنقله كيرلس ، فى موكب مهيب إلى الكاتدرائية ، وزين قبره بنصب الشهداء ، ثم ارتقى المنبر مُشيداً بتضحية (الشهيد) ، وشجع الناس على التضحية بعذراء اعتنقت ديانة اليونان، وحظيت بصداقة أوريستيس .

كانت هيباشيا Hypatia ابنة العالم الرياضى ثيون Theon ، وقد حذقت دراسات أبيها ، وشرحت بتعليقاتها البارعة هندسة أبوللونيوس وديوفانتوس .. كانت تدرس فى كل من أثينا والإسكندرية فلسفة أفلاطون وأرسطو ، ورغم أن هذه العذراء المتواضعة كانت بارعة الجمال ، ناضجة الفكر ، فإنها رفضت عشاقها ، وخلصت لأبحاثها ، وكان أن اتهمها كيرلس بأنها العقبة الوحيدة دون التوفيق بينه وبين الحاكم .

وفى أحد أيام الصوم الكبير المقدس انتزعت هيباشيا من عربتها ، وجُرِّدت من ثيابها ، وجذبت إلى الكنيسة ، حيث ذبحت ذبح الشاة ، بيد قارئ الصلوات ، بطرس ، وبمساعدة فريق من المتعصبين ، ثم انتزع لحمها من عظامها بقشور المحار ، وألقيت أطرافها (المرتعدة) فى لهيب النار ، وأوقف البطريرك سير التحقيق ، حتى لا تقوم

للعدل قائمة ، وحتى يحق لمجلس أفسس أن يصفه بأنه (وحش ولد وتعلم لكى يدمر الكنيسة) .

وكان أن عينت الحكومة والكنيسة البيزنطية بطريركاً ملكانياً على الإسكندرية ، لكن الأرثوذكسية المصرية عينت ثيموثيوس بطريركاً ، فطارده الحاكم البيزنطى ، وعزله قهراً .

وفى سنة ٤٥١ قطعت الكنيسة القبطية علاقتها بالكنيسة البيزنطية ، كخطوة للاستقلال السياسى ، لأنها فى الحقيقة أخذت شكلاً (أرثوذكسياً) منذ عهد أثناسيوس ، وأخذت الثقافة (الوطنية) تأخذ طريقها إلى الآداب ، وصارت اللغة القبطية لغة الكنيسة والشعب ، حتى الفتح الإسلامى ، وإن بقيت اللغة الإغريقية لغة الدواوين الحكومية .. وسبق أن كتب (القديس) أثناسيوس بعض مؤلفاته باللغة القبطية ولم يعرف القديس أنطونيوس غير اللغة القبطية ، وكان باخوميوس يعظ بها .. وتمثل الفن القبطى والزخارف والرسم والرموز المسيحية فى الأقمشة والأخشاب .

وصار الأقباط يصفون الخلقدونية (الملكانية) بالهرطقة .

ومن يقرأ ما كتبه يوحنا (فم الذهب) من سباب البيزنطيين يعرف إلى أى مدى وصل الخلاف بين الكنيسة المصرية والكنيسة البيزنطية - المسيحية والحضارة الغربية ص ٤٩/٥١ .

● رأى هرقل (٦١٠/٤١) - وقد أنقذ الدولة البيزنطية من الفرس - أن ينقذها من الخلاف الدينى ، فأصدر أمراً ، أو صورة توفيق ومصالحة ، تقضى بأن يمتنع الناس عن الكلام عن طبيعة المسيح وصِفَته ، وأن يعترفوا جميعاً بأن له إرادة واحدة .. وأسند هرقل الرئاسة الدينية والسياسية فى مصر لشخص واحد هو قيرس (المقوقس)، وقبل أن يصل قيرس إلى الإسكندرية هرب البطريرك القبطى بنيامين ، توقعاً لما سيحل به وبطائفته من الشدائد ، من جراء فرض المذهب الجديد (الملكانى) .. وحدث أن فاق اضطهاد قيرس للمصريين كل اضطهاد .

● ● ●

■ **هامش ...**

فى عهد الإمبراطور قسطنطين سعت أمه (هيلانه) أن يكون لها دور ، فزارت القدس ، وجمعت أشياء زعمت أنها من الآثار المقدسة للسيد المسيح ، وللسيدة مريم ، حتى (الصليب) المزعوم بحثت عنه حتى وجدته ، ووجدت صليبى اللّصّين ، والحربة ، والإسفنجة ، وتاج الشوك ، وجميع ما صحب آلام الصلب من آثار - الحضارة البيزنطية - ص ٢١ .

ويضيف جيبون (جـ ٢ ص ٣٦) أن الصليب (الأصيل) الذى اكتشفته هيلانه صار فى حراسة أسقف أورشليم ، يعرضه أمام الناس ، خلال يوم عيد القيامة .. وكان الأسقف وحده هو الذى يشبع ما فى نفوس الحجاج من ولاء وشوق ، بأن يمنحهم قطعاً صغيرة من الصليب الخشبى ، يوشّونها بالذهب أو الجواهر ، ويحملونها معهم إلى بلادهم ظافرين ، وكان لابد أن تنتهى هذه التجارة الرائجة سريعاً بنفاد المادة التى تباع وتشترى ، ومن ثم وجب أن يذاع أن خشب الصليب له قدرة خارقة على النمو ، وأن مادته رغم أنها فى تناقص مستمر تظل فى تكامل مستمر .

أما هيلانه فقد صنعت (متحفاً) واستحقت بسببه لقب (قديسة) ، وتشكلت (مدرسة) لجمع عظام القديسين ، وصارت تجارة رائجة بهذه العظام فى الكنائس ، يتبرك بها شعب الكنيسة ، ويستشفى مرضاه ، ويحصلون على الغفران .

ونتج عن هذه التجارة ما يسمى (عبادة الصُّور) أو عدم عبادتها .. وكانت الخلافات الحادة ، حتى انتصر (عباد الصور) ، وصار الفاتيكان ، أو كنيسة القديس بطرس ، أكبر متحف ، على مستوى العالم المسيحى .

وبما أن القديسة هيلانه تزعمت أو أسست مدرسة الخرافة أو الوثنية الدينية ، فإننا نجد فى عهد ثيودوسيوس الأصغر (٤٠٨/٤٥٠) كاهناً فى أورشليم ، اسمه لوكيان Lucian ، يشغل منصب شيخ الكنيسة ، فى قرية (كفار حمالا) ، على بعد نحو عشرين ميلاً من أورشليم ، وقص هذا (الشيخ) حلماً عجيباً ، عاوده يوم السبت ، مدة ثلاثة أسابيع متوالية ، لكى يزول أى شك .

يقول القسيس : إنه رأى شخصاً وقوراً يقف أمامه فى سكون الليل ، مرتدياً ثوباً أبيض ، تتدلّى لحيته الطويلة ، ممسكاً بعصا من ذهب ، وقال إن اسمى جماليل Gamaliel ، ثم أوضح للقسيس أن جثمانه وجثمان ابنه (أبيباس) وجثمان صديقه نيكوديموس وجثمان أسطفان الشهير ، أول شهداء العقيدة المسيحية - كانت مدفونة سراً فى الحقل المجاور ، وأضاف أن الوقت قد حان للإفراج عنه وعن رفاقه من سجنهم المظلم ، وأن ظهورهم سوف يخدم العالم المكروب ، وأنهم جميعاً قد وقع اختيارهم على لوكيان ليتولى إخبار أسقف أورشليم بمكانهم وبرغباتهم .

وتتابعت على القديس رؤى جديدة أزالت ما بقى من شكوك وصعاب تحول دون تحقيق هذا الكشف الخطير .

وتولى الأسقف بنفسه عملية الحفر ، فى حضور جمهور غفير ، وتم استنقاذ أو (الإفراج) عن توابيت جماليل وابنه وصديقه فى نظام مرتب ، لكن عندما أخرجوا تابوت الشهيد أسطفان زلزلت الأرض ، وفاح عبير زكى كعبير الجنة ، (الذى لم يخبرنا خبره من شمه) ، وشفى على الفور مختلف الأمراض التى كان يعانى منها ثلاثة وسبعون من الحاضرين ، وترك رفاق أسطفان فى مثواهم الهادئ ، أما رفات الشهيد الأول فقد نقلت - فى موكب مهيب - إلى كنيسة أقيمت تكريماً له على جبل صهيون ، وأصبح من المعترف به فى كل ولاية من ولايات العالم الرومانى أن جُزئيات هذا الرفات ، أو أية نقطة من دمه (كانت تذاب قارورة من دم القديس أسطفان فى نابلى كل سنة) ، وأى قطعة من عظامه صارت لها صفة سماوية معجزة - جيبون جـ ٢ ص ١١٠ .

وهكذا تم الكشف عن رفات القديس ليتاجروا بأجزائها ، ولا أدرى لماذا اختصت (نابلى) بالحصول على دم القديس ، مع أن الرفات فى أورشليم ؟! ولماذا أهملت رفات كل من الثلاثة الذين وجدوا مع القديس ، دون الانتفاع بها ، مع أن (جماليل) هو صاحب الفضل فى هذا الكشف العظيم ؟! ولماذا لجأ جماليل إلى لوكيان ، ولم يعمد إلى الأسقف مباشرة ؟!

يعلق جيبون (جـ ٢ ص ١١٣) على هذا الخبر بقوله : (ينبغى علينا أن نعترف صراحة أن قساوسة الكنيسة الكاثوليكية قلدوا الأنموذج المدنس الذى كانوا يتلهفون على

تدميره ، وبلغ الحال بأعظم الأساقفة احتراماً إلى أنهم أقنعوا أنفسهم بأن الدهماء الجهلاء سوف ينبذون فى سرور خرافات الوثنية ، إذا ما وجدوا فى قلب المسيحية ما يشبه تلك الخرافات أو يعوض عنها .

وهذا بعينه ما فعله (بولس) ، حين خرج بالمسيحية إلى الوثنية ، فصنع من عيسى إلهاً ، ومن أمه إلهة ، ومن الروح القدس إلهاً ، ثم جاء مَنْ جمع بين الإله الخالق والإله الابن والروح القدس فى (إله واحد ، آمين) !!

ومما ينبغى الاعتراف به أن جميع الأديان ، سماوية وغير سماوية ، يتغذى أبناؤها على الخرافة ، ولعل هذا يسبب جهل الأبناء بديانتهم ، أو بسبب عدم قدرتهم على استيعاب ما تتضمن من غيبيات ، أو بسبب ما تشير إليه من رموز لا يسهل الاتفاق على مدلولها ، أو بسبب من الأهواء والعلل فى تفسير ما بها من (مشتبهات) ، بل هو الحرص على إكساب الموروث الخرافى قدرة على البقاء .

والأمر لا يقف عند الأديان ، فكثير من الساسة (القادة) يستعينون بالخرافة للتضليل ، وإحكام السيطرة على الجماهير ، وإذا كانت الخرافة كذباً ، أو خيالاً بلا قدمين (مثل عروس البحر) ، فإن أنجح القادة أقدرهم على الكذب ، وأقدرهم على البهتان .. ولعل فرض السيطرة على وسائل الإعلام ، والتغنى بأمجاد (الهزائم) ، وصناعة أرقام إنتاجية لا وجود لها ، وتضخيم أحلام المستقبل التى هى ثمرة كوابيس لايجرءون على الاعتراف بها ، بالرغم من معاناتها .. كل هذا يدل على ما فى طبيعة البشر من (استعداد) للعرى فى ليالى الشتاء ، مع أن العرى يورث أمراضاً خطيرة .

ذكر رسل فى (الدين والعلم ص ٧٨) أن الناس ظلوا لقرون كثيرة يعتقدون فى قدرة عظام القديسة (روزالينا) المحفوظة فى بالرمو بإيطاليا على شفاء الأمراض ، ولكن عندما قام عالم تشريح دنيوى بفحص هذه العظام اكتشف أنها بقايا عظام عنز .. ومع ذلك استمر الإيمان بقدرتها على الشفاء .

وهذا يفسر ما حدث سنة ١٦٨٠ إذ اجتاح الطاعون رومه ، ففُسِّر بغضب القديس سباستيان الذى تجاهله الناس فأهملوه ، ولم ينقشع الطاعون إلا بعد أن أقيم نصب تذكارى للقديس .

وما ذنب اليهود ، حتى يعالج الطاعون فى عام ١٣٤٨ بقتل اثنى عشر ألف يهودى فى إقليم بافاريا، وثلاثة آلاف فى إيرفورت، وحرق ألفين آخرين فى استراسبورج..إلخ؟! أليس هو علاج الغضب بكسر قارورة ، أو وعاء فخارى ؟! لكن الفرق كبير بين علاج الطاعون بمذابح اليهود ، وهذا الشيء الذى يفثأ حدة الغضب .

• • •

الرهبنة

لا يسهل القول بأن الزهد فى الحياة رهن دين بعينه ، فلم تكن الأديان لتبغّض متاع الحياة إلى الناس ، والله - سبحانه - خالق الناس وخالق المتاع ، وقد أحل الطيبات من الرزق ، ﴿ يا أيُّها الَّذين آمنوا لا تُحرِّموا طيِّبات ما أحلَّ اللَّهُ لكُمْ ولا تعْتدُوا إنَّ اللَّهَ لا يُحبُّ الْمُعْتدين ﴾ (سورة المائدة ، آية ٨٧) . لكن الأديان نفّرت وأنذرت الذين يُغرقون فى طلب المتاع ، متخطين كل القيود ، متجاهلين حقوق الآخرين ، ومتجاهلين ما يُحدث الترف من فساد مادى ومعنوى ، على مستوى الفرد والجماعة ، حتى صار مؤذناً بالخراب ، وصدق الله سبحانه : ﴿ وإذا أرَدْنا أن نُهْلك قرْيةً أمرْنا مُتْرفيها ففسقُوا فيها فحقَّ عليْها الْقوْلُ فدمَّرْناها تدْميراً ﴾ . (سورة الإسراء ، آية ١٦) .

لقد أحلّت الأديان (الطيبات) ، ودعت إلى (أخذ الزينة) فى العبادة ، لكنها نهت عما يثير غير القادرين ، ويبعث فى نفوسهم الحقد والنقمة والإقبال على الجريمة .. ومن ثم كانت الدعوة إلى الزكاة ، وإلى الصدقة ، وإلى رعاية الجار وذوى الأرحام ، والسائلين والمساكين ، وألا نمنع الماعون ، وأن نطعم العبيد أو الخدم مما نأكل ، وأن نلبسهم مما نلبس ، ونناديهم بأحب الأسماء ، لا نقهر يتيماً ، ولا ننهر سائلاً .

يقول الله سبحانه فى أدب التوريث : ﴿ وإذا حضر الْقسْمة أُولُوا الْقُرْبىٰ والْيتامىٰ والْمساكينُ فارْزُقُوهُم مّنْهُ وقُولُوا لهُمْ قوْلاً مّعْرُوفًا ⑧ ولْيخْش الّذين لوْ تركُوا منْ خلْفهمْ ذُرّيّةً ضعافًا خافُوا عليْهمْ فلْيتّقُوا اللّه ولْيقُولُوا قوْلاً سديداً ⑨ إنّ الّذين يأْكُلُون أمْوال الْيتامىٰ ظُلْمًا إنّما يأْكُلُون فى بُطُونهمْ نارًا وسيصْلوْن سعيراً ﴾ . (سورة النساء ، آية ٨/١٠) .

وجعل الله فى (بيت المال) حقاً للفقراء والمساكين ، وتحرير الأسرى ، وتحرير المدينين ، وأبناء السبيل ، و (اليد العليا خير من اليد السفلى) ، أى لأن تُعطى خيراً

من أن تأخـذ ، وتصـدق (ولو بشق تمرة) ، (فـالمؤمن القـوى خـيـر وأحـب إلى الله من المؤمن الضعيف) ، و (الغنى الشاكر خير من الفقير الصابر) .

الأديان حريصة على سلامة المجتمع وأمنه ، وعلى شيوع المحبة والتعاون والتضامن والتكافل ، من أجل أن يصبح الجميع (كالبنيان المرصوص ، يشد بعضه بعضا) .. فكل ما هو معين على اتساع دائرة الخير أعان الله عليه ، وأثاب أضعافاً مضاعفة ، وكل ما يقف عثرة فى هذا السبيل نهى الله عنه ، وهدد بعقابى الدنيا والآخرة .

وما دام الله (يحب أن يرى أثر نعمته على عبده) ، ويحب أن (تُؤتَى رخصه) ، «وأما بنعمة ربك فحدث» - فإن الزهد يعدّ أمراً (غير دينى) . وإن لم تحرمه الأديان ، لأن من الحكمة أن (تخشوشن) ، فإن (النعمة لا تدوم) .. ولعل فريضة الصوم أحد الدروس الإلهية على تحمل المكابد والمشاقّ ، فالدنيا دول ، وما تملكه اليوم قد تحرمه غداً ، والله يبتلى عباده بشيء من الخوف والجوع ، ونقص من الأموال والأنفس والثمرات » .

وقد لجأ بعض (العباد) إلى إعداد النفس لهذا (البلاء) ، فزهد فيما يملك ، ومن الناس من اتخذ الزهد وسيلة لتربية النفس ، وتقوية الإرادة ، ومنهم من ربط بين الزهد وقوة الروح والسيطرة على المادة ، وجعل من هذا (المنهج) سبيلاً إلى (سعادة) أرقى وأنبل من شهوات الجسد .

ثبت فى الصحيحين أن نفراً من أصحاب النبى محمد - ﷺ - قال أحدهم : أما أنا فأصوم لا أفطر ، وقال الآخر : أما أنا فأقوم لا أنام ، وقال الآخر : أما أنا فلا أتزوج النساء ، وقال الآخر : أما أنا فلا آكل اللحم .. فقام النبى - ﷺ - خطيباً ، وقال: (ما بال رجال يقول أحدهم كذا وكذا .. لكنى أصوم وأفطر ، وأقوم وأنام ، وأتزوج النساء ، وآكل اللحم ، فمن رغب عن سنتى فليس منى) .

إن الرهبانية ليست من الدين ، والدين ينكرها ولا يحرمها ، قال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلاَّ ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ . (سورة الحديد ، آية ٢٧) .

الرهبانية ، كما نصّت الآية الكريمة ، قد تأخذ سبيل الاعتدال ، تقرباً إلى الله ، أو كبحاً لجماح الغريزة ، أو بعداً عن إغراءات المجتمع ، أو نجاة من ضغوط الحكام الفجرة .. لكن كثيراً من المبتدعة (فاسقون) ، وما أكثر الذين يظاهرون بالبدعة ، ويتسترون خلفها ، ويشتطون بها .

قد نجد فى كلام السيد المسيح ما يشجع على التخلى عن متاع الدنيا ، طلباً لمتاع الآخرة ، لكن السيد المسيح كان يخاطب (اليهود) المتاجرين بكل شيء ، فى سبيل المال ، الذين « اتخذوا آيات الله هزوا ، وغرّتهم الحياة الدنيا » ، فقال للعشاريين والمرابين والصيارفة والكهنة التجار الذين يملأون ساحة (الهيكل) ، ويصدون عن سبيل الله :

(لا تهتموا لحياتكم بما تأكلون ، وبما تشربون ، ولا لأجسامكم بما تلبسون ، أليس الحياة أفضل من الطعام ، والجسد أفضل من اللباس ؟ فلا تهتموا قائلين : ماذا نأكل ، أو ماذا نشرب ، أو ماذا نلبس .. لأن أباكم السماوى يعلم أنكم تحتاجون إلى هذه كلها .. فلا تهتموا للغد ، لأن الغد يهتم بما لنفسه) - متى صح ٦ .

(تأملوا الغربان ، إنها لا تزرع ولا تحصد ، وليس لها مخدع ولا مخزن ، والله يقيتها ، كم أنتم بالحرى أفضل من الطيور) - لوقا صح ١٢ .

(إن أردت أن تكون كاملاً فاذهب ، وبع أملاكك ، وأعط الفقراء ، فيكون لك كثرة فى السماء ، وتعال اتبعنى) - متى صح ١٩ .

(وتعال اتبعنى) ، هذا هو سر الدعوة إلى عدم التعبد للمال ، أو لشيطانه ، لقد كان إقبال الكهنة على جمع المال ، وتزلف الكهنة إلى الحكام (المحتلين) من أجله ، مَثَل السَّوء (للشعب المختار) ، الذى ألجمته عشرات القوانين التى صاغها كهنة (السبى البابلى) ، للاستبداد بالشعب ، والسيطرة على مقدساته .

وربما كانت (صياغة) ما نسب إلى السيد المسيح ، والأناجيل قد كتبت بعد موته بعشرات السنين - قد تأثرت بما كان يشاع عن (الألفية) الأخيرة السابقة ليوم القيامة ، مما يفيد أن القيامة قائمة فى جيلهم ، وأن زمانهم آخر الزمان .

وقد كان ثمة طائفة من اليهود هاجروا إلى الله ، أو هجروا زينة الحياة الدنيا ، استعداداً لقيام القيامة ، أو يقيناً بأن من العبث الإقبال على الدنيا التى لم تعد لها باقيـة .

ويلاحظ أن مثل هذا حدث فى شرق آسيا منذ قرون ، وفى أيامنا هذه ، بسبب أوهام (المذنّب) الذى سيصطدم بالأرض ، ويقيم القيامة .. أو بسبب كسوف الشمس فى ١٩٩٩/٨/١١ !!

ويمكن أن يكون الاضطهاد الذى نزل بالمسيحيين الأوائل كان من أسباب هذه (الصياغة) الإنجيلية ، كما كانت الرهبنة أثراً من آثار عصر الشهداء .

● يقول ول ديورانت (قصة الحضارة جـ ١٢ ص ١١٩) : ربما كان مبشّرو (أشوكا) - حوالى سنة ٢٥٠ ق.م - قد جاءوا إلى المسيحية بنظرية البوذية وقوانينها الأخلاقية ، ولربما كان النساك الذين وُجدوا فى العالم قبل المسيحية ، أمثال سرابيس Scrapis فى مصر ، أو جماعات الأسينيين فى بلاد اليهود الذين كان لهم نشاط محسوس فى موطن السيد المسيح قبيل ميلاده - كما قال العقاد (عبقرية المسيح ص ٣٥) - وقد وهب أبناء هذه الطائفة أنفسهم ، أو وهبهم أهلوهم لحياة القداسة ، وخدمة الله ، والتبشير باليوم الموعود ، يوم الخلاص من الظلم والجور ، والتطهر من الذنوب .

وقد تكاثر الأسينيون قبل ميلاد السيد المسيح ، لأنه وافق نهاية الألف الرابعة من بدء الخليقة ، على حساب التقويم العبرى ، وهو الموعد الذى كان منتظراً لبعثة السيد المسيح ، لأنهم كانوا ينتظرونه على رأس كل ألف سنة ، ومنهم من كان يقول : إن اليوم الإلهى كألف سنة ، كما جاء فى المزامير ، وإن عمر الدنيا أسبوع إلهى ، تنقضى ستة أيام منه فى العناء والشقاء ، ويأتى اليوم السابع بعد ذلك - كما يأتى يوم السبت - للراحة والسكينة ، فيدوم ألف سنة كاملة ، من فترة الخير والسلام ، قبل فناء العالم .

ولا يزال الغربيون يعرفون هذه الفترة باسم (الألفية) ، ويطلقون هذا الاسم على كل عصر موعود بالسعادة .

● وقد أشار السيد المسيح إلى الرّهبنة ، عندما جاءه شاب تقى قائلاً : أيها المعلم الصالح ، ماذا أعمل لأرث الحياة الأبدية ؟ فقال له يسوع : (لقد عرفت الوصايا : لاتقتل، لاتزن ، لا تسرق، لا تشهد بالزور ، أكرم أباك وأمك). فقال الشاب: كل هذا قد حفظته منذ صباى، فلما سمع يسوع ذلك قال له : (واحدة تعوزك بعد ، بع كل شيء لك، ووزعه على المساكين ، فيكون لك كنز فى السماء ، وتعال اتبعنى)[1] - لوقا صح ١٨ .

---

(١) اختلف التعبير عن هذا (الخبر) من إنجيل لآخر ، ولهذا تكرر ذكره هنا .

وهناك شرط آخر للدخول فى زمرة الذين يريدون الكمال ، هو التبتل : (إن من الخصّيان من ولدوا كذلك من بطون أمهاتهم ، ومنهم من خصاهم الناس ، ومنهم من خصوا أنفسهم من أجل ملكوت السموات ، فمن استطاع أن يحتمل فليحتمل) - متى صح ١٩ .

وأخيراً يطلب السيد المسيح لمن يريدون الاقتداء به تماماً أن يزهدوا فى الدنيا ، (فمن أراد أن يتبعنى فليكفر بنفسه ، ويحمل صليبه ويتبعنى .. ماذا ينفع الإنسان لو ربح العالم كله وخسر نفسه) ، وبعد موت المسيح نرى كثيراً من مسيحيي كنيسة أورشليم يتنازلون عن ممتلكاتهم الشخصية ، ويلتفّون حول الرسل ، ليعيشوا حياة فقر - أعمال الرسل صح ٤ و ٥ .

وقد نقل عن أنطونيوس وباخوميوس ومن تبعوهما المُثُل العليا للحياة الدينية الصارمة ، وأساليب هذه الحياة ، ، وكان كثيرون منهم يرون فى الرهبنة ملاذاً من الفوضى والخراب اللذين أعقبا غارات الرومان .

يقول جيبون (جـ ٢ ص ٢١٢/٢١٣) : إن المتقشفين الذين أطاعوا تعاليم الإنجيل الصارمة ، وأساءوا تطبيقها ، امتلأت نفوسهم بالحماس العنيف الذى يمثل الإنسان فى صورة المجرم ، ويمثل الله فى صورة الطاغية ، فنبذوا فى جدية شواغل العصر وملذاته، وترفعوا عن شرب الخمر وأكل اللحم والزواج ، وعذبوا أجسادهم ، وكبحوا مشاعر الحب فى نفوسهم ، وتقبلوا حياة الفاقة ثمناً للسعادة الأبدية .

وفى الحق أن الرهبان أصبحوا ينافسون الرواقيين ، فى احتقار الثراء والألم والموت ، وأعادوا فى نظامهم المتسم بالذلة صمت الفيثاغوريين وخضوعهم ، واحتقروا فى ثبات الكلبيين وحزمهم كل صور المجتمع الدينى ، وقواعده السلوكية .

ويلخص لوريمر (تاريخ الكنيسة جـ ٢ ص ١٣٤) أسباب الرهبنة فى :

١ - الضرائب الباهظة التى فرضتها الإمبراطورية ، لعلاج الكساد الاقتصادى ، حتى ترك الناس ممتلكاتهم وأعمالهم ، وفروا إلى الصحراء .

٢ - نبتت الرهبنة من رغبة المسيحى فى أن يكون شهيداً ، بعد أن انقطع الاضطهاد .

٣ - الإحساس القوى - عند بعض الناس - بأن الكنيسة فقدت القداسة والتكريس ، وفهموا أن حياتهم الروحية لا يمكنها أن تصحّ إلا بعيداً عن الأوساط الكنسية .

ويذكر الدكتور رأفت عبد الحميد فى كتابه القيّم (الدولة والكنيسة جـ ٢ ص ١٣) أن الأفلاطونية الحديثة ، والفيثاغورية الجديدة ، كانتا تعتبران المادة شراً ، والجسد سجناً ، والخلاص لا يتأتى إلا عن طريق إذلال الجسد ، والتأمل فى طهارة الروح الإلهية ، وممارسة التصوف والزهد .

وقد أغرق بعض الرهبان فى إذلال الجسد ، والحرمان - كما جاء فى (تاريخ الكنيسة جـ ٢ ص ١٤٠) - فكونوا علاقات مع الملائكة والجن والشياطين .. وقد (وصلتنا قصص كثيرة عن شفاء أمراض ، وإقامة موتى ، والسير على الماء ، والارتفاع فى الهواء ، وغير ذلك) ، وهذا بعينه ما تردده كتب التصوف الإسلامى ، مما يفيد أن هذه (الإفرازات) الروحية ، أو المرضية ، لا علاقة لها بالدين ، ولا بدرجة التقوى والورع .. وقد تدخل فيما عرف بعد ذلك بالباراسيكولوجى ، عن طريق سيطرة الروح على المادة ، كم قد تدخل فى دائرة (السمادير) ، والهذيان ، والتهيؤات المرضية .

جاء فى (قصة الحضارة جـ ٢١ ص ٣) : كان كثير من المتصوفة يرون أنهم رأوا فى أحلامهم صوراً للنار ، وقد وصفوها وصفاً جغرافياً ، وصوروا ما فيها من عذاب .. ونقل إلينا الراهب تنديل Tundale- من رهبان القرن الثانى عشر - تفاصيل لها دقيقة ، فقال : إن فى وسط الجحيم يرى الشيطان مشدوداً إلى مشواة ملتهبة من الحديد . بسلاسل حمراء من شدة الحرارة ، لا ينقطع له صراخ من فرط الألم ، ويداه طليقتان ، يمدهما ليقبض بهما على العصاة المذنبين ، يحطمهم بأسنانه كما يحطم العنب ، وأنفاسه النارية تجذبهم إلى حلقه الملتهب ، ويقذف أعوانه من الشياطين أجسام المذنبين بخطاطيف من الحديد فى النار مرة ، وفى الماء الزمهرير أخرى ، أو يعلقونهم من ألسنتهم ، أو ينشرون أجسامهم بالمناشير ، أو يطرقونها بالمقاطع على سندان ، أو يقلونها فى النار ، أو يعصرونها حتى تصفى من قطعة من النسيج .. وكان الكبريت يمزج بالنار حتى تزيد رائحته الكريهة من عذاب الآثمين .. وليس للنار ضوء ، ولهذا فإن الظلمة المروعة تغشى هذه الآلام المختلفة التى لا حصر لها .

وهذا كلام قد يكون مرده الخيال (الفنى) الذى جادت به عبقرية كل من أبى العلاء ودانتى ، وقد يكون مرده الاستهواء الجماهيرى الذى تنفثه الكتب (الصفراء) على ألسنة خطباء المساجد .

ومما يساعد على رواج هذا التهويل والتهويم اقتحام حاجز (الخوف) الذى تختبئ خلفه النفوس الضعيفة .

روى ول ديورانت - نفس المصدر - أن القديس مثوديوس استطاع أن يقنع بوريس ملك بلغاريا أن يعتنق الدين المسيحى ، بأن رسم له صورة الجحيم على جدار القصر الملكى ، ولا ريب فى أن الملك كان من الهشاشة بحيث صدق ، ولم يجادل ، وبحيث إن آخرين ممن رأوا الصورة ازدادوا كفراً ، وسخروا من الملك ، ومن الصورة ومن القديس .

● يقول جيبون (جـ ٢ ص ٢١٣) : كانت مصر ، الأم الولود للخرافة[١] ، هى التى ضربت للعالم أول مثل لحياة الرهبنة ، وإنا لنسمع عن رجل اسمه أنطونيوس (٣٥٦/٢٥١) ، وهو شاب أمى من أنحاء طيبة الدنيا ، وزع أملاكه الموروثة ، وهجر أسرته ووطن مولده ، ونفذ كفّارة الرهبنة فى تعصب أصيل جريء ، ذلك أنه - بعد أن قضى فترة طويلة شاقة فى إعداد نفسه للرهبنة بين القبور ، وفى برج خرب مهجور - تغلغل فى جرأة داخل الصحراء ، فى رحلة ثلاثة أيام إلى الشرق من نهر النيل ، حتى اكتشف بقعة منعزلة ، يتيسّر فيها الظل والماء ، واستقر أخيراً فوق جبل قلزم ، إلى القرب من البحر الأحمر ، فى منطقة تسمى بسبير ، حيث لا يزال هناك دير قديم يحمل اسم القديس وذكراه .. ولحق به إلى هناك كثير من الرهبان ، فى تجرد عجيب .. وقد بقى فى هذه المنطقة نحو عشرين عاماً ، وعندما كان يضطر إلى الظهور أمام الناس فى الإسكندرية - تأييداً لصاحبه أثناسيوس - كان يدعم شهرته فى حصافة ووقار .. ويقال إن العلاقة بين الراهب والمطران ترجع إلى أن أنطونيوس أخفى أثناسيوس ، حين جَدّ الإمبراطور فى طلبه ، وقد رافق بعض تلاميذ أنطونيوس المطران

---

(١) سبقت الإشارة إلى أن الخرافة سمة إنسانية عامة ، لا تخص شعباً بذاته ، وما أكثر الخرافات التى ما تزال تعشعش فى أكناف أوربا وأمريكا ، لا على مستوى الشعوب فحسب ، بل على مستوى الرؤساء والقادة .. ولعل مرجع هذا (الوهم) هو السبق الحضارى لمصر ، بما فى ذلك التدوين - وانظر كتابى (مسيحية بلا مسيح) .

إلى رومه ، مؤيدينه فى مجمع نيقيه ، فأثار مظهرهم العجيب فضول الناس ودهشتهم ، وما لبثوا أن استحسنوه وقلدوه ، وصارت أديرة ورهبان يحذون حذوهم .

ولا ريب فى أن هذا الموقف (السياسى) شجع كثيرين على الالتحاق بالرهبنة ، فصارت الصحراء تتقبل أفواج المريدين والحجاج .. وكان أنطونيوس يتنقل بين تلاميذه من مكان إلى آخر ، ويشترك فى تنظيم حياتهم المعيشية والسلوكية .. وكلمة كينوبيون Cenobiun تعنى المعيشة المشتركة عند القديس أنطونيوس ، إذ كان من مبادئه أن طَالِب الرهبنة ينبغى أن يعيش (فى معيشة مشتركة) ، حتى إذا كمل فى العبادة خرج إلى الوحدة الكاملة .

ويقال إن هذا الفلاح (الأمى) اعتذر عن قبول دعوة موقرة من الإمبراطور قسطنطين ، وشهد هذا الشيخ الذى تجاوز المائة سلالة كثيرة العدد من تلاميذه الذين ساروا سيرته .. وتضاعف عدد الصوامع الزاخرة بالرهبان فى سرعة كبيرة ، فوق رمال الصحراء ، شرقاً وغرباً ، وفى مدن وادى النيل .. وإلى الجنوب من الإسكندرية استوطن خمسة آلاف من النساك جبل النطرون والصحْراء المجاورة ، وما زال فى مقدور الرحالة أو السائح أن يطالع خَرَائب خمسين ديراً أقامها تلاميذ أنطونيوس فى تلك التربة الجرداء .

وقد قضى أنطونيوس أجله فى الثانى والعشرين من شهر طوبة سنة ٣٥٦ أو سنة ٣٦٥ ، ودفن فى مكان مجهول من كنيسة ديره ، وكان أوصى تلاميذه بذلك ، ولم يترك خلفه أكثر من عكاز ، كان من نصيب القديس مكاريوس المصرى ، ورداء بال ، وجلدين من فراء الغنم ، أوصى بواحد مع الرداء للبابا أثناسيوس ، والآخر للأنبا سرابيون أسقف (تمىّ) .

● ويقال إن راهباً آخر من طيبة ، اسمه بولس (بولا) سبق أنطونيوس إلى الصحراء ، فى سفح جبل العربة ، على البحر الأحمر ، زمن اضطهاد دكيوس (٢٤٩/٢٦٠) ، وفاليريان (٢٥٣/٢٦٠) ، وقد ارتحل إليه أنطونيوس دون علم بأمره .

جاء فى (كنوز الفراعنة ص ٢٤٣/٢٤٤) أن القديس بولس هو أول راهب مصرى اعتزل فى الصحراء أثناء فترة الاضطهاد ، فى عصر دقلديانوس ، سنة ٢٥١ .. ولعل الفرار من الاضطهاد كان السبب الأساسى فى بدء الحركة الرهبانية ، ففى القرن

الثالث للميلاد أصاب مصر - كما أصاب غيرها - تدهور اقتصادى ، بسبب الضرائب الباهظة التى فرضها الرومان ، وفرار كثير من الزراعيين أرض الالتزام ، وزاد من تفاقم الوضع دخول الجيش الذى أرسلته زينوبيا - وقوامه ٧٠ ألفاً سنة ٢٦٨ - فى محاولة لغزو مصر ، وفى نفس الوقت تعرضت الجبهة الجنوبية - التى ظلت هادئة منذ أيام الإمبراطور أغسطس - إلى التهديد من قبل البلميين ، من شمال النوبة .. ويلاحظ أن الكلمة التى تدل على الرهبنة ، وهى الزهد ، قد استخدمت فى برديات قديمة ، قبل العصر المسيحى ، لوصف الشخص الذى يهجر عمله .

ويقال إن أول من حول المصريين إلى المسيحية هو البطريرك ديونسيوس (٢٦٤/٢٤٧) .

الخبر الأخير قد يشكك فى كل ما أورده (كنوز الفراعنة) ،، لأن ديونسيوس فى بعض المصادر عاصر خمسة من الأباطرة ، وقد اشتهر الخمسة بالاضطهاد ، فمن كانوا يضطهدون والمسيحية ناشئة ؟ وكيف صار بطريركاً دون تنظيم كنسى ، وكيف يتحقق التنظيم الكنسى دون (شعب الكنيسة) ؟!

على أى حال فالحديث عن (الأولية) - على أى مستوى - مقامرة بالباطل ، وبخاصة بالنسبة لألوان النشاط الإنسانى .

● ويقول جيبون (جـ ٢ ص ٢١٤) : فى طيبة العليا استقر باخوميوس (٢٩٢/٣٤٦) مع ألف وأربعمائة من (الإخوة) ، فى جزيرة طابينا Tabenne المهجورة ، وأسس تسعة أديرة للرجال ، وديراً للنساء .

وفى عيد الفصح كان يجتمع أحياناً نحو خمسين ألفاً من رجال الدين الذين يتبعون نظامه الملائكى .

كما أن مدينة اكسيريوخوس الضخمة الآهلة بالسكان - وهى مركز الأرثوذكسية المسيحية - خصصت معابدها ، ومبانيها العامة ، بل واستحكاماتها ، لأغراض البر والتعبد .. وقد قرّر الأسقف الذى كان يعظ فى اثنتى عشرة كنيسة ، عدد الراهبات والرهبان بعشرة آلاف من النّساء ، وعشرين ألفاً من الرجال .. وكان المصريون يفخرون بهذه الثروة العجيبة ، ويحدوهم الأمل ، بل ويعتقدون أن عدد الرهبان كان مساوياً لعدد

السكان ، وقد تردد القول أن مصر بلد يسهل أن تجد فيها إلهاً من أن تجد رجلاً [1] .

وكان رهبان الأديرة المنتسبة إلى باخوميوس يعملون ويصلّون ، ويركبون القوارب إلى الإسكندرية ، حيث يبيعون ما لديهم من السلع ، ويشترون ما يحتاجون ، ويشتركون فى المعارك الكنسية السياسية .

وبهذا يعد باخوميوس واضع أسس (النظام الديرانى) ، إذ استطاع أن يحول المظهر المتفرق للدافع النسكى إلى شكل منظم للحياة الجماعية فى (طابينا) .

يقول سوزومين : (لقد كان جميع الرهبان فى مصر ينظرون إلى مجتمع طابينا ، باعتباره الأم ، ويرون فى قواعده آباءهم وأمراءهم) .

وقد أفاد أثناسيوس من هذا النظام الدقيق الذى وضعه باخوميوس للرهبان ، وقد وجد فيه العون إبّان صراعه مع الأريوسيين والأباطرة .

● وفى منطقة وادى النطرون أسس الراهب (أمون) ديراً آخر ، سرعان ما أقبل عليه كثيرون ممن رفضوا الحياة المدنية ، حتى امتلأ بهم الوادى ، حتى ليروى (جيروم) أنهم بلغوا خمسة آلاف راهب .. أما فى مدينة أنطينوى Antinoe - الشيخ عبادة حالياً - فكان ما يزيد على اثنى عشر ألف راهب .

يقول دوشين : إن مكاريوس الإسكندرى (لم يكن يسمع بعمل من أعمال الزهد إلا حاول أن يأتى بأعظم منه) ، فإذا امتنع غيره من الرهبان عن أكل اللحم المطبوخ فى الصوم الكبير ، امتنع عن أكله سبع سنين ، وإذا عاقب أحدهم نفسه بالامتناع عن النوم ليلة ، شوهد مكاريوس وهو (يبذل جهده المستميت لكل يظل مستيقظاً عشرين ليلة متتابعة) .. وحدث مرة فى الصوم الكبير أن ظل طوال هذا الصوم ليلاً ونهاراً ، لايذوق الطعام إلا مرة واحدة فى الأسبوع ، ولم يكن طعامه أكثر من بعض أوراق الكرنب ، ولم ينقطع طوال هذه المدة عن ممارسة صناعته التى اختص بها ، وهى صناعة السلال .. ولبث ستة أشهر ينام فى مستنقع ، ويعرض جسمه العريان للذباب السام .

يقول بتلر (الكنائس القبطية جـ ١ ص ٢٥٦) : ولدى عودته إلى أبنائه الرهبان لم يستطيعوا التعرف عليه ، بسبب تورم جسمه ووجهه ، (ولكنهم عرفوه من صوته فقط) .

---

(١) يلاحظ أن جيبون ينهج نهجاً (استشراقياً) ، معادياً من جانب ، وراكباً ظهور الخرافات والأوهام، دون أن يكلف نفسه عناء البحث عن الحقيقة ، لأن ما يروّج له يجد فى نفسه صدى صريحاً .

وفى هذا الخبر نظر ، (إن لم يكن يؤخذ مأخذ المعجزة ، أو الكرامة) ، إذ كيف ظل فى المستقع عارياً ستة أشهر ، مع تغير الأحوال الجوية ، ودون أن يفتقده أحد من (أبنائه) الر هبان ؟ وكيف وجد طعامه وشرابه ؟ وكيف نسى أن ينام فيغرق ، أو أن يموت من شدة المعاناة ؟ وكيف لم يتغير صوته ، وقد تورم فيه كل شيء ؟!

لاشك فى أن إجابة هذه الأسئلة يمكن أن تضاف إلى عظمة (القديس) !! وبخاصة أن منطقة (دير البراموس) التى أقام بها القديس كان بها بحر (قد جف بسبب صلوات القديس مكاريوس ، لمعاقبة القراصنة الذين ضايقت عملياتُ السلب التى كانوا يقومون بها النساكَ المسيحيين الأوائل ، ويشيرون إلى جذوع الأشجار التى تشغل الأرض بوصفها حطام أسطول القراصنة الذى تحول إلى حجارة) - المصدر نفسه ص ٢٧٧ .

وهو خبر فيه نظر أيضاً ، فما دام فى وسع القديس أن يحول أسطول القراصنة إلى حجارة ، ما كان داع لأن يجف البحر الذى ينتفع به غير القراصنة ، ثم كان ينبغى أن يدعو للقراصنة بالهداية ، أو بالرهبنة ، فتكسب الكنيسة أو الدير أو الإنسانية عناصر صالحة .. لكنه التقليد (الأعمى) لما نسب إلى السيد المسيح الذى وجد شجرة تين غير مثمرة ، لأن أوان الثمر لم يئن بعد ، فدعا عليها أن تجف ، بدلاً من أن يدعو لها أن تثمر فى كل آن ، أو أن يبارك الله فى ثمرها ، فيستفيد من ظلها وثمرها كل من فاء إليها !!

● على أى حال ، فقد كان انتشار الرهبنة من أسباب انتشار الشجاعة ، والقدرة على مواجهة الصعاب ، والإقبال على التضحية دون تردد .

روى جيبون (جـ ١ ص ٤٦٠) : أن الرهبان المصريين كانوا يقدمون رفاتهم فى سكون وصمت إلى الجلاد ، فظهر بذلك طابعهم القومى ، فلم يكن التعذيب لينتزع من مصرى أى اعتراف بِسرّ عقد العزم على كتمانه ، وبهذا عاش بينهم أثناسيوس ، حتى انتهت حياة قسطنطين ، دون الوصول إليه .

● وثمة شاب سورى ، اسمه هيلاريوس ، تحمس للمثل الذى ضربه أنطونيوس ، فأقام له مأوى مدهشاً ، على شاطئ رملى ، بين البحر وأحد المستنقعات ، على بعد سبعة أميال من مدينة غزة ، وأشاعت هذه الكفارة الصارمة التى ثابر عليها ذلك

(القديس) ثمانية وأربعين سنة ، حماساً مماثلاً ، فكان كلما ذهب لزيارة الأديرة الكثيرة فى فلسطين سار وراءه ألفان أو ثلاثة من الزهاد .

وكذلك أنشأ باسيليوس شهرة كبيرة فى تاريخ الرهبنة الشرقية .

يؤكد جيبون (جـ ٢ ص ٢٢٤) أن أديرة مصر وفلسطين وسوريا المتعالية فى حماسها الدينى كانت محاطة بدائرة واسعة من صوامع منعزلة ، يعيش فيها الرهبان ، ويمارسون فيها كفارة مبالغاً فيها ، بدافع من المنافسة ، والرغبة فى نوال التقدير والاستحسان ، وكانوا يحملون من الصلبان والقيود والأساور والقُفّازات ودروع الأرجل المصنوعة من الحديد السميك ، وطرحوا عن أجسادهم كل ملبس لا يحتاجون إليه ، فى احتقار .

ولما وصلت هذه (المذاهب) إلى الغرب ، كانت المنافسة فى (الزهد) بقدر شعور الغرب بالتفوق على الشرق !!

● كان أول دير أنشئ فى العاصمة الجديدة - القسطنطينية - هو الذى أنشأه إسحق السورى ، فى أيام ثيودوسيوس الأول ، وسرعان ما تضاعف عدد الأديرة فيها ، حتى إذا وافى عام ٤٠٠ كان الرهبان طائفة ذات قوة وبأس ، تنشر الرعب فى المدينة ، وكان لهم شأن فى النزاع القائم بين هذا البطريق أو ذاك ، وبين البطريك والإمبراطور .

والتحق يوحنا كسيان (حوالى ٤٣٥/٣٦٠) - وهو شاب لا يعرف مكان مولده - بدير فى بيت لحم ، لم يلبث أن تركه لدراسة الرهبنة فى مصر ، ثم صار قسيساً فى كنيسة القسطنطينية ، أرسله يوحنا الذهبى الفم إلى البابا إنوسنت الأول ، واستقر فى الغرب ، حيث أنشأ بالقرب من مرسيليا ديرين ، حوالى سنة ٤١٥ ، وهناك ألف كتابيه (النظم) ، و (المحاضرات) ، اعتماداً على المواد التى جمعها ، وهو فى الشرق .. وفى الكتاب الأول عرض قواعد الحياة الديرانية ، وهى قواعد أصبحت - فيما بعد ، فى الغرب - أساساً لكثير من الطرق الرهبانية .

لقد وصف كسيان ما كان يجرى فى مصر ، إذ كان الرهبان يجلسون على هيئة جوقة ، ويصغون فى صمت إلى المنشد وهو ينشد المزمور واقفاً ، مقسّماً إياه إذا كان طويلاً ، إلى مقطوعتين أو ثلاث ، حتى لا يثير الملل ، فإذا استغرقته الحمية ، أو غفل ، بحكم قلة الخبرة ، ولم يمسك نفسه عند الحاجة - فإن رئيس الجماعة يسكته ، ضارباً

على المقعد ، وعند هذه الإشارة ينهض الرهبان، ويدعون ممدودى الأذرع بضع لحظات ، ويدعـون الله سـاجدين ، وبإشـارة أخـرى من الرئيـس ينهضـون على أقـدامهم وأذرعـهم مفتوحة ، وبعضهم من شدة الانفعال الدينى تتتابهم (الجذبة) وهم يدعون ، أو أثناء سماع النشيد ، صائحين صيحات الفرح الروحى ، أو الوجد الأليم(١) .

● وفى فرنسا أيضاً أنشأ القديس مارتن Martin ، المولود سنة ٣١٦ فى مارموتيه ، على بعد ميلين من تور - ديراً جمع فيه ثمانين راهباً ، وعاش معهم عيشة التقشف الخالية من الادعاء والرياء ، وكان هذا الدير بداية أديرة كثيرة نشأت بعدئذ فى غالة .

كان مارتن جندياً وناسكاً وأسقفاً وقديساً ، وعندما مات شيعه إلى قبره ألفان من تلاميذه .

يقول جيبون (جـ ٢ ص ٢١٥) : لهذا نرى مؤرخه الفصيح يتحدى صحراوات طيبة أن تجود ببطل فى مثل فضيلته ، رغم أن مناخها أكثر ملاءمة .

حقاً ، لقد بالغ الرهبان فى الغرب ، أو فى الدولة البيزنطية ، فى (إعلان) قدرتهم على (التحمل) ، فقد لجأ بعض الرهبان إلى قضاء حياتهم فوق عمود من أعمدة المبانى الأثرية القديمة ، فى القسطنطينية ، يتعبدون ولا يتصلون بالناس .. وكان أولئك العموديون غالباً يحظون برعاية الأباطرة وكبار رجال الدولة ، يمدونهم بما يحتاجون من طعام وشراب ، ولعل هذه الرعاية ترجع إلى أن الجنود بخاصة كانوا يكنّون قدراً من الاحترام والتوقير لهؤلاء الرهبان ، يصل إلى حد أنهم لا يخشون (أشد المتبربرين ضراوة) مثلما يخشون هؤلاء القديسين .

وكان ثمة جماهير متلاحقة - كما يقول جيبون (جـ ٢ ص ٢٣٦) - من حجاج بلاد الغال والهند ، كانت تقدم للعمود المقدس الذى جلس عليه (سمعان) سيمون (٣٩٠/٤٥٩) الذى عاش ثلاثين سنة فوق عمود حتى سمى (العمود) .. وقد أخذ يزيد فى ارتفاع العمود حتى بلغ ستين قدماً .

ترك هذا (العمود) - وهو فى الثالثة عشرة - مهنة الرعى ، وقذف بنفسه فى دير الأديرة الصارمة التى كانت منتشرة فى بلاد الشام ، وبعد أن قضى فترة طويلة في

---

(١) انتقلت هذه النظم إلى الصوفية الإسلامية ، عن طريق ابن أدهم ، الصوفى الكبير ، ابن أخميم ، وعن طريق من جاءوا بعده ، ممن كانوا يترددون على الأديرة فى سياحاتهم .

الإعداد للرهبنة ، استقر فوق جبل يقع على بعد ثلاثين أو أربعين ميلاً إلى الشرق من أنطاكية ، وهناك قبع داخل حجرة ، أو دائرة من الأحجار ، وربط نفسه بقيد ثقيل ، وتعوّد على مختلف أنواع التعبد ، واقفاً منتصب القامة ، باسطاً ذراعيه على شكل صليب ، أو ثانياً جذعه النحيلَ ، حتى تلامس جبهته الأرض مرات عدة .. وأصيب بقرحة فى فخذه ، وظل يتحمل آلامها حتى وافاه الموت ، وهو على العمود .

وذكر جيبون أن قبائل العرب المشارقة كانت تتنازع بالسلاح للحصول على شرف الانتساب إليه ، والاختصاص ببركته .

● وكان للقديس (دانيال) دانيل عمود يعيش عليه بالقسطنطينية ، فى القرن الخامس ، وكان محبوباً من البلاط الإمبراطورى ، وكلما هبت عاصفة أرسل الإمبراطور ثيودوسيوس الثانى رسله فى التو ليسألوا عن حاله ، وبعد جهد عظيم تم إقناعه بإقامة سقف صغير فوقه ، حتى إذا حدث خطأ فى بناء العمود هُدد المهندس الذى أقامه بالموت .. كان شافياً من الأسقام مثل القديس سمعان الصغير الذى ذهب ليعيش على صخرة كالمئذنة قرب أنطاكية .. وكان القديس أليبيوس البافلاغونى والقديس لازاروس الغاليسيونى يحكمان أديرة من فوق أعمدتهما ، وقد أصيب الأول منهما بالفالج ، بعد أن وقف على قدميه ثلاثاً وخمسين سنة ، واضطر إلى الرقود .

وفى القرن السابع قضى القديس ثيودور السيكيونى مدة الصيام الكبير فى قفص ، لكن تلميذه أرسينيوس عاش أربعين سنة على عمود قرب دمشق .. وكان القديس ثيودولوس يصور صوراً جريئة على قمة عمود .

ولم يخل الأمر من ناسكة عمود من النساء أو اثنتين .

وكان آخر العموديين البارزين ، القديس لوقا ، يعيش فى عهد رومانوس الأول ، الذى كان حكمه عصراً ذهبياً للقديسين ، وكان عموده قائماً فى خلقيدونيا - عن الحضارة البيزنطية ص ٢٥٦ .

● ومن الرهبان من أوفوا على الغاية من أعمال العزلة ، مثل سرابيون ، الذى كان يعيش فى كهف فى قاع هاوية ، لم يجرؤ على النزول إليها إلا عدد قليل من الحجاج ، والذين وصلوا إلى صومعته هذه وجدوا فيها رجلاً لا يكاد يزيد على بضعة عظام ، يلبس خرقة تستر حقويه ، ويغطى الشعر وجهه وكتفيه ، ولا تكاد الصومعة تتسع

لفراشه المكون من لوح من الخشب وبعض ألواح الشجر ، مع هذا فقد عاش هذا الرجل من قبل عيشة الأشراف .

ومن النساك من كانوا لا يرقدون قط أثناء نومهم ، ومنهم من كان يستمر على ذلك أربعين عاماً ، مثل بساريون ، أو خمسين عاماً مثل باخوم .

ومنهم من تخصصوا فى الصمت ، وظلوا سنين طويلة لا تنفرج شفاههم بكلمة .

ومنهم من كانوا يحملون أحمالاً ثقالاً أينما ذهبوا .

ومنهم من لم ينظر إلى وجه امرأة عدة سنين .

ولما مرض مكاريوس جاءه بعضهم بعنب ، فلم يقبل هذا الترف، وبعث به إلى آخر ، فأرسله إلى ثالث ، حتى طاف العنب بجميع الصحراء - كما أكد روفينس - وعاد مرة أخرى إلى مكاريوس .

وهذه القصة يرويها التاريخ الإسلامى عن جرحى إحدى الغزوات ، طاف عليهم الماء ، وكل يصرفه إلى صاحبه ، حتى هلكوا جميعاً ، فنزل فيهم قوله تعالى : ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ . (سورة الحشر ، آية ٩) . ولا مجال للشك فى أحد الخبرين ، فالنفوس إذا صفت سمت ، وإذا سمت اتسعت والتقت ، وأصبحت جماعة النفوس نفساً واحدة ، فمن يؤثر على نفسه نفساً آخر إنما يؤثر نفسه .

● كان الحجاج الذين جاءوا من جميع أنحاء العالم المسيحى ، ليشاهدوا رهبان الشرق ، يَعْزون إلى أولئك الرهبان معجزات لا تقل فى غرابتها (!!) عن معجزات المسيح (قصة الحضارة جـ ٢ ص ١٢١) كانوا - كما يقال - يشفون الأمراض ، ويطردون الشياطين باللمس ، أو بكلمة ، وكانوا يروضون الأفاعى والوحوش بنظرة ، أو دعوة ، ويعبرون النيل على ظهور التماسيح .

ومنهم من كان يرى أن النظافة لا تتفق مع الإيمان ، بل كان يكرهها ، لأنها تحرمه من (لآلئ الله) ، القمل ، الذى كان علامة القدسية فى حامله ، وكان القديسون والقديسات يفخرون بأن الماء لم يمس أقدامهم ، إلا حين استدعت الضرورة أن يعبروا الأنهار .. وقد أبت العذراء (سلفيا) أن تغسل أى جزء من جسدها ، عدا أصابعها .. وفى أحد أديرة النساء كانت ١٣١ راهبة لم تستحم واحدة منهن ، أو تغسل قدميها .

وكان الشرق الأدنى ينافس مصر فى عدد الرهبان والراهبات وعجائب الأفعال .

كانت أنطاكيا وبيت المقدس خليتين مليئتين بالصوامع ، وبالرهبان والراهبات .. وكانت صحراء سوريا غاصة بالنساك ، منهم من كان يشد نفسه إلى صخرة ثابتة ، كما يفعل فقراء الهنود ، ومنهم من كان يحتقر هذا النوع من (المساكن) ، ويقضى حياته فى الطواف فوق الجبال ، يطعم العشب البرى .

● وقد قرر مجلس خلقيدونيه سنة ٤٥١ ، أن تُفرض رقابة شديدة على من يدخلون الأديرة . ومن يهيئون أنفسهم لدخولها لا يخرجون منها ، ولا يسمح لأحد أن يبنى ديراً ، أو يغادره ، إلا أن يأذن له بذلك أسقف الأبروشية .

ولعل هذا القرار يرجع إلى ما كان يعانيه الديرانيون من تشدد رؤسائهم ، لدرجة أحدثت اضطراباً فى نظام الأديرة ، حتى كثر الداخلون والخارجون ، المتزمتون والمتذمرون ، المسرفون فى إفراطهم ، والمسرفون فى تفريطهم .

ومن تعاليم سانت كولمبان Columban (٥٤٣/٦١٥) :

(يجب أن تصوم كل يوم ، وتعمل كل يوم ، وتقرأ كل يوم ، وعلى الراهب أن يعيش تحت حكم أب واحد ، وفى مجتمع يتألف من كثير من الإخوان ، حتى يتعلم التواضع من أحدهم ، والصبر من آخر ، والصمت من ثالث ، ودماثة الخلق من رابع .. ويجب أن يأوى إلى الفراش وهو متعب ، يكاد يغلبه النوم وهو سائر فى الطريق) .

والعبارة الأخيرة تشير إلى غلبة الغريزة ، إذ كانت الأديرة معامل تفريخ للجريمة الأخلاقية ، وبخاصة اللواط والسحاق .. وانتشر الزنا بين الرهبان والراهبات فى الأديرة المتقاربة .. بل كان من الحكام من يتخذ من أديرة الراهبات مكاناً لمقارفة الزنا مع عاشقات من خارج الدير - انظر كتابى (مسيحية بلا مسيح) .

ولعل من أجل هذا كانت العقوبات صارمة فى تعاليم سانت كولمبان :

ستة سياط للراهب إذا سعل وهو يُنشد ترنيمة ، أو نسى أن يدرّم أظافره قبل تلاوة القداس ، أو تبسّم أثناء الصلاة ، أو قرع القدح بأسنانه أثناء العشاء الربانى .

اثنا عشر سوطاً إذا نسى الراهب أن يدعو الله قبل الطعام ، وخمسون عقاب المتأخر .

ورأى كولمبان أن يعيش الرهبان على الخبز والخضرة والماء ، وأن يقطعوا الغابات ، ويحرثوا الأرض ، ويزرعوا ويحصدوا (قصة الحضارة جـ ١٤ ص ٣٦٥) .

ويقول جيبون جـ ٢ ص ٢١٨ :

إن الفضائح وازدياد الخرافة أوحت بوجوب فرض قيود أشد تلائم الحال ، فكان الرجل الذى يُعَدّ للرهبنة يوضع تحت التجربة فترة كافية ، ثم يدعم ولاءه بأن ينذر نفسه نذراً رسمياً أبدياً .

وكانت قوانين الكنيسة والدولة تقر ارتباطه الذى لا رجعة فيه ، فإذا هرب واحد من هؤلاء اقتفى أثره ، واعتقل ، وأعيد إلى (سجنه) الدائم .. كما أن تدخل الحاكم فى مثل هذه الحالات قضى على الحرية والميزة اللتين كانتا من قبل تخففان بعض الشيء من العبودية الذليلة التى اتسم بها نظام الرهبنة .. وكانت أعمال الراهب وكلماته، وحتى أفكاره ، تحددها قواعد صارمة ، أو يحددها رئيس متقلب المزاج ، وإذا ارتكب أتفه الذنوب عوقب بالتشهير المشين ، أو الحبس ، أو الصيام غير العادى ، أو الجلد القاسى .. أما العصيان ، أو التذمر ، أو المماطلة ، فإنها تدخل فى عداد الخطايا (الرهيبة) التى أدت – قبل عصر شارلمان – إلى قطع أطراف الرهبان ، أوْ فَقْء عيونهم.

وكان الخضوع الأعمى لأوامر رئيس الدير ، مهما كانت بعيدة عن الصواب ، أو حتى إجرامية ، فإنها كانت المبدأ الأسمى ، والفضيلة الأولى ، للرهبان المصريين .. وكثيراً ما كانوا يتعرضون لأشد الاختبارات ، حتى يتدربوا على الصبر ، بإزالة صخرة ضخمة ، أو رَيّ عصا يابسة لعدة سنوات ، أو عبور أتون من النار .

● ويعد القديس بندكت (٥٤٤/٤٨٠) من أهم الشخصيات فى قصة تطور الديرة الأوربية .

ولد بمدينة سبوليتو Spoleto الإيطالية ، ونشأ فى أسرة (أمبريّة) نبيلة ، وقد ألقت عليه أحوال ذلك الزمان ظلالها ، فمال إلى الحياة الدينية ، وأطلق لتقشفه العنان فى مبدأ الأمر ، واتخذ لنفسه مكاناً بكهف فى صخرة عالية تطل على نهر الأنيو Anio ، إلى جوار قصر مهجور للإمبراطور نيرون ، ولم يكن من السهل الوصول إلى هذا الكهف الذى أقام به ثلاث سنوات ، وكان أحد مريديه يدلى إليه الطعام بحبل .

ثم انصرف عن تعذيب نفسه ، وأخذ يدير اثنى عشر ديراً كانت ملاذ عدد كبير من النساك ، كما كان يقوم بتعليم عدد من الشبان رغبوا فى علمه وهدايته .

ثم انتقل إلى مونتى كاسينو ، وهو جبل فى منتصف المسافة بين رومه ونابلى ، موحش جميل ، يقوم وسط دائرة كبيرة من المرتفعات الجميلة ، وقد وجد القديس هناك معبداً لأبوللو ، وأجَمة مقدسة ، كما وجد أن المنطقة الريفية المجاورة ما زالت تتعبد فى هذا المعبد .

استطاع أن يقنع الوثنيين البسطاء أن يهدموا المعبد ، وأن يقطعوا أجمتهم ، وما لبثت المؤسسة التى أنشأها على جبل مونتى كاسينو أن بلغت شهرة ذائعة .

أرسل إلى راهب ربط نفسه بسلسلة إلى صخرة فى غار ضيق ، يقول : (كسّر أغلالك ، لأن خادم الله الحقيق لا يُغلّ إلى الصخور بالحديد ، وإنما يربطه المسيح إلى الهدى والبر) .

وقد أصر على ضرورة العمل ، والجد فيه ، فدعا تلاميذه ومريديه إلى الكدح الشديد ، بدلاً من أن يعيشوا معتمدين على خدمة الآخرين .. كما شجع على طلب العلم، وإن كان علماً دينياً .

وصار له نفوذ سياسى ، هيأه لإصلاح ما بين القوط والإيطاليين .

وجاء اللومبارديون فنهبوا الدير ، قبل أن يتولى جريجورى الأكبر منصب البابوية بزمن قليل ، وكان هو نفسه بندكتياً .

وكان كاسيودورس (٤٩٠/٥٨٥) يرتبط بكل من بندكت وجريجورى ارتباطاً وثيقاً ، من حيث تطور الرهبنة (الديرية) ، من مجرد تعذيب النفس (الأنانى) لدى النساك الأول ، إلى القيام بدور فى خدمة الحضارة .

كان أسنَّ من البابا جريجورى ، ويصغر بندكت بعشر سنوات ، وكان شأنَهما ينتمى إلى أسرة نبيلة ، من البطارقة ، وقضى فترة طويلة موظفاً فى خدمة ملوك القوط .. وبين سنتى ٥٤٥/٥٥٣ حدثت أحداث سياسية ، ووباء عظيم ، فراح يلتمس الملاذ فى حياة الرهبنة .

أنشأ ديراً فى مزارعه الخاصة ، وجمع عدداً من الرهبان يعملون على النظام البندكتى ، فى المهن المختلفة ، والتعليم والدراسة ، وشغل رفاقه بجمع المخطوطات القديمة ، حماية للتراث ، وأمر بها فنسخت ، وقام بصنع المزاول ، والساعات المائية ، وغيرها من الأجهزة ، وألف كتاباً فى تاريخ ملوك القوط ، وأصدر سلسلة من الكتب المدرسية عن الفنون الحرة ، (مثل النحو والمنطق والرياضيات) .

● توارث القوم التعاليم البندكتية ، وزادوا فيها ونقصوا ، واشتهرت جماعات من الرهبان بمناهج سلوكية خاصة .. وقد تأسست جماعة الدومينيك ، نسبة إلى القديس دومنجو دى جزمان (١١٧٠/١٢٢١) ، وانتشرت فى أنحاء مختلفة من العالم المسيحى .. وقد وصف ماثيوباريس سنة ١٢٤٠ طائفة الدومينيك فى إنجلترا بأنهم (قوم شديدو الاقتصاد فى طعامهم ولباسهم ، لا يقتنون ذهباً ولا فضة ، ولا شيئاً ما لأنفسهم ، يطوفون بالمدن والقرى يدعون إلى الإنجيل ، ويعيشون جماعات من سبعة أو عشرة ، لا يفكرون فى الغد ، ولا يحتفظون بشىء ما للصباح التالى ، يعطون الفقراء كل ما بقى لديهم من الطعام الذى يتصدق به الناس عليهم ، يسيرون حفاة ، ولا يحتفظون إلا بالإنجيل ، ينامون بثيابهم على الحصر ، ويتخذون الحجارة وسائد) .

وكذلك كان حال طائفة الفرنسيس ، الذين اضطلعوا بدور نشيط فى أعمال محاكم التفتيش ، وعينهم البابوات فى مناصب رفيعة ، وأرسلوهم فى بعثات دبلوماسية خطيرة .

وكان ممن نبغ منهم فى التعليم ، وبرز فى مجال القيادة الدينية ، ألبرت ماجنس ، وتوماس أكويناس .

والرهبان بعامة هم الذين حافظوا على الأساليب الفنية الرومانية واليونانية والشرقية ، ونشروها ، كما حافظوا على الآداب اليونانية والرومانية القديمة ، ذلك أن الأديرة - لحرصها على أن تستقل بذاتها - دربت النازلين فيها على فنون الزخرفة ، وعلى الحرف العملية .. كانت كنيسة الدير تتطلب مذبحاً ، وأثاثاً للمحراب ، وكأساً للقربان ، وصندوقاً وعلباً لحفظ المخلفات ، وأضرحة ، وكتباً للصلاة ، وماثلات ، وقد تتطلب نقوشاً من الفسيفساء ، وصوراً على الجدران ، وتماثيل تبعث التقى فى

القلوب .. كان الرهبان يصنعون كل هذا بأيديهم .. وكانت فى معظم الأديرة مصانع ، منها مصانع للمنسوجات ، وكانت (ورش) لصيانة المخطوطات وزخرفتها .. واشتهر الراهب تيوفيلوس ، حبيب الله ، بكتابة موجز فى مختلف الفنون حوالى سنة ١١٩٠ .

● يلاحظ أن بعض الراهبات دخلن الديرة قسراً ، ووجدن متاعب فى حياة التقى والصلاح ، مما ساعد على انتشار الفساد الأخلاقى الذى غزا هذه المجتمعات (المنغلقة) ، ولهذا رأى تيودور رئيس أساقفة كنتربرى ، وإجبرت أسقف يورك . تحذير رؤساء الأديرة والقساوسة والأساقفة (من غواية الراهبات) .

كتب إيفو Jvo أسقف تشارتر (١٠٣٥/١١١٥) يقول إن بعض الراهبات فى دير القديسة فارا Fara يحترفن الدعارة .

ورسم أبلار (١٠٧٩/١١٤٢) صورة تمثل الانحراف والطيش فى بعض الأديرة .

ووصف البابا إنوسنت الثالث ديرَ (أجاتا) بأنه ماخور ، انتشرت عدوى الفساد فيه إلى الأديرة المجاورة .

وتحدث أسقف (رون) سنة ١٢٤٩ عن دير فيه ثلاث وثلاثون راهبة ، وثلاث أخوات من غير الراهبات ، وُجدت منهن ثمان يحترفن البغاء ، (ولا تكاد رئيسة الدير تكف عن الخمر ليلة واحدة) .. كانت الراهبات تقمن بجميع ما يحتجن من أعمال التنظيف ، والطبخ ، والغسل ، والحياكة ، ويصنعن ملابس الرهبان ، والفقراء ، والأغطية التيلية للذبح ، وأثواب القسس ، وكن ينسجن السجف ، والأقمشة التى تزين الجدران ، (وينقشن عليها بأصابعهن الرقيقة نصف تاريخ العالم) ، كما كن ينسخن المخطوطات ، ويزينّها بالرسوم والحروف الكبيرة الجميلة ، ويقبلن الأطفال للإقامة فى الدير ، ويعلمنهم الأدب ، والمبادئ الصحية ، والفنون المنزلية ، ومنهن كن ممرضات فى المستشفيات .

ومن أشهرهن إليزابث النورنجائية (١٢٠٨/١٢٣١) ، ابنة الملك أندرو ، تزوجت فى الثالثة عشرة من أمير ألمانى ، وكانت أماً فى الرابعة عشرة ، وأرملة فى سن العشرين .. نهب أخو زوجها مالها ، وطردها ، فلجأت إلى حياة الورع والتجوال ، وكان لها تأثير كبير فى بلاد المجر .. وقد بلغ من اشتهارها بالتقوى - مع قصر حياتها - أن من كانوا

يسيرون فى جنازتها ، من أتباعها المخلصين ، قصوا شعر رأسها ، وقطعوا أذنيها ، وحلمتى ثدييها لتكون مخلفات مقدسة .

● تضاعف عدد الأديرة فى (العصور المظلمة) ، وبلغت ذروتها فى القرن العاشر المضطرب ، الذى ساءت فيه الأحوال إلى أقصى حد ، ثم أخذت تخف حدتها ، حين أخذ النظام يسود الشئون الدينية ، وأخذ الرخاء فى الازدياد .

كان فى فرنسا - على سبيل المثال - سنة ١٠٠ خمسمائة وثلاثة وأربعون ديراً ، تقلصت إلى ٢٨٧ فى سنة ١٢٥٠ .

وفاض ثراء المجتمع على الأديرة ، فانغمس الرهبان فى الترف ، وصار رؤساء الأديرة سادة عظماء ، أصحاب ثروات طائلة ، وسلطان اجتماعى وسياسى .

ولم يعد كثير من الرهبان يتقيدون بنظم الرهبنة ، إذ كانوا يستمتعون بالصيد والقنص ، وألعاب الفروسية ، وينغمسون فى السياسة ، حتى أصبح رؤساء الأديرة هدفاً لسخرية الشعب ، وتشهير الكتّاب .

ولعل مما ساعد على هذا الفساد خروج كثير من البابوات والكردينالات ورؤساء الأساقفة عن الآداب الدينية ، ووقوف هؤلاء (القادة) فى وجه النزعات (الروحية) التى تحقق مكاسب شعبية .

كان (الروحيون) يقولون : إن المسيح والحواريين لم يكن لهم متاع ، ووافقهم على هذا القديس بونافنتورا ، وصدق البابا نقولاس الثالث على ذلك الرأى سنة ١٢٧٩ ، غير أن البابا يوحنا الثانى والعشرين ، أعلن سنة ١٣٢٣ أنه رأى خاطئ .. ومن ذلك الحين عُدّ الروحيون الذين أصروا على الدعوة إلى هذا المبدأ من الضالين ، وقمعت حركتهم ، وبعد مائة عام من وفاة فرنسيس (١١٨٢/١٢٢٦) حرقت محاكم التفتيش أتباعه على أعمدة التحريق .

● من أجل هذا وغيره كانت المسارعة إلى تطوير الخدمات الديرية ، وبخاصة أنه كان ثمة سابقة فى عمل القديس باسيل - حوالى سنة ٣٦٠ - أن تضم أديرته الأقل إمعاناً فى الزهد ملاجئ للأيتام ، ومدارس للصبيان ، ولم تقتصر على الصبيان الذين كان يراد إعدادهم ليكونوا رهباناً ، واستمرتطوير الخدمات الاجتماعية والثقافية فى كثير من الأديرة ، وتحولت بعض الأديرة إلى مدارس وإلى جامعات .

يقول الأنبا شنودة (الأقباط فى وطن متغير ص ١٣٨) : الأديرة أصبحت الآن بؤراً ثقافية ، ففيها مكتبات ضخمة استوردت فى مختلف التخصصات أحدث المراجع ، وتضم من المخطُوطات النادرة ما يأتى من أجله الخبراء الأجانب ، وهى منظمة ومبوبة على أحدث وسائل التوثيق .

وفى كل دير متحف صغير يضم المتناثر من الآثار المهددة بالضياع .

وتقوم الأديرة بواجبها الوطنى ، حين تطلب منها وزارة الأعلام أو مصلحة الاستعلامات بعض الأمور ، أو التصوير التسجيلى ، أو الشرح ، وتقديم المعلومات التاريخية .

والأجانب الذين يقومون بزيارتنا يجدون فى الرهبان المثقفين عوناً كبيراً ، حتى صارت الأديرة نقطة جذب كبرى لأنظار العالم .

ومن جانبنا نهيئ لكل راهب أسلوب الحياة الملائم لتكوينه الثقافى والنفسى ، وإذا كانت هناك سمات عامة تميز حياة الرهبان جميعاً ، فإن هناك سمات خاصة تميز بعضهم عن بعض ، حسب مستوياتهم الروحية والفكرية ، وقدراتهم .

هناك رهبان خدموا فى الدير ، وفى المهجر ، وهناك العمال الذين اشتغلوا ويشتغلون فى البناء والنجارة والسباكة وغيرها ، فالدير بالنسبة لهم أشبه ما يكون بمدرسة للتدريب المهنى يتخرجون منها ، وبعضهم يسافر إلى الخارج ، ويأتى آخرون ، وهكذا ، كأنهم (دفعات) تتخرج سنوياً من أعمال صناعية وزراعية .. والدير يقدم منتجاته للعالم .. ولبعض الرهبان نشاطات فنية ، كالمصنوعات الخشبية ، والرسم ، والنحت ، وغير ذلك .. وبعض الأديرة تقدم مطبوعات .

• • •

حركة الإصلاح

تناولت المسيحية من خلال نصوصها فى كتابى (دراسة فى التوراة والإنجيل) .

وتناولت المسيحية من خلال مؤرخيها فى كتابى (مسيحية بلا مسيح) .

وحتى لا أكرر ما قلت فإنى أكتفى بالإشارة إلى أن الأصول المسيحية يشكك فى صحتها ، بل يرفضها كلها - بسبب عدم صحة نسبتها إلى السيد المسيح - كثير من رجال الدين والتاريخ والفكر المسيحى .

وإذا كانت المسيحية تعتمد فى تشريعها على اليهودية ، على أساس عبارة السيد المسيح : (ما جئت لأنقض ، بل لأكمل) ، فإنّا بصدد ما يشبه الإجماع على أن التوراة والتلمود جميعاً صناعة حاخامات ، بعد موسى - عليه السلام - بقرون ، إبّان الأسر البابلى ، وبعده .. بل إن كثيراً من أسفار العهد القديم ، ما اعترف به ، وما حرم تداوله (الأبوكريفا) - كتب بعد ميلاد السيد المسيح .

وإذا قيل إن مشاركة الأحبار والبابوات ، ومن يمثلونهم ، فى كتابة كل من التشريعين اليهودى والمسيحى - إنما هو لون من (الاجتهاد) الذى أقره الإسلام ، فإنه شتان بين أن تصنع ديناً ، وأن تفسر نصوصه بما يلائم ما يجدّ من الاحتياجات الاجتماعية ، وما تمليه المتغيرات الإنسانية ، مما لا تضيق به (النصوص) .

لقد سبق أن أشرت إلى أن (بولس) خرج بالمسيحية إلى الفلسفة الوثنية ، ومن حاول الرجوع بها إلى ما بقى من صدى دعوة السيد المسيح حورب أشد المحاربة ، وبهذا مضت (المسيحية) الجديدة فى طريق أبعد ما يكون عن صاحب الرسالة ، وأخذ البابوات والمجامع المقدسة يصنعون النصوص ، ويكيفونها وفق اعتبارات دنيوية خالصة، ووفق مصالح مادية وسياسية ، فى تنافس حميم على السلطة ، أدى إلى ركوب أبشع ألوان التجاوزات الأخلاقية .. وكان أن تقرّرت (عصمة) البابا فى مجمع رومه

سنة ١٨٦٩ ، وانتقل حق التشريع إليه ، كرأس للكنيسة ، بدعوى أن السيد المسيح قال لتلاميذه : (كما أرسلنى الآب أرسلكم أنا) - يوحنا صح ٢٠ - مع أن الفرق شاسع بين المرسل من قبل الله (بشريعة) والمرسل من قبل رسول الله إلى الناس ، وإذا صار من حق (البابا) أن يشرّع ، فليس كل البابوات فى مستوى ثقافى واحد ، ولا يتمتعون بمستوى أخلاقى واحد ، ولا يخضعون لمؤثرات خارجيّة وداخلية واحدة .. وقد سجل التاريخ صفحات (إجرامية) لبعض البابوات ، وصفحات (إصلاحية) لبعض البابوات، فهل تدخل البَدَوات والنزوات مدخل (العصمة) ، وحق التشريع ؟ وما الفرق إذن بين المشرعين ومؤلفى أو (طرزية) القوانين ؟!

● قد يكون قسطنطين الأول ، مؤسس الدولة المسيحية ، هو (بولس) الثانى ، إذ قنّن المسيحية بفكر رومانى ، وقد رأى البطارقة والكرادلة الإغضاء عن تجاوزات قسطنطين ، اعترافاً بفضله فى حماية المسيحية ، بل فى (تدويلها) ، حتى أخذت الكنائس فى تشكيلها صورة الدولة .

يقول جيبون (جـ ٢ ص ٩٤/٩٥) : إن السلطة التى كان الكهنة قد حصلوا عليها فى سياسة الجمهورية ما لبثت أن ألغيت بقيام النظام الإمبراطورى ، ومع ذلك ظلت قوانين وعادات البلاد تحمى جَلال طابعهم المقدس ، واستمروا يمارسون - وبخاصة هيئة الأحبار ، فى العاصمة ، وفى الولايات أحياناً - حقوق سلطتهم القضائية ، الكَنَسيّة والمدنية ، وكانت أرديتهم الأرجوانية ، وعرباتهم الرائعة ، وولائمهم الفخمة ، تستحوذ على إعجاب الناس .. وكانوا يتلقون من الأراضى الموقوفة ، ومن الإيراد العام ، رواتب وفيرة ، تكفى للإنفاق بسخاء على فخامة مراكزهم الكهنوتية ، ودفع نفقات العبادة الدينية فى الدولة .

ولما كانت خدمة المذبح لا تتنافى مع قيادة الجيوش ، فإن الرومان - بعد أن كانوا يصلون إلى منصب القنصل ، ويحققون انتصاراتهم الحربية - كانوا يتطلعون إلى مناصب الأحبار والعرافين ، ومن ثم فإن المقعد الذى كان يشغله بومبى ، وذلك الذى كان يشغله شيشرون ، شغله فى القرن الرابع ألمع أعضاء السناتو ، وأضفى سمو أرومتهم روعة إضافية على شخصيتهم الكهنوتية ، وتمتع الكهنة الخمسةعشر الذين كانوا

يشكلون هيئة الأحبار بمركز أعظم رفعة ، بوصفهم رفاق الملك ، وتفضل الأباطرة المسيحيون بقبول الرداء والشعارات التى كانت مخصصة لمنصب الحبر الأعظم .

ولكن عندما ارتقى جراشيان العرش ، وكان أكثر حزماً وأكثر استتارة ، نبذ تلك الرموز الدنسة ، ووجه دخل الكهنة إلى خدمة الدولة ، أو المعبد ، وألغى مناصبهم وحصاناتهم ، وهدم الكيان القديم للخرافات الرومانية ، وهو الذى كانت تؤيده عادات وآراء ، نمت خلال مائة وألف عام ، وكانت الوثنية لا تزال الديانة الدستورية للسناتو ، وكانت القاعة أو المعبد الذى يجتمعون فيه مزيناً بتمثال ومذبح إلهة النصر (فيكتورى). وهو تمثال امرأة مهيبة واقفة على كرة ، ذات أردية فضفاضة ، وجناحين مبسوطتين ، وإكليل من الغار فى يدها المبسوطة ، وكان أعضاء السناتو يقسمون على مذبح الآلهة أن يطيعوا قوانين الإمبراطور وقوانين الإمبراطورية ، كما أنهم درجوا على تقديم النبيذ وحرق البخور فى وقار وخشوع ، كمقدمة لمناقشاتهم العامة ، وكانت إزالة هذا الأثر القديم هى الإساءة الوحيدة التى ألحقها قسطنطين بخرافات الرومان ، ثم أعاد جوليان مذبحة إلهة النصر ، وتسامح فالنتيان فى وجوده ، ثم أزاله جراشيان من السناتو مرة ثانية ، بدافع من غيرته ، ومع ذلك ، فإن الإمبراطور لم يمس تماثيل الآلهة المعروضة للعبادة العامة ، فبقى أربعمائة وأربعة وعشرون معبداً ، أو مصلى ، يقيم الناس فيها صلاتهم .

● وقد أعان القديس بولس على استمرار ألوهية أباطرة ما قبل المسيحية فى أباطرة ما بعد المسيحية ، بقوله :

(لتخضع كل نفس للسلاطين الفائقة ، لأنه ليس سلطان إلا من الله ، والسلاطين الكائنة هى مرتّبة من الله .. حتى إن من يقاوم السلطان يقاوم ترتيب الله ، والمقاومون سيأخذون لأنفسهم دينونة ، فإن الحكام ليسوا خوفاً للأعمال الصالحة ، بل للشريرة) - رسالة بولس إلى أهل رومية صح ١٣ .

ويضيف أن (الحاكم المستبد لا يحمل السيف عبثاً ، إذ هو خادم الله ، منتقم للغضب من الذى يفعل الشر) - ذات المصدر .

وهكذا يعلن (القديس) أن الحاكم يستمد سلطته (الزمنية) من الله ، فمن

عصاه فقد عصى الله ، وما دام الحاكم يمثل إرادة الله ، وقد شهد له بذلك (القديس) ، فإن من اليسير أن يتحرك بزهوه وغروره ، فلا يرى إلا نفسه ، وإلا قدرته .. وكان له أن يدعى الألوهية ، وكان له أن يقتل من شعب (بولس) آلاف الشهداء ، ولا تثريب عليه .

ومن عجب أن هذه (الدعوة) تلقى تأييداً على لسان القديس بطرس الذى يقوم (الفاتيكان) على كنيسته .. يقول فى رسالته الأولى صح ٢ : (أيها الأحباب ، اخضعوا لكل ترتيب بشرى من أجل الرب ، إن كان للملك فكمن هو فوق الكل ، أو للولاة فكمرسلين منه للانتقام من فاعل الشر ، وللمدح لنا على الخير .. أكرموا الجميع ، أحبوا الإخوة ، خافوا الله ، أكرموا الملك) .

قد يلاحظ أن عبارة القديس بطرس تنشد السلام ، ولا ترغب فى أن تنال (القِلة) المسيحية مزيداً من عنت السلطة وطغيانها .

ولما اشتد الأمر بالمسيحيين ، بسبب من اضطهاد الحكام (المستبدين) وعملائهم من اليهود ، وراح فى مقدمة الضحايا كل من بولس وبطرس - قال ترتليان (١٠٥/ ٢٢٠): (الإمبراطور هو لنا أكثر مما هو لأى إنسان آخر ، لأن إلهنا هو الذى أقامه ، ولذا وجب علينا أن ندعمه ، فالسلطة الإمبراطورية مستمدة من الله ، وإن كانت لا تشارك فى فضائل الألوهية ، لأنها مخلوقة ، فالله خلقها لتنفيذ مشيئته) .

كان ذلك فى عهد سافيروس الذى منع الدخول فى اليهودية أو فى المسيحية ، فإذا علمنا أن اليهودية مغلقة أبوابها ، فقد انصرف القرار إلى المسيحية ، وإن كان ظاهره عدم تحريم المسيحية ، لكنه سيظل سيفاً مسلطاً على رقاب المسيحيين ، لأنهم لا يحملون بطاقات تحدد تاريخ دخولهم المسيحية .. وهذا يجعل لقول ترتليان صفة الدهاء السياسى ، فى محاولة لامتصاص غضب الإمبراطور ، وفى محاولة لكسبه ، مع التحفظ على قدرة (الطاغية) ، والوقوف به عند حد (البشرية) .

● لكن ، وقد صارت الدولة مسيحية ، والحاكم مسيحياً ، فإن ملامس الدعوة إلى الطغيان تتحول إلى هدف (بابوى) جائر ، وبخاصة أن البابوية مدت يداً إلى السلطة (الزمنية) ، لتستحوذ عليها ، أو لتستمد السلطة الزمنية قوتها من السلطة الدينية ، أو لتصبح السلطتان فى يد الكنيسة .

يقول القديس جريجورى (٥٤٠/٦٠٤) : (لا ينبغى أن تكون أعمال الحكام محلاً للطعن والتجريح ، بسيف السلطان ، حتى لو ثبت أن هذه الأعمال تستحق اللوم ، ومع ذلك فإن أقل ما ينبغى إذا انزلق اللسان إلى استنكار أعمالهم أن يتجه القلب فى أسف وخشوع إلى الندم والاستغفار ، التماساً لعفو السلطة العظمى التى ما كان الحاكم إلا ظلها على الأرض) .

ويأتى لوثر (١٤٨٣/١٥٤٦) : الذى ناوأ البابوية ، وظهر بمظهر شمشون الذى هدم المعبد على رأسه ورءوس أعدائه - ليقول باسم (ثورة الإصلاح) : (لو كان لابد من معاناة الألم ، فخير لنا أن نعانيه على يد الحكام ، أفضل من أن نعانيه على يد رعاياهم، ذلك لأن الرعاع لا يعرفون الاعتدال ، ولا يعرفون حداً .. إن كل فرد من الغوغاء يثير من الألم أكثر مما يثيره خمسة من الطغاة ، ولهذا كان من الأفضل أن نعانى الألم من الطاغية ، أو من الحاكم المستبد ، بصفة عامة ، عن أن نعانى من عدد لاحصر له من الطغاة الغوغاء) .. (فكما أن الحمار يريد أن يتلقى الضربات ، كذلك يريد الشعب أن يكون محكوماً بوساطة القوة ، إن الله لم يعط الحكام ذَنَب ثعلب ، يستعمل فى رفع الغبار ، وإنما أعطاهم سيفاً ، لأن الرحمة ليس لها دور فى مملكة العالم التى هى خادمة لغضب الرب ضد الأشرار ، وتمهيد عادل لجهنم والموت الأبدى).

(اليد التى تحمل السيف وتذبح ليست يد الإنسان ، وإنما هى يد الله ، إن الله هو الذى يَشنُق ويعذب ويقطع الرأس) .

(أمراء هذا العالم آلهة ، والناس العاديون هم الشيطان ، وعن طريقهم يفعل الرب أحياناً ما يفعله فى أحيان أخرى مباشرة ، عن طريق الشيطان ، أو أن يجعل الثورة عقوبة لخطايا الناس .. إنى لأفضل ان احتمل اميراً يرتكب الخطأ على شعب يفعل الصواب) .

(ليس شىء أفضل من طاعة من هم رؤساؤنا وخدمتهم ، فالعصيان خطيئة أكثر من القتل والدسّ والسرقة وخيانة الأمانة ، وكل ما تشتمل عليه هذه الرذائل) .

لقد بالغ لوثر (المصلح الدينى) فى التنديد بالبابا ، وهو رئيسه الواجب الطاعة ، لأن البابا تجاوز الحد الدينى ، وانحاز للأمراء الذين ساندوه ضد البابا ، مما يشير إلى

أن لوثر كان يلعب دوره كله لصالح الأمراء ، بدليل قسوته الشديدة على الذين ثاروا ضد استبداد الأمراء .

● كان لاوون الإيسورى (٧١٧/ ٧٤٠) يقول : (إنى إمبراطور وقسيس) ، وادعى أنه (الوكيل الذى أمره الله أن يطعم قطيعه ، كما أطعم بطرس أمير الرسل قطيعه) .

ومن هنا تلتقى خيوط فسبازيان الذى قال على فراش موته : (إنى أصبح رباً فيما أظن) ، بخيوط دقلديانوس الذى انتسب إلى المشترى (چوبتر) ، ملك الآلهة ، بخيوط لويس الرابع عشر الذى ادعى أن (سلطة الملوك مستمدة من تفويض الخالق ، فالله مصدرها وليست الشعوب ، والملوك مسئولون أمام الله وحده عن كيفية استخدامها) ، بخيوط جيمس الأول ، ملك إنجلترا ، الذى قال : (إننا نحن الملوك نجلس على عرش الله على الأرض) . بخيوط قائد إحدى الثورات ، فى إحدى الدول النامية ، الذى قال - وهو لا يزال يدرج فى مهد الثورة - للشعب الذى يهتف له : (بالروح بالدم نفديك) : (أعطيتكم الشرف ، وأعطيتكم الكرامة ، وأعطيتكم الحرية) .

إن (الطغيان) أخطر الأمراض المُعْدِية ، ولا شافى له أو منه إلا بالسيف ، فإذا كان الطغيان دينياً ، أو لبس ثوب الدين ، فهو الطامة الكبرى ، لأنه يفرض التسليم ، دون مناقشة أوامره أو نواهيه ، إنه - وإن لم يقل أنا الله - يتجاوز إرادة الله ، لأنه يتجاهل رحمة الله وعدله ، وقبولَ التوبة ، إنه (سيد قراره) ، يستخدم السيف فيما يستخدم فيه السوط (عدلاً) ، ويستخدم العنف فيما يستخدم فيه العفو (عدلاً) ، ويلجأ إلى الإبادة فيما تكفى فيه النصيحة (عدلاً) .

● عُرِّفت (الكنيسة) بأنها مجتمع (العبّاد) المسيحيين ، من أجل ممارسة طقوسهم ، والنظر فيما يخص أمور دينهم ، ولكن بعد أن صارت إمبراطورية قسطنطين مسيحية ، تطلع رجال الدين إلى أن تدخل الإمبراطورية الكنيسة ، وأن تلبس مسوح رجال الدين .. لكن ما كان لهم أن يجرءوا على سلطان قسطنطين ، الذى يبدو أنه - كالأباطرة قبله - رغب فى أن يتخذ من المسيحية ركيزة سياسية ، يوحّد بها كيان الدولة، ويؤلف بين أجزائها المتباعدة ، أو المتنافرة ، ويستعين بجيش (الصليب) الذى يحارب لغاية أسمى ، فتسهل عليه التضحية بالنفس والمال .

وكان أن اتجهت الكنيسة - رغبة فى السيطرة الدينية ، أو فى تنفيذ توجيهات

قسطنطين - أن تحذو حذو الدولة فى أنظمتها ، وفى اتخاذ ألقاب تؤلف بين طابع الدين وطابع الدنيا .

كان فى الكنيسة الشرقية أربع أبروشيات ، هى الشرق ، وبنطس ، وآسيا ، وتراقيا .. وكانت الأبروشية تنقسم مطرانيات ، وكان رئيس المطارنة يعرف باسم رئيس الأساقفة .

وكان هناك تسليم عام بصدارة الكنائس الكبرى : كنيسة رومه ، وكنيسة أنطاكية ، وكنيسة الإسكندرية ، وكنيسة أورشليم .. ثم ضمت كنائس بنطس وتراقيا تحت رئاسة أسقف كنيسة القسطنطينية التى رفعت إلى مصاف كنيستى أنطاكية والإسكندرية .. وكان أسقف هذه المجموعة الكبيرة من الكنائس يسمى بطريركاً .

وحتى يتم استغلال قسطنطين تأييد شعب الكنيسة أفسح لشهوات وغرور القادرين على تحريك هذا الشعب ، أولئك الذين سلكهم فى تنظيم يشبه التنظيم المدنى ، من المطران إلى الشماس ، بل جعل لهم فى الوظائف المدنية نصيباً ، حتى فى قيادة الجيوش .. وكما يقول جيبون (جـ ١ ص ٤١٨/٤٢٤) : سرعان ما تطلّب غرور الأساقفة لأنفسهم واجبات التبجيل التى كان يؤديها قسطنطين للقديسين ، ومن ثم دب الصراع الخفى بين الاختصاصات المدنية والكنسية ، نشأ عنه ارتباك سير الأمور فى الحكومة الرومانية .

وفى الوقت الذى اقتضت فيه سياسة قسطنطين فصل الوظائف المدنية والعسكرية، قام فى الكنيسة والدولة نظام جديد ثابت لموظفين كنسيين كانوا دوماً موضع احترام ، كما كانوا أحياناً مصدر خطر .. ويمكن إدراج الاستعراض الهام لأوضاعهم وصفاتهم تحت الأقسام الآتية :

١ - الانتخاب الشعبى .
٢ - رسامة رجال الدين .
٣ - الممتلكات .
٤ - الاختصاص المدنى .
٥ - الجزاءات الروحية .
٦ - ممارسة الوعظ العام .
٧ - امتياز المجالس التشريعية .

وقد أعفى رجال الديانة الكاثوليكية جميعاً ، وربما كانوا أكثر عدداً من رجال الجيش ، من كل الخدمات العامة والخاصة ، ومن كل الأعمال البلدية ، ومن كل الضرائب والتبرعات الشخصية ، وتلك كانت عبئاً ثقيلاً على سائر المواطنين ، وعُدّ قيامهم بمهمتهم المقدسة وفاءً كاملاً بالتزاماتهم نحو الدولة .

وطالب كل أسقف بحقه المطلق الذى لا يمس فى امتثال الكاهن الذى رسمه امتثالاً كاملاً ودائماً له ، وشكل رجال الإكليروس فى كل كنيسة أسقفية مع الأبروشيات التابعة لها مجتمعاً منتظماً ثابتاً .

واحتفظت كاتدرائية القسطنطينية وقرطاجة بميزة خاصة ، هى تعيين خمسمائة موظف كنسى ، وتضاعفت رواتبهم نتيجة إقحام احتفالات المعبد اليهودى أو الوثنى على الكنيسة ، وأسهم ركب طويل من القسس والشمامسة ووكلائهم والسدنة وحملة المباخر والقراء والمنشدين والبوابين - كل بدرجته - فى أبهة العبادة الدينية وانسجامها ، وامتد لقب الكاهن وامتيازه إلى كثير من الإخوة الأتقياء الذين دعموا عرش الكنيسة فى إخلاص وحماسة .

ولما زادت النفقات الكنسية تبعاً لازدهار الكنيسة وانتعاشها ، ظلت القرابين التى يقدمها المؤمنون ، تعبداً وطواعية ، تعين رجال الدين على معاشهم ، وتزيد من ثرائهم .

وبعد ثمانى سنوات من مرسوم ميلان مَنَح قسطنطين رعاياه ترخيصاً شاملاً فى التوصية بكل ثرواتهم للكنيسة الكاثوليكية المقدسة ، وفرض على كل مدينة أن تقدم كمية ثابتة من الغلال لتموين صندوق صدقات الكنيسة .

وظفر الأساقفة وحدهم بميزة أنه لا يتولى محاكمتهم إلا نظراؤهم فقط ، حتى فى حالة اتهامهم بإحدى الكبائر .

يحكى جيبون (جـ ١ ص ٣٢٢/٣٢١) أن بولس السمسطى (سمسط تقع على الضفة الشرقية لأعلى الفرات) كان يشغل كرسى الأسقفية فى أنطاكية أيام حكم أوديناوس (أذينّة) وزينوبيا الشرق ، وله قِصّة ذات فائدة فى تصوير أحوال ذلك العصر وطبيعته ، وكان ثراء هذا الحبر دليلاً على جريمته ، لأنه لم يرث عن آبائه ، ولم يكسب

عن طريق العمل الشريف ، لكنه اعتبر خدمة الكنيسة تدرّ الربح الوفير ، فكثيراً ما ابتزّ التبرعات من الموسرين ، وحوّل لمصلحته الخاصة قدراً كبيراً من الدخل العام ، وغدت الديانة المسيحية - نتيجة غروره وبذخه - مقيتة فى أعين غير المسيحيين .. كانت قاعة مجلسه وعرشه ، وهالة الأبهة التى أحاط بها نفسه ، لا تليق إلا بحاكم مدنى .. وقد تكلف فى خطبه إلى شعب الكنيسة الأسلوب المجازى ، والإشارات المسرحية لسفسطائى افريقى ، على حين كانت الكاتدرائية تضج بأعلى صيحات الاستحسان لفصاحته الإلهية .

كان يبعثر أموال الكنيسة على القساوسة التابعين له ، والذين اقتدوا به فى إشباع شهواتهم ، واستقبل فى قصره الكنسى غادتين جميلتين ، لتكونا رفيقتين دائمتين فى أوقات فراغه .

كان الاتجار بالمناصب الدينية معروفاً فى هاتيك الأيام ، فقد اشترى رجال الإكليروس أحياناً ما كانوا يعتزمون بيعه ، حتى أن أسقفية قرطاجنة اشترتها سيدة تدعى (لوتشللا) لأحد خدمها المدعو ماجورينوس بثمن قدره يساوى ٢٤٠٠ جنيه .

وإذا أردنا إدانة بولس السمسطى وجب أن نثير الشبهات حول أساقفة الشرق مجتمعين ، إذ نشروا الفضائح فى رسائل دورية وجهت إلى كل كنائس الإمبراطورية .

ذكر جيبون (جـ ٢ ص ٤٧/٤٩) أن القديس چورج ولد فى إبيفانيا ، بإقليم قيليقيا ، فى حانوت أحد المنجدين ، وأطلق عليه لقب الكبادوكى (من إقليم كبادوكيا) ، واستطاع بمواهبه الطفيلية أن يحصل على عقد تزويد الجيش بلحم الخنزير ، وهو عمل يدرّ مالاً وفيراً ، واستعان بوسائل الغش والخداع على جمع مزيد من المال ، مما أوقعه تحت طائلة القانون ، لكنه بفضل ماله أمكنه الهروب من يد العدالة ، واعتنق الأريوسية ، وجمع مكتبة قيمة من كتب التاريخ والبلاغة والفلسفة واللاهوت ، واستطاع الوصول إلى كرسى الأسقفية الذى كان يشغله أثناسيوس .. كان مسلكه مسلك أحد الغزاة البرابرة ، فلوث كل لحظة من لحظات عهده بالقسوة والجشع ، وأصبح كاثوليك الإسكندرية ومصر تحت رحمة طاغية ، هيأته طبيعته وتعليمه لممارسة التعذيب والإرهاب .. وقد أدى احتكاره للملح والورق ونترات البوتاسيوم ودفن الموتى إلى إفقار تجار الإسكندرية .. واقترح ضريبة على كل منازل الإسكندرية ، بدعوى أن الملك الذى

أسس المدينة كان قد نقل إلى خلفه من البطالمة والقياصرة حق الملكية الدائمة للأرض.. وتعرضت المعابد الوثنية الغنية فى الإسكندرية للنهب والتخريب .. وكان يقول : (إلى متى سوف يسمح لهذه الأضرحة بالبقاء ؟) .

ولما جاء جوليان أودعه السجن هو وبطانته ، لكن جمهور الوثنيين هاجموا أبواب السجن ، وفتكوا به وبطانته ، وطافوا بالجثث على ظهر جمل شوارع المدينة .

وفى سنة ٤٩٤ كان البابا جيلاسيوس أول كاثوليكى يعترف بسان چورج ، فى مصاف (الشهداء الذين يعرفهم الله أكثر مما يعرفهم الناس) ، ولم يصدق هذا البابا ما سجل من جرائم (القديس) الذى أخذت شهرة قداسته وكراماته تشيع فى أوربا ، وبخاصة فى إنجلترا ، منذ الحروب الصليبية .. وباسمه تنتشر دور للتعليم وأعمال البر فى أنحاء مصر !!

● لم يخوّل قانون ثيودوسيوس (سنة ٤٣٨) ، ومن بعده القرار التنظيمى ، لسلّم الوظائف الكنسية - امتيازات خاصة فحسب ، بل مَنَحها أيضاً قدراً كبيراً من السلطان السياسى ، ولا سيما فى مجال حكومة المدينة ، إذ إن قائد حامية المدينة (التريبون) والأسقف أخذا يتقاسمان معظم ما كان لموظفى المدن من حقوق وواجبات .. وزاد فى سلطان الكنيسة ما لها من مكانة ، باعتبارها أكبر مالك للأراضى فى إيطاليا .. كان الأسقف هو الذى يهيمن على أبواب المدينة ، وبدأ يناط به تزويد أسوارها بالعدد الكافى من الجند ، ويكفل للمدينة توافر الماء والخدمات اللازمة لها .. واختصت الكنيسة - منذ زمن طويل - بالنظر فى شئون البر والإحسان ، والمستشفيات ، بل إنها اكتسبت - فى أمور القضاء والضرائب - مكانة مرموقة ، فى نظام الحكم الإمبراطورى .

ومما يشهد بزيادة قوة البابوية نمو رقعة ما تملكه الكنيسة من الأراضى الزراعية ، بما مكنها من ممارسة نفوذها الأدبى والمادى فى كل أرجاء إيطاليا ، وظلت هذه الممتلكات فى ازدياد ، بسبب وصايا الأغنياء والأشراف لها بالأموال والأراضى .

وتزودنا رسائل البابا جريجورى الكبير (التى كتبت عند نهاية القرن السادس) بما اشتهرت به رومه من الدقة والمهارة فى إدارة أوقافها .

كانت تعليمات جريجورى إلى قسيسى الأبروشيات - وهم موظفون كنسيون كانوا

يجمعون فى عملهم بين واجبات حكام الأقاليم والقضاة والموكلين بالصدقات - تدعو إلى الاهتمام بأدق تفاصيل تربية الماشية ، والتأجير ، وحيازة الرقيق ، وجميع ما يهم مالك الأرض .

وكانت الإيرادات الضخمة تستخدم فى وجوه شتى ، مثل افتداء الأسرى ، وتخفيف ضائقات المجاعة ، ومقاومة الآفات والأوبئة ، وصيانة المستشفيات والإنفاق على الأطباء والمرضى ، وإعانة الكنائس التى تتعرض لهجمات البرابرة .

كان جريجورى الحاكم المطلق فى كل ما يتصل بالعدالة ، وقد تسلح بمفاتيح النقض والإبرام التى اختص بها بطرس الرسول ، فى السماء وفى الأرض ، ولم يكن الإمبراطور إلا مجرد سيد بعيد الدار ، مجرد قائد ضعيف ، أو حاكم ظالم .

وقد تجاوزت أهداف جريجورى حدود إيطاليا ، فصار يعين المشرفين على ضِياع الكنيسة بإيطاليا وخارجها ، من رجال الدبلوماسية ورجال المخابرات ، واستعان بالسلطات الإمبراطورية فى فرض سلطانه على الكنائس النائية ، وعلى محاربة الكنائس التى تدين بمذاهب أخرى - ميلاد العصور الوسطى ص ٢٢١/٢٢٤ .

وجاء فى (الحضارة البيزنطية ص ١٢٤) : أنه (عندما أعاد دقلديانوس تنظيم الدولة حَذت الكنيسة حِذوه ، وأعيد تنظيم المراتب الكهنوتية ، لتوافق (الولايات الجديدة) .

(وكان إنشاء قسطنطين العاصمة الجديدة محدثاً انقلاباً فى النظام الكنسى لايقل عما أحدثه فى النظام الإدارى المدنى) .

ويلاحظ صاحب (الحضارة البيزنطية ص ٨١/٨٢) أن القانون الذى نشره جستنيان صار هو القانون الرومانى ، حتى تنقيحاته كانت فى روحها رومانية ، ذلك أن جستنيان كان يرى أن يتخذ (الإنسانية وسداد البديهة والمنفعة العامة) رائداً له وهادياً .

وقد تجلى أثر النصرانية فى القانون الجنائى ، بتقييد عام لعقوبة الإعدام ، وإحلال عقوبة تقطيع الأوصال محلها (!!) وفى القانون المدنى لم يعد يعترف إلا بالزيجات المسيحية ، وأنقصت أسباب الطلاق إلى أربعة : زنا الزوجة ، وعنّة الزوج ، ومحاولة أحد الزوجين قتل الآخر ، والإصابة بالبرص .

ومن الناحية النظرية لم يكن من حق المرأة أن تكون قسيساً ، ولا من الناحية العملية أن تقود جيشاً ، ومع ذلك لم يكن - من الناحية الدستورية - ما يحول دون تولى المرأة السلطة الأوتوقراطية ، إذ كان وجود أنثى رفيقة للإمبراطور ، لازماً لأغراض المراسم ومستلزماتها ، ولكن لم يكن من الضرورى أن تكون الإمبراطورة زوجة الإمبراطور ، وكان لابد لها أن تتوج تتويجاً خاصاً ، وتتلقى هتاف التصديق والموافقة .

كانت زوجة الإمبراطور تُرسَّم إمبراطورة ، وقد تتوج إلى جوارها بعض قريبات الإمبراطور ، أمّه أو بنته ، وكان التتويج يخول لها نصيباً من الولاية والسيادة ، وكانت تستطيع أن تعين وريث العرش ، كما كانت تقوم بدور الوصية على العرش ، وقد تنفرد بالسلطة ، كما فعلت (إيرينا) ، بعد أن خلعت ولدها ، وسملت عينيه ، ولم يلق تصرفها (الإجرامى) أية معارضة دستورية .. وفى سنة ١٠٤٢ توجت إمبراطوريتان ، هما (زويه) و (ثيودورا) ، وقد تولتا الحكم والسياسة معاً ، لكن عندما عَينت زويه للدولة إمبراطورًا تخلَّتا له عن السيادة .

● ومنذ اهتمت هيلانه ، أم قسطنطين ، بالبحث عن آثار السيد المسيح والسيدة مريم - عليهما السلام - والشعب المسيحى والحكومة الإمبراطورية مشغولان بأمر آثار القديسين وصورهم .. فثمة من ينكر عبادة الأوثان ، ممثلة فى التماثيل والصور وبقايا القديسين ، ومن يدعو إلى هذه العبادة ، ويعمل على انتشارها .. ولا شك فى أن البلبلة والاضطرب اللذين صحبا هذه (البدعة) - وهى فى جملتها وثنية - فتحت الطريق واسعة أمام تبادل الاتهامات بما يسمى (هرطقة) .

والهرطقة أو الإلحاد والزندقة ، مرض يصيب الذين لا تستوعب عقولهم ومداركهم الأصول الدينية المرتبطة بالغيبيات (الميتافيزيقا) ، أو غير المدركات الحسية ، مثل الألوهية ، والملائكة ، واليوم الآخر ، وحدوث الوحى ، والمعجزات والكرامات ، مع أنهم - وهم الطبيعيون (الفيزيقيون) - لا ينكرون المؤثرات الطبيعية غير المرئية ، مثل المغناطيس والكهرباء ، والأشعة فوق البنفسجية وتحت الحمراء ، وغيرها مما تشاهد آثاره جلية ، ومما أكده العلم الحديث ، مما يسمى الباراسيكولوجى ، ومما اعترف به من طب الأرواح وطب المجال المغناطيسى .. وقد يكون لتمسك (الأصوليين) بحرفية النص دور هام فى تطرف العقلانيين ، كما أن الغلو فى تحميل اللفظ معانى مجازية

أكثر مما يحتمل ما جرّأ العقلانيين على الخوض فى مجالات تذهب باللفظ الدينى إلى معانى مناقضة للدين .

ولا ريب فى أن الهراطقة يسبحون فى بحار الدين (مجدفين) بهمومهم الشخصية ، وبمذهبياتهم (المستوردة) ، وبطموحاتهم المادية ، أو (الإعلامية) .

وحين يحيص (الهرطوق) حَيْصة الحمُر ينكر النبوات ، أو يدعى النبوة لنفسه ، فى محاولة لجذب انتباه الآخرين ، أو للحصول على تأييدهم ، ثم بعد ذلك ، كما يقول الحرامى : (هَبْرة ثم أتوب) .

وقد يكون الباعث على الهرطقة صراع بين تفوق الهرطوق وتبلد رجال الدين ، و (العناد يورث الكفر) .

وقد يكون الباعث السلوك المنحرف لرجال الدين ، وبخاصة المغالاة فى جمع المال، وغواية النساء .

ويلخِّص هذا كله فى عرف الكنيسة بأنها (نبذ أى قانون يصدر عن المجالس العامة للكنيسة) .

وقد أدى التطرف أو العناد أو المراهقة الفكرية ببعض الغلاة إلى عبادة الشيطان ، لا لإحياء (المانوية) فى كون العالم تتنازعه قوة الخير (الله) ، وقوة الشر (الشيطان)، بل لأن الشيطان يمثل قوة التحدى لله ، إذ أمره الله بالسجود لآدم فأبى ، ترفعاً واستكباراً .. ولا ريب فى أن نزق الشباب و (ترفه) وبطالته مما نزا به ، وغررت به منازع (التجديد) ، كما هو الشأن فى الملابس والأغانى والمخدرات والخروج على القيم الاجتماعية .

وبهذا لا تكون الهرطقة ابنة الوجود المسيحى ، فثمة هرطقة وثنية ، وهرطقة يهودية ، وهرطقة إسلامية ، وبلغة (أولاد البلد) هرطقة الهرطقة .

لكن الهرطقة المسيحية كانت الأكثر انتشاراً وإثارة ، لأنها أدت إلى عنف مضاد ، تمثل فى قيام (محاكم التفتيش) ، التى وصلت إلى تفتيش ما تهجس به الصدور ، وما تتنفس به العقول ، وإلى توقيع أشنع العقوبات ، من صلب وقتل وحرق وخزق ، وتمزيق كثير من الأبرياء الذين أحاطت بهم الكلاب المسعورة ، والدسائس المتهورة ، والافتراءات الموتورة .

● قالوا : إن أول حركة زندقة مسيحية ظهرت أيام الكنيسة الأولى هى حركة مونتالوس ، التى كان القصد منها العودة إلى بساطة المسيحية ، وقد نشأت فى فريجيا ، حوالى سنة ١٥٦ ، على يد ليبى ، يسمى مونتالوس ، وسرعان ما انتشرت بآسيا الصغرى وروما وقرطاجة وبلاد الغال .

اتهمت حركة (التصحيح) بالزندقة ، لأن تيار الخروج إلى (البولسية) صار هو الأقوى .

وفى السنوات الأولى من حكم جستنيان (٥٢٧/٥٦٥) أعلن عن غيرته على (الأرثوذكسية) ، بوصفه تلميذاً وراعياً .. يقول جيبون (جـ ٢ ص ٣٥٦/٣٥٨) : كان يحاول المحافظة على وحدة العقيدة والعبادة ، وكانت زوجته ثيودورا قد استَمعَت إلى معلمين من اليعقوبيين.. وتضاعف عدد الذين يناصبون الكنيسة العداء ، سراً وعلانية ، وتمزقت العاصمة ، والقصر ، وفراش الزوجية ، بسبب الخلاف الدينى ، لكن هذا الخلاف بدا كأنه تحالف سرى خبيث ضد ديانة الشعب ووحدته وأمنه .

ولم يكن جستنيان ثابتاً ومستقراً على حال ، فى تحديد موقفه مما يدور بين الرعية .. كان فى شبابه يستاء لأقل انحراف عن الخط الكاثوليكى ، لكنه فى شيخوخته تجاوز حد الهرطقة المعتدلة ، وأساء إلى اليعاقبة والكاثوليك ، على السواء ، بإعلانه أن جسد المسيح كان غير قابل للفساد ، وأن رجولته لم تخضع مطلقاً لأية حاجات أو علل، من تلك التى ورثتها أجسادنا الفانية ، وقد أعلن هذا الرأى فى مراسيمه الأخيرة .

كان رجال الدين قد رفضوا آراءه ، واستعد الملك لممارسة الاضطهاد ، وأصر الشعب على المقاومة ، وتوجّه أسقف من (تريف Treves) بخطاب إلى عاهل الشرق ، قال فيه :

(أيها الإمبراطور الجليل جستنيان ، تذكر معموديتك وعقيدتك ، ولا تلوث شيخوختك بالهرطقة ، أرجع آباء الكنيسة من منفاهم ، وأنقذ أتباعك من الهلاك ، إنك لا يمكن أن تجهل أن إيطاليا وبلاد الغال وأسبانيا وأفريقيا قد أصبحت ترثى لسقطتك، وتلعن اسمك ، فإذا لم تكذب ما ناديت به دون إبطاء ، وإذا لم تقل بصوت عال : « لقد أخطأت ، فأذنبت ، اللعنة على نسطور ويوتيكيس » ، فإنك تلقى بروحك إلى ألسنة النار التى سوف يحترقان فيها إلى الأبد) .. غير أنه مات لا يأبه بشىء .

● وكانت عبادة الصور أو إنكارها من دواعى الاتهام بالهرطقة .

يقول جيبون (جـ ٢ ص ٢٨٣/٢٨٥) : حافظ ليو الرابع ، أو لاوون (٧٧٥/٧٨٠) على ديانة أبيه وجده ، بصورة أقل صرامة ، غير أن زوجته (إيرين) الجميلة كانت تشربت حماسة الأثينيين ، ورثة الوثنية ، أكثر من تشربها فلسفة أجدادهم ، وعملت على حماية وتشجيع بعض المقربين إليها من الرهبان الذين أخرجتهم من كهوفهم وصوامعهم ، وأجلستهم على العروش الأسقفية فى الشرق ، وما إن حكمت باسمها وباسم ابنها حتى تولت القضاء على أعداء التماثيل الدينية بصورة أكثر جدية .

وعندما عاد الرهبان إلى مراكز القوة، عرضت آلاف الصور والتماثيل أمام الناس ، لتكون موضع التقديس والتبجيل ، وابتدعت آلاف القصص عن الآلام والمعجزات .

ولما وضعت أمين سرها (ثاراسيوس) بطريركاً للقسطنطينية ، دانت لها الكنيسة الشرقية ، غير أن قرارات مجمع عام لا تلغيه إلا قرارات مجمع مماثل .

وتم اختيار(نيقيه) لتكون مقر اجتماع مجلس كنسى أرثوذكسى ثان ، وأصبح ضمير الأساقفة فى يد الحاكم ، وجاء أعداء التماثيل والصور ، لا كقضاة ، بل كمجرمين أو تائبين ، وصاغ القرارات الرئيس ثاراسيوس ، وقوبلت القرارات بأصوات الاستحسان من ثلاثمئة وخمسين أسقفاً ، وحظيت بتوقيعاتهم ، وكان أن أعلنوا بالإجماع أن عبادة التمثيل والصور الدينية تتفق مع الكتاب المقدس .

وما تزال قوانين هذا المجلس النيقى الثانى موجودة كأثر عجيب للخرافة والجهل ، وللزيف والحماقة ، حتى قيل : (من الأفضل لك أن ترتاد كل ماخور فى المدينة ، وتزور كل عاهر ، على أن تتخلى عن عبادة المسيح وأمه فى صورهما المقدسة) .

وفى الغرب قبل البابا هادريان الأول قرارات مجمع نيقيه ، وأعلنها .

وألّف باسم شارلمان كتابٌ شديد اللهجة عن هذا النزاع ، وعقد تحت سلطته فى فرانكفورت مجلس كنسى من ثلاثمائة أسقف ، وجهوا اللوم إلى حدة محطمى الصور وعنفهم، غير أنهم وجهوا لوماً أشد إلى خرافة اليونان ، وإلى قرارات مجلسهم المزعوم.

لكن كل محاولة - شرقاً وغرباً - للوقوف فى وجه عبادة التماثيل والصور ، ما لبثت أن تلاشت ، مع أن حجة تحطيم الصور كانت الأقوى ، (إذا لم يمكن رسم ألوهية المسيح وتصويرها ، فإن من الوثنية عبادة صور له) .

● ولعل انتصار عبادة الصور إلى يومنا هذا ، وهو ردة دينية ، كان من أسباب تعبد النصوص التوراتية ، مع أن أكثر المثقفين طعنوا فى صحة هذه النصوص ، لكن المساس بهذه النصوص صار مساساً بالقاعدة التى تقوم عليها الكنيسة ، وينقض التراث الذى صنعته البابوات والكرادلة والمجالس المسكونية المتعددة .

إن كثيراً من النصوص كانت تعارض تماماً ما يجدّ من العلوم والمعارف ، مثل التواريخ الواردة عن عمر الأرض ، وعن الأجداد الأوائل ، وعن نسبة عيسى إلى داود .

وأهم ما أثار ثائرة الكنيسة دوران الأرض حول الشمس ، مع أن هذه الفكرة - فى واقع الأمر - من اجتهاد الإغريق الذين كانوا على درجة عالية من الكفاءة والمقدرة فى علم الفلك - كما يقول رسل (الدين والعلم ص ١٤/١٥) - فقد نادت بها مدرسة فيثاغورس ، التى نسبتها - دون أى سند تاريخى - إلى فيثاغورس ، مع أن فيثاغورس استمدها من (بيت الحياة) المصرى .

ويمضى رسل قائلاً : إن أول عالم فلك قال بدوران الأرض هو أريستاركوس ، من ساموس ، الذى عاش فى القرن الثالث قبل الميلاد ، وكان رجلاً نابهاً من عدة نواح ، فقد قام باستحداث طريقة سليمة - من الناحية النظرية - لاكتشاف المسافات النسبية التى تفصل بين الشمس والأقمار ، رغم أنه وصل إلى نتائج خاطئة للغاية ، بسبب ما ارتكبه من أخطاء فى الملاحظة ، وقد اتهم هذا الرجل - مثل جاليليو - بالكفر ، وأدانه الرواقى كليثينس ، لكنه كان يعيش فى عصر ليس للمتعصبين فيه أى نفوذ يذكر على الحكومات ، ومن ثم فإن اتهامه بالكفر فيما يبدو لم يلحق به أى أذى .

وفى نحو عام ١٣٠م قام بطليموس بنبذ فكرة أريستاركوس ، وأعاد الأرض إلى وضعها المميز فى وسَط الكون ، وظل رأيه سائداً ، لا يقبل الشك طوال فترة العصور الوسطى .

وعن طريق الاستنباط من نصوص الكتاب المقدس ، وصلت محاكم التفتيش إلى حقيقتين هامتين :

١ - من السخف والعبث والزيف فى مجال اللاهوت ، بل من الهرطقة ، القول إن الشمس هى المركز وإنها لا تدور حول الأرض ، لأن هذا يتعارض تماماً مع نصوص الكتاب المقدس .

٢ - القول بأن الأرض ليست المركز ، ولكنها تدور حول الشمس ، افتراض ينطوى على العبث والزيف ، كما أنه من الناحية اللاهوتية - على أقل تقدير - يتعارض مع الإيمان الحقيقى .

ولهذا ، قام البابا باستدعاء جاليليو للمثول أمام محكمة التفتيش التى أمرته بنبذ أخطائه ، ففعل هذا فى ٢٦ فبراير ١٦١٦ ، وفى جدية ووقار قطع جاليليو على نفسه عهداً بالتخلى عن نظرية كوبرنيكس ، والامتناع عن تدريسها شفاهة أو كتابة ، ولم يكن قد مر على حرق (برونو) غير ستة عشر عاماً .

لقد أخذت (برونو) العزة بالعلم وبالإثم ، وأحيط به وبكتاباته النظرية ، فلم يستطع أن يتقدم أو يتأخر ، أو أرادته الأيام ليكون (شهيراً) ، فتم إحراقه .

وامتدت النيران التى أحرقت (برونو) إلى أنحاء مختلفة من الإمبراطورية ، فيما هو من التحدى ، أو السخط ، أو إعلان إفلاس النظام الكنسى ، وكثيراً ما يأخذ التحدى صوراً لم تكن فى حسبان ، حتى تحولت الهرطقة إلى وباء .

● فى دراسة للدكتور رمسيس عوض (مجلة القاهرة ، مايو ١٩٩٥) أنه فى الفترة بين عامى (١٢٠٨/١٢١٣) انتشرت الهرطقة البيجانسية (نسبة إلى مدينة البى الفرنسية) فى عدة مدن فرنسية ، مثل ناريون وبيزيه وتولوز وألبى .. وهى تنادى بوجود إلهين ، إله الخير وإله الشر ، مستندة فى ذلك إلى الآية ١٩ من الإصحاح الخامس من سفر إرميا ، التى تقول : (إنكم تركتمونى وعبدتم آلهة غريبة فى أرضكم).. والرأى عندها أن إله الشر هو خالق العالم المنظور ، فهو عالم شرير ، ومن المستحيل أن يتصور إنسان أنه من خلق إله خيّر ، استناداً إلى ما جاء فى إنجيل متى صح ١٨ (لا تقدر شجرة جيدة أن تصنع ثماراً ردية ، ولا شجرة ردية أن تصنع أثماراً جيدة) .. وتذهب البيجانسية إلى أن شريعة موسى من صنع إله شرير ، استناداً إلى قول بولس الرسول فى رسالته إلى أهل روميه صح ١٧ (لأنه لما كنا فى الجسد كانت أهواء الخطايا التى بالناموس تعمل فى أعضائنا لكى تثمر الموت) .. وهى ترفض المعمودية للأطفال بالماء ، لأنه لا جدوى من المعمودية ما لم يكن الإنسان مدركاً أهميتها .. وهى لا تؤمن ببعث الأجساد ، استناداً إلى قول بولس ، فى رسالته الأولى إلى أهل كورنثوس صح ١٥ : (فأقول أيها الإخوة : إن لحماً ودماً لا يقدران أن يرثا ملكوت الله ، ولا يرث

الفسادُ عدم الفساد) .. وهى تزعم أن الله الشرير خلق أول ما خلق أربعة كائنات ، اثنين من الذكور ، واثنتين من الإناث ، وكذلك أسداً وآكل النمل ونسراً وروحاً ، واستطاع إله الخير أن ينتزع من إله الشر الروح والنسر ، وصنع منهما الأشياء التى خلقها ، وبعد انقضاء فترة من الزمن استبد الغضب بإله الشر ، وأراد الانتقام من إله الخير عن طريق الخديعة ، فانخدع إله الخير بذكاء (لوسيفر) ومظهره الجميل ، وعينه أميراً وكاهناً وسيداً على شعبه ، وأعطى (لوسيفر) عهداً لشعبه إسرائيل ، ووعدهم بعالم يفيض بالعذوبة والمتعة والجمال ، ونجح فى تحريضهم ضد إله الخير الذى يدينون له بالولاء ، ولم يكتف بهذا ، بل حمل جانباً منهم وبعثرهم فى جميع أنحاء ممالكه ، ثم أرسل الذين هو أكثر نبلاً إلى الأرض القاصية ، الجحيم العميق .

ويعتقد البيجانسيون أن مريم المباركة ، أم المسيح ، لم تكن من كوكب الأرض ، كما أن المسيح الذى يتطلعون إلى الخلاص على يديه لم يكن له وجود مادى ، ويرجع مظهره المادى وانتماؤه إلى عالمنا أنه سكن جسد بولس الرسول ، بدليل قول بولس فى رسالته الثانية إلى أهل كورنثوس صح ١٣ : (إذ أنتم تطلبون برهان المسيح المتكلم فيّ) .

والله فى نظر هؤلاء الهراطقة له زوجتان : الأولى (كولام) ، والثانية (كوليبام) ، وأنه ينجب بنين وبنات ، كما يفعل البشر .

وهم يؤمنون بأن روح الميت تدخل جسداً آخر ، قد يكون جسد إنسان أو حيوان ، (التقمص) ، أما إذا كان مؤمناً بعقيدتهم فإن روحه تذهب إلى أرض أعدها الله للأرواح التى كتب لها الخلاص ، وهناك تنتظر حتى يحين وقت نشورها ، وتتمتع بكل مواريثها وممتلكاتها .

● وظهرت الهرطقة الكاثارية (التطهرية) فى إقليم لومباردى بإيطاليا ، فى العقدين الأول والثانى من القرن الثانى عشر .. وظل العالم الخارجى يجهل كثيراً عنها ، حتى توطدت أركانها فى شمال إيطاليا ، فى بدايات القرن الثالث عشر ، من سنة ١٢٠٠ إلى ١٢١٤ .

ويؤمن معظم الكاثاريين بأن الشيطان هو المسئول عن كل الانقسامات التى نراها فى الطبيعة ، وأنه خلق آدم من تراب ، وأودع فيه قبساً من النورانية الملائكية ، ولما تم

خلق حواء ضاجعها ، فأنجبت منه قابيل ، ولما عرف آدم ما حدث قام بمضاجعة حواء ، فأنجبت منه هابيل ، الذى قتله قابيل .

ويعتقد الكاثاريون أن الكلاب خلقت من دم الأخ القتيل ، وهذا يفسر طبيعتها المخلصة ، وولاءها للإنسان .

كذلك يعتقدون أن جميع مخلوقات المادة ، من تراب وهواء ، الحى منها وغير الحي، من صنع إبليس .. ولما أنجبت حواء بنات ضاجعتهن الشياطين ، وأنجبن منهم عمالقة ، وأخبرت الشياطين أبناءها أن إبليس خلق جميع الأشياء ، فاغتمّ إبليس لذلك ، وندم على أنه خلق الإنسان ، ولم ينقذ نوحاً من الفيضان إلا جهله بهذا السر ، ولهذا نرى إبليس يتلطف به ، ويطلب إليه الاحتماء بالفلك من الفيضان .

ويذهب الكاثاريون إلا أن إبليس هو الذى أوحى إلى إبراهيم وإسحق ويعقوب بأقوالهم ، وإلى أنه ظهر لموسى ، وتحدث إليه ، ومكنه من الإتيان بالمعجزات فى حضرة فرعون ، كما مكن بنى إسرائيل من عبور البحر الأحمر والعودة إلى الأرض المقدسة .

ويرى الكاثاريون أن روح الله هى التى أوحت إلى الأنبياء ببعض نبوءاتهم ، وأن روحاً شريرة هى التى أوحت إليهم ببعضها الآخر .. وهم يهاجمون داود ويُدينونه ، بسبب اقترافه الزنا والقتل ، ويذهبون إلى أن الشيطان وضع ليشع فى عربة ، ثم طار بها فى عنان السماء ، ويؤكدون أن الملاك الذى أرسله الله إلى زكريا ليس فى الواقع إلا ملاكاً بعث به الشيطان ، حتى يوحنا المعمدان نفسه لم يسلم من هجوم الكاثاريين عليه ، لأن الشك ساوره فى شخصية المسيح ، فقد جاء فى (لوقا صح ٧) : (فدعا يوحنا اثنين من تلاميذه ، وأرسل إلى يسوع قائلاً : أنت هو الآتى ، أو ننتظر آخر ؟) .

وهم يؤمنون بأن مريم ، أم المسيح ، ولدت من مشيئة امرأة ، ولم تولد من مشيئة رجل ، كما يؤمنون بأن المسيح ليس له جسد بشرى ، فهو لا يأكل أو يشرب ، ولا يأتى بما يأتيه البشر من أفعال ، رغم أنه يبدو أنه فاعل هذه الأشياء .

وهم ينكرون قيامة المسيح بالجسد وصعوده إلى السماء ، كما ينكرون بعث أجساد البشر .. ويؤكدون أنه لا تمكن المساواة بين الابن والأب ، استناداً إلى قول المسيح (يوحنا صح ١٤) : (لأن أبى أعظم منى) ..

ويضيف الكاثاريون أن الصليب شيء لا يصح تقديسه ، فهو علامة الوحش الذى نقرأ عنه فى سفر الرؤيا .. ويرون أن البابا سلفستر الأول (٣١٤/٣٣٥) هو عدو المسيح ، وابن الهلاك ، ويرون أن الخلاص وقف على طائفتهم ، وأن من المستحيل على غيرهم الحصول عليه ، ومن ثم يصبّون اللعنات على آباء الكنيسة ، وقسيسيها ، مثل امبروزو ، وجريجورى ، وأوغسطين ، وجيروم .. ويعتقدون أن اللعنة تحل على كل من يأكل اللحوم والبيض والجبن ، وكافة منتجات الحيوان .. وهم ينكرون أن المعمودية بالماء تفضى إلى حلول الروح القدس ، أو أن الخبز والماء يتحولان فى (سر التناول) إلى جسد المسيح ودمه .. ويرون أن من يقسم يستحق اللعنة ، وأن المعمودية تتم عن طريق وضع الأيدى على الأيدى ، وأن الشيطان يسكن الشمس ، وأن حواء تتجسد فى القمر ، وأن الشيطان وحواء يرتكبان الزنا مرة كل شهر ، كما يرتكب الرجل الزنا مع عاهر .

ويذكر بيتر سيرناى أنهم يؤمنون بأن العهد الجديد من صنع إله الخير ، والعهد القديم من صنع إله الشر ، باستثناء عدد محدود من الفقرات التى وجدت طريقها من العهد القديم إلى العهد الجديد .. وإله العهد القديم فى نظرهم كاذب قاتل ، أحرق شعب سدوم وعامورة ، وأغرق العالم بالفيضان ، كما أغرق فرعون والمصريين فى البحر الأحمر ، ولهذا تصيب اللعنة كل أبناء العهد القديم .

ويرون أن ثمة مسيحيِّين مسيحاً شريراً رآه الناس فى بيت لحم ، وصلبوه فى أورشليم ، وقد اتخذ من مريم المجدلية محظية ، وهى المرأة التى قال فيها الكتاب : إنها ضبطت فى ذات الفعل ، أما المسيح الآخر فخيّر لم يأكل ولم يشرب ، ولم يكن له جسد مادى ، بل كان مجرد روح اتخذت من شخص بولس جسداً لها .

● وقد مهد لظهور البيجانسية والكاثارية عدد من ضحايا محاكم التفتيش ، بحيث بدت الهرطقة لوناً من الاحتجاج والتحدى ، وإعلان التمرد على كل (مقدس) ، أو ما يوصف بالقداسة .

فى سنة ١٠٢٨ كان أريبرت رئيس أساقفة ميلانو فى جولة تفقدية لشعب كنيسته ، يصحبه عدد من الفرسان ، ونما إلى سمعه انتشار الهرطقة فى قلعة مونتيفورت ، فى أبروشية (أستى) الواقعة فى جنوب تورين ، وكان زعيم الهراطقة فى تلك القلعة اسمه جيرارد .

اعترف جيرارد بأنهم يؤمنون بالطهر والعفاف ، ويعاملون زوجاتهم معاملة الأمهات والأخوات ، وأنهم يمتنعون عن أكل اللحوم ، ولا يكفون عن الصلاة ليل نهار ، فضلاً عن أنهم يعيشون على المشاع ، ويقتسمون وسائل الحياة فيما بينهم ، ويؤمنون بالآب والابن والروح القدس .

(اشتم) رئيس الأساقفة رائحة الهرطقة فى مفهومه عن التثليث ، فطلب إليه أن يوضح بالتفصيل رأيه فى هذا الموضوع .. أجاب جيرارد : الذى أدعوه الآب هو الله الخالق الذى خلق كل الأشياء من البداية ، والذى تستمد منه كل الكائنات وجودها .. والذى أدعوه الابن هو روح الإنسان الذى يؤثره الله ويحبه .. والذى أسميه الروح القدس هو إدراك الحقائق المقدسة التى تحكم مسيرة جميع الأشياء ، كل على انفصال.

سأل أريبرت : يا صديقى ، ماذا تقول عن ربنا يسوع الذى ولدته مريم العذراء ، كلمة الرب .

أجابه جيرارد : الذى ندعوه يسوع المسيح هو روح الإنسان المولود بالجسد من مريم العذراء ، أى المولود من الكتاب المقدس ، أما الروح القدس فهو الإدراك النقى والخالص للكتاب المقدس .

سأل أريبرت : ما الهدف من الزواج دون إنجاب ؟

أجاب جيرارد : لو أن كل الجنس البشرى اتفق على عدم ممارسة فساد الجنس فإن البشرية سوف يتم إنجابها كالنحل بلا صلة رحم .

سأل أريبرت : هل تتم مغفرة الخطايا عن طريق البابا أو الأسقف أو القسيس ؟

أجاب جيرارد : ليس لدينا كاهن رومانى أعلى ، ولكن لنا كاهننا الخاص بنا الذى يقوم بزيارة إخوتنا المبعثرين فى كل أرجاء العالم ، وعندما يحضر الله فسوف يتولى غفران خطايانا .

نجح جيرارد فى الإفلات من شباك رئيس الأساقفة ، لكن عِلية القوم أصروا على القضاء على هذه الجماعة ، غير عابئين باعتراض رئيس الأساقفة .

يلاحظ فى هذه الحالة أن الأهداف الخاصة هى التى تتحكم ، لإخفاء بعض المثالب ، أو لإعلان الغيرة على الدين الذى يفتقدونه ، أو لكسب تأييد الكنيسة فيما هو من شئونهم الخاصة .

ومعلوم بوجه عام - منذ نوح إلى محمد ، عليهما الصلاة والسلام - أن المجتمع تحكمه (الرَّتابة) ، وما اعتاد القوم من تقاليد وعادات .. إنه يرى فى كل جديد حرباً على الكيان (المألوف) ، وهذا الكيان المألوف ارتبطت به مصالح (رجال الأعمال) والطبقة المستفيدة ، سياسياً وعسكرياً وأمنياً ، فأى جديد يهدد مكتسباتهم ، وكلما أغرق العامة فى الجهل زادت مكتسبات الخاصة ، من هنا كان اتهام كل جديد بالعدوان على كل (قائم) ، وسرعان ما يجرى تكفير الجديد ، والتنديد به ، والعمل على القضاء عليه ، قبل أن ينبت له ريش ، وقبل أن تصير له مخالب .

وكان أن أقيم نعش ضخم أضرمت فيه النيران ، وأقاموا إلى جواره صليباً عليه صورة السيد المسيح ، وخيروا جماعة مونتيفورت بين الموت حرقاً أو التوبة والاعتراف بالصليب .

خاف بعضهم فأعلن التوبة ، لكن الأغلبية لم يعرفوا عما يتوبون ، ودفعهم اليأس والحيرة إلى إلقاء أنفسهم فى النيران .

إن الشعور بالاضطهاد دون جريرة يفقد الإنسان قيمة الحياة ، ومن ثم يكون العنف السلبى بالانتحار ، أو العنف الإيجابى بالانتقام الذى هو انتحار أيضاً ، (من قبل أن تقتلنى سأقتلك) ، ولا مفر من أن يقتلنى الآخرون ، ممن لا أشكّل لهم غير علامة استفهام ، أو ممن لا يختلف مصيرهم عن مصيرى .

● فى سنة ١٠٧٦ نما إلى علم أسقف كامبراى بفرنسا - أثناء مروره بقرية (لامبر) التابعة له - أن رجلاً اسمه راميردوس يبشر بتعاليم مخالفة للدين المسيحى ، ويجمع حوله عدداً كبيراً من المريدين والمريدات ، فأمر بإحضاره للتحقيق معه فى كامبراى .. لكن التحقيق أثبت براءته أمام جميع رجال الإكليروس الحاضرين ، وأن عقيدته لا يرقى إليها الشك .

طلب الأسقف من راميردوس أن يشترك معهم فى **التناول** ، لكنه رفض التناول على يدى أى من رجال الإكليروس ، لتورطهم جميعاً فى بيع وشراء الوظائف الكهنوتية ، فضلاً عن اهتمامهم بالحياة المادية .

تغير موقف رجال الكنيسة ، وأدانوه ، فاقتاده أتباع الأسقف ، وأشعلوا فيه النار بمشاعلهم حتى احترق .

وفى نحو سنة ١١١٤ كان الكونت كليمنت وأخوه إيفرار فى ضيعة سواسون التابعة لمنطقة بوفيه بفرنسا - يتزعمان طائفة ترى أن ما قام به المسيح ليس إلا وهماً ، وأنه من الخطأ تعميد الأطفال غير الناضجين ، ومن ثم استخدموا طُرقاً للتعميد خاصة بهم، وكانوا يرفضون الزواج ، ولا يتناولون طعاماً ناتجاً من ذكر وأنثى ، ومع هذا كانوا يمارسون شعائر موغلة فى الفسق والدعارة ، ففى اجتماعاتهم السرية كانت تطفأ الأنوار ، ثم تضاجع كل امرأة أقرب رجل منها ، فإذا أدت هذه المضاجعة إلى إنجاب طفل ، يأتون به إلى المكان نفسه ، حيث يوقدون ناراً يتحلقون حولها ، ثم يتقاذفون الطفل فوق ألسنة اللهب ، حتى يموت ، وبعد موته يحرقونه ، ويصنَعون من رماده أرغفة خبز ، يتناولونها دليلاً على الولاء الكامل للجماعة .. وبعد محاكمة عاجلة أودع أفراد الجماعة السجن ، فى انتظار رأى أساقفة (بوفيه) فيهم ، لكن الشعب هاجم السجن ، وجرّ المهرطقين إلى خارج المدينة ، وأحرقهم .

ومن أبرز مهرطقى القرن الثانى عشر من يدعى (هنرى) ، من مدينة (لى مان) الفرنسية ، وتتلخص هرطقته فى :

١ - رفضه الخطيئة الأولى ، إذ يرى من الظلم أن يرث الأبناء ذنوب الآباء .

٢ - إنكاره جدوى التناول ، بسبب فساد الإكليروس الذين يمارسونه .

٣ - يرى أن الموافقة وحدها هى شرط الزواج ، ومن ثم ينكر جدوى طقوس الكنيسة لإتمامه .

٤ - ينكر اعتراف المسيحى الخاطئ أمام القسيس ، أو توبته أمامه .

٥ - ينكر أن للصيام والصلوات والأعمال الصالحة والابتهال للقديسين أى جدوى فى الشفاعة للموتى ، لأن مصير الموتى وحكم الله عليهم يتحدد بمجرد موتهم .

٦ - يرى أنه لا ينبغى بناء الكنائس من الخشب والحِجارة .

٧ - نادى - وهو الأهم - بتجريد رجال الدين من ممتلكاتهم .

وكانت واحدة من هذه (الإدانات) السبع كافية للذهاب به (وراء الشمس) ، أو يحترق فى أتونها .

سرفتيوس ، أسبانى ، تربى فى فرنسا ، ودرس الطب والفلك والإغريقية والعبرية.. قاده سوء طالعه أن يدرس اللاهوت ، فاهتدى فى أبحاثه الطبية إلى معرفة

الدورة الدموية ، وذهب بأبحاثه الدينية إلى أن عقيدة التثليث عند المسيحيين خطأ لا أصل لها ، فأرسل إلى (كلفن) فى جنيف يرجوه أن يأذن له بلقاء يناقش معه هذا الأمر .

ولما عُرف أمره وهو فى (ليون) بفرنسا ، أودعته محاكم التفتيش السجن ، فهرب إلى جنيف ، ولم يكن يدرى أنه يستجير من الرمضاء بالنار ، فقبض عليه ، وجرت محاكمته ٧٢ يوماً ، طمعاً فى إشراكه آخرين ، ثم قضى بحرقه .

● كان القانون الرومانى الأساس الذى اتبعته الكنيسة الكاثوليكية ، ولم يكن هذا القانون يتضمن أى نص بشأن معاقبة المهرطقين ، بل كان فى نصوصه ينحو منحى التسامح الدينى .. وفى عام ١٠٠٢ تقريباً ، حاول ريتشارد أف ورمز جمع كافة القوانين الكنسية ، فتبين خلوها من أى نص خاص بأسلوب التعامل مع الهرطقة .. ومن ثم لم تكن لدى الكنيسة سياسة ثابتة أو واضحة تجاه الهرطقة ، حتى عام ١١٤٠ تقريباً ، ولهذا كانت تعامل - فى تخبطها - كل حالة وفق المؤثرات الشخصية والعامة .. وكان أن استعانت بالسلطة الزمنية ، لإشراكها فى مغَبّة ما يحدث ، بسبب تكاثر المهرطقين ، وأحياناً كانت تترك للسلطة الزمنية القيام بتنفيذ الحرق ، لتظل صورتها أقرب إلى البراءة ، مع أنها بالغت فى تعقب المهرطقين ، وأخذت تنقّب وتأخذ بالشبهة وبالبلاغات الكاذبة ، وبخاصة أن المهرطقين سلكوا مسلك التقية ، وصاروا يبطنون غير ما يظهرون .. ولا شك فى أن تتبع ما يبطنون أدى إلى تجاوزات بالغة التطرف ، وإلى سلوكيات تنتهك (قدس الأقداس) .. وكان لابد من تدارك هذا الانهيار .

يقول سفنرولا (١٤٩٢/١٥٣٤) فى خطاب وجهه إلى ملوك فرنسا وأسبانيا والمجر وألمانيا ، يدعو إلى عقد مؤتمر عام لإصلاح الكنيسة .

(إن الكنيسة غاصّة بكل ما هو ممقوت ومرذول ، من قمة رأسها إلى أخمص قدميها ، ومع ذلك فإنكم لا تكتفون بالسكوت عن إصلاح مساوئها ، بل إنكم تقدمون الولاء والخشوع للمتسببين فى هذه الرذائل التى تدنسها ، وقد غضب الله من هذا أشد الغضب ، وترك الكنيسة زمناً طويلاً بغير راع .

إن الإسكندر هذا ليس باباً ، ولا يمكن أن يكون باباً ، لأنه يغض الطرف عن الخطيئة المهلكة ، خطيئة الاتجار بالمقدسات والمناصب الكهنوتية التى ابتاع بها كرسى

البابوية ، وهو فى كل يوم يبيع المناصب الكنسية لصاحب أكبر عطاء ، وإذا غضضنا النظر عن آثامه الأخرى البادية للعيان ، فإنى أعلن على رءوس الأشهاد أنه ليس مسيحياً ، ولا يؤمن بالله) - قصة الحضارة جـ ١٨ ص ٢٨٥ .

كان سفنرولا من البلاغة والجرأة بحيث يوقظ الموتى ، لكن الملوك كانوا فى شغل بأنفسهم وبمطامعهم السياسية ، عما يجرى بالكنيسة ، بل إن فساد الكنيسة كان عوناً على التخلص من أعبائها ، وعلى زيادة طموحاتهم .

● ولما قضى الله أمره فى (الإسكندر) ، وتنفس القوم الصعداء ، وتعلقت الآمال بخلَفه البابا بولس الثالث ، قدم له الفقيه الشهير جيوفان باتستا بحثاً فى إصلاح الكنيسة ، قال فى ديباجته : (أرى أن الكنيسة ، أمنا المقدسة ، قد اعتراها من التغير الكبير ما تبدو معه وقد تجردت من سمات طابعها التبشيرى ، وليس فيها أثر للتواضع وضبط النفس والتعفف والقوة الرسولية) .. فأظهر البابا ميله بقبول إهداء الكتاب إليه

وفى ٢٠ نوفمبر ١٥٣٤ عهد إلى الكرادلة : بيكولومينى ، وسانسفير بيو ، وتشيزى ، أن يضعوا برنامج تجديد خلقى للكنيسة .

وفى ١٥ يناير ١٥٣٥ أمر بتنفيذ مراسيم الإصلاح التى أصدرها ليو العاشر سنة ١٥١٣ ، تنفيذاً دقيقاً ، وشجع على الإصلاح الجِذرى ، وبَعْد أن وقع فى شراك السياسة البابوية والإمبراطورية ، وأحدق به خطر زحف العثمانيين ، كره وسط هذه الأزمات أن يهتز بنيان الإدارة البابوية ، فكان الرجال الذين رفعهم إلى مرتبة الكاردينالية معروفين كلهم تقريباً بالنزاهة والتقوى .

وفى يوليه ١٥٣٦ قرر البابا عقد مؤتمر إصلاحى فى رومه ، دعا إليه كونتارينى ، وكارفا ، وسادولينى ، وكور تيرى ، وألياندر ، وبولى ، وتومازو باديا ، وفيديريجو فريجوزى أسقف جوبير ، وكلهم رجال ملتزمون بالإصلاح .. وأمرهم أن يكتبوا تقريرا عن الرذائل الفاشية فى الكنيسة ، والوسائل التى يشيرون بها للتخفيف منها .. وافتتح سادولينى المؤتمر بأن قرر فى جراة أن البابوات أنفسهم كانوا أهم أسباب تدهور الكنيسة بخطاياهم وجرائمهم وشرههم للمال .. وظل المؤتمر يجتمع يومياً على مدى ثلاثة شهور .

وفى مارس ١٥٣٧ قدمت اللجنة للبابا (نصيحة الكرادلة المعيَّنين لإصلاح الكنيسة) ، وقد فضحت هذه النصيحة - بحمية مذهلة - مفاسد الحكم البابوى ، وعَزَتها بشجاعة إلى (مغالاة الفقهاء الكنسيين ، عديمى الضمائر ، فى سلطة البابا ، مغالاة مستترة) .. ورأى التقرير (أن بعض البابوات ادعوا الحق فى بيع الوظائف الكنسية ، وقد أفشت هذه المتاجرةُ بالرتب الكهنوتية الرشوةَ والفساد فى الكنيسة ، على نطاق واسع ، بحيث أشرفت هذه المنظمة العظمى على الخراب ، بسبب انعدام الثقة فى نزاهتها) ، وحث التقرير على فرض رقابة صارمة على كل نشاط تقوم به الإدارة البابوية ، وعلى فرض رقابة على الإدارات الكنسية ، وعلى وقف دفع المال لنيل وظائفها، والتأكد من مراعاة شروط اختيار الكرادلة والقساوسة ، وحظر الجمع بين عدة وظائف كنسية ذات دخل ، أو الانتفاع بهذه الوظائف غيابياً .. وأضاف التقرير : (لقد هجر معظم الرعاة قطعانهم فى العالم كله ، ووكلوها إلى الأجَراء) .. أما الطرق الديرية فيجب تجديدها ، وأما أديار الراهبات فيجب إخضاعها للرقابة الأسقفية ، لأن زيارة الرهبان لها أفضت إلى الفضائح ، وتدنيس المقدسات ، وأما صكوك الغفران فيجب الإعلان عنها مرة واحدة فى العام .

تقبل البابا بولس - بروح طيبة - هذه (النصيحة الذهبية) ، كما سماها كثيرون ، وأرسل صورة منها لكل كردينال ، أما (لوثر) فقد ترجمها إلى الألمانية ، ونشرها تبريراً لمخاصمته رومه ، على أنه حكم على كاتبى الوثيقة بأنهم (كذّابون ، أوغاد ، بائسون ، يصلحون الكنيسة بالتملق) .

وفى ٢٠ أبريل ١٥٣٧ دعا البابا ثمانية من رؤساء الأساقفة والأساقفة المقيمين فى رومه ، وأمرهم بالعودة إلى كراسيهم ، وهنا ارتفعت مئات الاعتراضات ، وحذّر (مورونى) البابا من أن العجلة فى تنفيذ هذا الأمر قد يحمل بعض الأساقفة على الانضمام إلى اللوثريين ، إذ يعودون إلى مناطق غلب عليها المذهب البروتستانتى .

وسرعان ما شغلت السياسةُ الإمبراطورية البابا عن المضيّ فى الإصلاح .

● وجاء يوليوس الثالث (١٥٥٠/١٥٥٥) ليستمتع بالبابوية ، فى إسراف (لطيف)، وكأن حركة الإصلاح قد ماتت بموت لوثر ، فخرج للصيد ، واحتفظ بِنُدماء البلاط ، وقامر بمبالغ طائلة ، ورعى مصارعة الثيران ، ورقّى لمنصب الكاردينالية تابعاً له يعنى

بنسناسه ، وأعطى رومه آخر رشفة من وثنية النهضة ، سواء فى الأخلاق ، أو الفنون ، ثم أراح الله منه .

وخلفه كارفا سنة ١٥٥٥ ، باسم بولس الرابع ، فأصدر أمره إلى الرهبان الغائبين عن أديارهم - دون موافقة رسمية - بالعودة إليها فوراً ، وكانت خطوة توحى بأن وراء الأكمة ما وراءها ، وأن القوم مقبلون عل ما لا عهد لهم به .

وفى ليلة ٢٢ أغسطس ١٥٥٨ أمر البابا بإغلاق أبواب رومه ، والقبض على جميع الرهبان الآبقين ، واتبعت إجراءات مماثلة فى جميع الولايات البابوية ، وطلب إلى الأساقفة ورؤساء الأديرة العودة إلى وظائفهم ، وإلا حرموا من دخلهم ، وحظر الانتفاع بالدخول الكنسية المتعددة ، وأمرت كل أقسام الإدارة البابوية بخفض رواتبها ، وإبعاد كل شبهة اتجار فى التعيين للوظائف الكهنوتية ، وصدرت عدة مراسيم ضد المرابين ، والممثلين ، والبغايا ، وتقرر إعدام القوادين ، وأخذت رومه مظهراً من التقوى والفضيلة لا يلائم طبيعتها ، كما يقول ديورانت (جـ ٢٧ ص ١٩٩) .

وانطلقت المؤسسة بكل طاقتها إلى العمل ، (واكتسبت محكمة التفتيش - بفضل صرامة البابا الخارقة - سمعة واسعة ، حيث لم يكن هناك كرسى قضاء آخر فى الأرض يتوقع الناس منه إصدار أحكام أشد بشاعة وإرهاباً) ، على حد قول الكردينال سيريباندو ، وتوسع اختصاص محكمة التفتيش حتى شمل التجديف والمتاجرة بالرتب الكهنوتية (السيمونية) ، واللواط ، والزواج المتعدد ، وهتك العرض ، والقوادة ، وانتهاك نظم الكنيسة فى الصوم ، وغيرها من الذنوب التى لا تمت إلى الهرطقة بسبب .

وكان أن احتفلت رومه بموته أربعة أيام من الشغب المرح ، حطمت خلالها الجماهير تمثاله ، وجرته فى الشوارع ، ثم أغرقته فى نهر التيبر ، وأحرقت مبانى محكمة التفتيش ، وأطلقت سجناءها ، وأتلفت وثائقها .

● جلس سكستوس الخامس (١٥٨٥/١٥٩٠) على عرش البابوية ، فكان من خير البابوات وأجلهم قدراً ، حصل على الدكتوراه فى اللاهوت بدراسته فى بولونيا وفيرارا ، ثم ارتقى سريعاً بفضل بلاغة عظاته ، وكفاية إدارته .

واختير لكرسى البابوية ، وهو فى الرابعة والستين ، لشخصيته الصلبة التى تتطلبها سلامة الولايات البابوية ، وقدرتها المالية .

بيد أن أقاربه تزاحموا من حوله ، يمدّون إليه ومن خلفه أكفهم ، فلم يقو على ردهم .. وهكذا عادت محاباة الأقارب ترفع عقيرتها ، لكنه - فى غير ما يتصل بأسرته - كان صلباً لا يلين .

ضرب على أيدى قطاع الطرق ، وحظر حمل الأسلحة ، وأمر النبلاء بطرد من يلوذ بهم من الفُتّاك ، ووعد كل قاطع طريق يسلم نفسه ، أو يسلم غيره حياً أو ميتاً ، بالعفو عنه ومكافأته ، وتتولى أسرة اللص الأسير ، أو موطنه ، دفع المكافأة ، فإذا أعلن اللص تحديه أمر أفراد أسرته أن يسلموه أو يلقوا الموت .

وكان موته سنة ١٥٩٠ آخر انتصاراته - كما يقول ديورانت جـ ٢ ص ٢٩ - فلم يحزن عليه أحد من الكرادلة ، أو الأشراف ، أو الشعب .

وجاهد إنوسنت العاشر (١٦٤٤/١٦٥٥) النقيّ الحياة ، المستقيم المبدأ ، ليخفف من ثقل الضرائب ، ويكبح استغلال النبلاء الجشعين للإيرادات البابوية ، لكنه سمح لغيره أن يحكموا نيابة عنه ، وترك (أوليمبيا) زوجة أخيه الجشعة الطموح تؤثر فى قراراته ، فكان الكرادلة والسفراء يتقربون منها ، ويعلنون ولاءهم لها ، حتى أثْرت ثراءً فاحشاً .

ولما مات إنوسنت زعمت أنها أفقر من أن تنفق على مأتمه .

وفى رأى ماكولى أن البابا بندكت الرابع عشر (١٧٤٠/١٧٥٨) كان (أفضل وأحكم خلفاء بطرس المائتين والخمسين) ، فقد وجد مالية البابوية تشكو الفوضى ، نِصْف الإيرادات يضيع فى الانتقالات ، وثلث سكان رومه كنسيون ، يفوق عددهم كثيراً ما تحتاج إليه شئون الكنيسة ، ويكلفونها من النفقة ما لا تطيق ، فأنقص بندكت موظفيه الشخصيين ، وطرد أكثر جنود الجيش البابوى ، وأنهى محسوبية الأقارب ، وخفض الضرائب ، وأدخل الإصلاحات الزراعية ، وشجع المشروعات الصناعية .. ولم يمر وقت حتى أثمرت أمانته واقتصاده وكفاءته فائضاً للخزانة البابوية .. أما سياسته الخارجية فقامت على تنازلات ودية للملوك المشاغبين ، بأن وقع مع سردينيا والبرتغال ونابلى

وأسبانيا اتفاقات سمحت لحكامها الكاثوليك بالترشيح لكراسى الأسقفية ، وجاهد ليهدئ الضجّة العقائدية فى فرنسا ، بالتراخى فى تنفيذ الأمر البابوى الصادر ضد الجانسنيين ، (ما دام الإلحاد يزداد كل يوم ، فعلينا أن نسأل إن كان الناس يؤمنون بالله ، لا إن كانوا يقبلون الأمر البابوى) .

وكان يثبط التحريم المتعجل للكتب ، فلما أشار عليه بعض مساعديه بشجب كتاب لامترى (الإنسان الآلة) ، أجاب : (ليس من واجبكم أن تكفوا عن إبلاغى بوقاحات الحمقى ؟) ، ثم أضاف : (اعلموا أن للبابا يداً مطلقة ليمنح البركات فقط) .

وكانت العبارة الأخيرة دليلاً على قلة الحيلة أكثر منها دلالة على التقوى والورع .

● هذه صفحة تتناول بإيجاز شديد مائتى عام من تاريخ البابوية ، وهى فترة النهضة الأوربية ، وعصر الإيمان ، والحركة العقلية النشطة .. ومع هذا ، فقد كان (الإصلاح البابوى) مدعاة إلى الخروج على هذه المؤسسة ، وإلى الوصول بالمجتمع الأوربى إلى ما يسمى (عصر العقل) ، أو التنوير ، أو الإلحاد .

لقد كانت البابوية بقدراتها الكبيرة ، ونشاطاتها المتعددة ، تعيش حياة الديناصورات فى مرحلة الانقراض ، ذلك لأنها كانت تحمل فى طياتها عوامل الخلاص منها ، لأنها تخلّت عن المبادئ التى نشأت من أجلها ، وجعلت تتنفس هواءً فاسداً ، عملت على بثه.

ولما كنت قد أفردت لهذا (التحول) أكثر من مائتى صفحة فى كتابى (مسيحية بلا مسيح) ، فإنى أكتفى بهذه الإشارة .

● ● ●

الله فى الفلسفة المسيحية

الغنوصية ، أو المعرفية ، فلسفة وجدت من قبل الوجود المسيحى ، بزمن طويل ، لها أتباع ، ولا يعرف لها مؤسس ، وإن كانت (الأوهام) ترجع بها إلى هرمس ، (إدريس النبى) ، لكن الأقرب إلى الصواب أنها ثمرة شرقية ، ترجع إلى الصابِئة ، أو المجوس .

خلاصتها - الله للعقاد ص ١٧٢/١٧١ - أن عالم الغيب ، أو العالم غير المرئى ، وجد فيه منذ الأزل (الأب السرمدى) ، ومعه الصمت المطلق ، والحقيقة الأبدية ، وأن (الأب السرمدى) أودع العقل فى الصمت ، فالعقل ولده ونده ، لأنه عقله ، ومن ثم كانت أصول القِدم أربعة ، كما يقول فيثاغورس ، وهى : الأب ، والصمت ، والحقيقة ، والعقل .

ويأخذ المعرفيون من المجوسية إيمانها بعنصرى النور والظلام ، ويزيدون عليها أن حجب الظلام تحول بين الإنسان وبين رؤية الله ، ويقولون : إنها سبعة الاف حجاب ، تمر بها الروح الإنسانية فى هطولها من العالم الأعلى إلى عالم الفساد .. وعملها - وهى فى ثوب الجسد - أن تشق هذه الحجب ، وترتفع إلى نور الله من جديد .

وهم يعتقدون أن (المعرفة) هى سبيل الخلاص والرجوع إلى الله ، لأن المعرفة تبدد حجب الظلام حجاباً بعد حجاب ، فلا يبقى فى النهاية غير النور المطلق ، وهو الله .

والمعرفيون لا ينكرون تعدد الأرباب ، دون الإله الأكبر ، وهو (الأب السرمدى) ، بل يؤمنون بوجود آلهة بمثابة أرواح نورانية ، أو أرواح ظلامية ، ويحسبون إله العهد القديم فى عداد هذه الأرواح - اهـ .

يكاد هذا الفهم الغنوصى يتردد فى كل ما جاءت به الفلسفة فى جميع عصورها ، مع اختلاف فى التعبير .

فإذا خرجنا إلى الإطار المسيحى ، وجدنا أفلوطين ينزع منزعاً غنوصياً بعباءة مسيحية .

● ولد أفلوطين فى ليتوبولس سنة ٢٠٣ أو ٢٠٧ ، قبطياً مصرياً ، ذا اسم يونانى ، وتربية يونانية .

أولع بالفلسفة ، وهو فى الثامنة والعشرين ، وأخذ ينتقل من معلم إلى آخر ، دون أن يشبع نهمه .

وصل إلى الإسكندرية التى كان فيها أمونيوس سكّاس ، المسيحى الذى ارتد إلى الوثنية ، فى محاولة للتوفيق بين المسيحية والأفلاطونية ، كما فعل تلميذه أوريجن من بعده .

وبعد أن تتلمذ على أمونيوس عشر سنين ، انضم إلى جيش موجه إلى بلاد الفرس، لعله يتلقى الحكمة عن المجوس والبراهمة ، فلما وصل إلى أرض الجزيرة قفل راجعاً إلى أنطاكية ، ثم ذهب إلى رومه ، سنة ٢٤٤ ، وبقى فيها حتى مات .

أعاد إلى الفلسفة سمتها الطيبة ، وهو يعيش عيشة القديسين ، بين ترف رومه ورذائلها ، ولم يسجل آراءه الفلسفية ، إلا متأخراً ، سجلها وهو كاره ، تحت إلحاح تلاميذه ، ولم يراجع ما كتب ، ولا تزال (الأنباذات) - رغم ما بذله برفيرى من عناية فى نشرها - أكثر المؤلفات اضطراباً فى تاريخ الفلسفة .

وقد رتب برفيرى الرسائل الأربع والخمسين الفلسفية فى تسع مجلدات ، زاعماً أن رقم ٩ هو الرقم الكامل فى نظرية فيثاغورس .

ومن أقوال أفلوطين : (الجسد عضو النفس وسجينها معاً ، والنفس تدرك أنها نوع من الحقيقة أرقى من الجسد ، وتشعر بما لها من صلة بنفس أكبر منها وأوسع ، أى بحياة وقدرة كونيتين ، من نوع ما ، وهى حين تعمل لتبلغ بالفكر إلى حد الكمال ، تأمل فى أن تتصل مرة أخرى بتلك الحقيقة الروحية العليا التى سقطت منها على ما يبدو ، أثناء كارثة أو محنة حدثت فى بداية الخلق) .

ويصف سقوط النفس درجة بعد درجة ، من السماء إلى الإنسان ذى الجسد ، بقوله : (إن الواحد خلق العقل ، وإن العقل خلق الروح ، وإن الروح خلقت ما دونها من الموجودات ، على الترتيب الذى ينحدر طوراً بعد طور إلى عالم الهيولى ، عالم المادة) .

ويرى أن النفس كلما كانت أكثر رقيًا كانت أكثر إصرارًا فى سعيها إلى أصلها القدسى .. ولعلها فى لحظة من اللحظات التى تخفُت فيها كل ضوضاء الحواس ، وتنقطع المادة عن طَرْق أبواب العقل، ستحسّ فجأة بأنها مستغرقة فى محيط الكينونة ، فى الحقيقة الروحية النهائية .

(فإذا حدث هذا ترى النفس الألوهية ، إلى الحد الذى يحق لها أن تصل رؤيتها ، وتشهد نفسها قد أضيئت ، أى ملئت بنور عقلى ، أو بعبارة أصح تدرك أنها ضياء خالص ، غير مُثقلة ، نشيطة ، خفيفة ، تسير فى طريقها إلى أن تكون إلهاً) .

هذا الإله الواحد الذى لا نكاد نعرف عنه إلا (أنه موجود فى كل صفة موجبة تصفه بها ، أو ضمير متحنّف تحلّه محله - تحديد له غير لا ئق به ، وكل ما نستطيع أن نسميه به هو أنه واحد ، وأوّل ، وخيّر ، وأنه هدف رغبتنا العليا) .

وما دامت النفس (الراقية) دائمة التطلع إلى (أصلها القدسى) ، فالفضيلة هى (حركة النفس نحو الله) ، ومن هنا لا يصبح الجمال مقصوراً على التناسق والتناسب - كما ظن أفلاطون وأرسطو - بل هو النفس الحية ، أو الألوهية غير المنظورة فى الأشياء ، وهى غلبة الروح على الجسد ، والصورة على المادة ، والعقل على الأشياء .

ويمكن أن تدرب النفس على أن ترتفع من طلب الجمال فى المادة ، أو فى الصورة البشرية ، إلى طلبه فى النفس الخفية ، وفى الطبيعة وسننها ،وفى العلم وما يكشف عنه من نظام دقيق أكثر نفعاً .. وإلى طلبه آخر الأمر فى الوحدة القدسية التى تؤلف بين الأشياء كلها ، بما فى ذلك الأشياء المتنافرة المتعارضة ، وتجعل منها نظاماً متناسقاً سامياً يثير الدهشة والإعجاب .

والجمال والفضيلة على هذا يكونان شيئاً واحداً فى نهاية الأمر ، وهو اتحاد الجزء مع الكل ، وتفاعله معه .

(ارجع إلى نفسك وتأمل ، وإذا لم تجد نفسك الجمال فافعل ما يفعله صانع التمثال، حتى ينشأ لتمثاله وجه جميل، اقطع كل شىء زائد ، وقوّم كل معوج ، ولا تنقطع عن تكوين تمثالك ، حتى يشعّ ضياء الفضيلة منه أمام عينيك ، بكل ما فيه من بهاء إلهى ، وحتى ترى الاعتدال متربعاً فى صدرك بكل ما وُهب من نقاء مقدس) - التاريخ وكيف يفسرونه ص ٧٥ .

جاء فى قصة الحضارة (جـ ١١ ص ٣٠٤) : إن (آخر الفلاسفة الوثنيين العظام) صار (مسيحياً بلا مسيح ، مثله فى هذا مثل إبكتيتس وأورليوس .. ولقد قبلت المسيحية كل سطر مما كتب تقريباً ، وما أكثر صحائف أوغسطين التى تردد نشوة هذا الصوفى الجليل) .

وينسب إليه الأستاذ العقاد (الله ص ١٧٣) أنه قال بتناسخ الأرواح ، وبالثواب والعقاب ، فى أدوار التجسيد ، فزعم أن الولد إذا قتل أمه عاد امرأة يقتلها ابنها ، فيكفر بذلك عن ذنبه ، وأن الظالم يعود ليظلمه غيره ، وأن الضارب فى عمر من الأعمار يقتص منه ضارب فى عمر جديد .

وهذه الأمثلة المضروبة لا يسهل قبولها من فيلسوف ، لأن معنى هذا أن العقاب سيظل يتكرر إلى الأبد !!

ويضيف العقاد (الله ص ١٥٧/١٥٨) : أن أوريجن تعلم على يد سكّاس معلم أفلوطين ، وأوريجن ابن الشهيد ليونيداس .

● ولد أوريجن بالإسكندرية سنة ١٨٥ ، وكان من الغلاة فى النسك والعبادة ، لكنه تعلم الفلسفة ، وأدرك البدائه العقلية ، فاضطره فرط الإيمان إلى التوفيق بينها وبين نصوص الكتب الدينية ، ولا سيما النصوص التى تشير إلى نبوة السيد المسيح ، ودلالة الثالوث ، والتوحيد .

ولأن أفلاطون يقول بسبق الصور المعقولة على الأجسام المحسوسة ، ولأن هيرقليطس من قبله قال : إن الدنيا تتغير أبداً ، فليس لها وجود حقيقى وراء هذه الظواهر غير وجود (الكلمة) المجردة ، أو العقل المجرد الذى لا ينقطع عن تدبيرها - فقد قال أوريجن بعدهما : إن السيد المسيح هو مظهر العقل الخالد تجسم بالناسوت ، وإن ظهوره فى الدنيا حادث طبيعى من الحوادث التى يتجلى بها الإله فى خلقه .. واجتهد فى تأويل النصوص ، فجعل للكتب الدينية تفسيرين : أحدهما صوفى للخاصة ، والآخر حرفى للعامة .. وبشر بخلاص خلق الله جميعاً فى نهاية الأمر ، حتى الشياطين .

● ولما أمسكت المسيحية بزمام السلطة الدُّنيوية إلى جوار السلطة الدِّينية أمسكت بزمام حرية الفكر .

إن الأديان بعامة تحدد اتجاه التفكير ، وتُلزم بقيم ومبادئ ، لا دخل لحرية التفكير فيها .. ومن ثم اقتضى الأمر زمناً حتى آن للعقل أن يتمرد ، أو يتحرر ، أو يفيق من الكابوس الرهيب الذى عاشه قروناً تحت وطأة اتحاد السلطتين ، الزمنية والدينية ، أو تواطئهما لابتزاز قوى شعب الكنيسة وشعب الدولة معاً .

وحين أتيح للعقل أن ينطلق من عقاله ، جعل يتخبط فى شراك التراث ، شارحاً ، ومتطفلاً ، ومقلداً ، ومزيفاً .. فلما كان (عصر النهضة) بعد كبوات ، بدا أن الانطلاقة الفلسفية رهينة بالقدرة على الخلاص من القيود (الدينية) ، ومن آصار زمن طويل سيطرت عليه الخرافات والأوهام .

ومن ثم لم تثمر النهضة الإيطالية موفوراً من الفلسفة ، فلم يكن محصولها - فى أيام عزها ، من عهد أبلار إلى عهد أكوناس - ليضارع ما أثمرت المدرسة الفلسفية الفرنسية .

لقد احتضن (الإنسانيون) مبادئ الثورة الفلسفية ، حين اكتشفوا ونشروا بحذر عالَم الفلسفة اليونانية ، لكنهم كانوا - فى معظم الأحوال ، إذا استثنينا لورنزو ، وفلا Valla - أكثر دهاءً وحرصاً من أن يعرضوا معتقداتهم جهرة .

ولعل القديس أوغسطين (٣٥٤/٤٣٠) كان الأكثر توفيقاً فى الجزم بأن العالم مخلوق ، وأنه لم يوجد هكذا من أزل الآزال . فلا تناقض بين قدم الإرادة الإلهية وحدوث المخوقات .. وكان لا يفهم خلق الله العالم فى ستة أيام على ظاهره ، بل على معناه ، لأن اليوم من أيام الله غير اليوم الذى نحسبه من تقلب الليل والنهار ، فلم يكن ليل ونهار قبل خلق الكواكب والنجوم .

وكان أساتذة الفلسفة فى الجامعات يعانون من تقاليد الفلسفة المدرسية التى تتميز - كما يقول رسل (تاريخ الفلسفة الغربية جـ ٢ ص ١٠٨/٢٠٩) - بمميزات محددة :

١ - أنها حصرت نفسها فى حدود ما يظنه المؤلف متمشياً مع أصول الدين الصحيح ، فإذا هاجم مجلس دينى آراءه رأيته فى الأغلب ميالاً إلى التراجع عنها ، ولا ينبغى أن نعزو هذا إلى الجبن وحده ، إذ هو شبيه بخضوع القاضى لقرار محكمة الاستئناف .

٢ - كان أرسطو - فى حدود الدين الصحيح - يزداد رجحاناً على أنه حجة عليا ، وذلك لأنهم أخذوا يزدادون به علماً ، إبان القرنين الثانى عشر والثالث عشر ، ولم يعد أفلاطون يحتل عندهم المكانة الأولى .

٣ - كانت العقيدة القوية فى الديالكتيك ، وفى التدليل القياسى ، فالمزاج العام للإسكولانيين مزاج يهتم بالدقة فى التفصيلات ، والمنازعة فيها ، أكثر من اهتمامه بالغموض الصوفى .

٤ - ازدادت مشكلة الكليات أهمية حين وجدوا أن أرسطو وأفلاطون لا يتفقان على الرأى فيها ، على أنه من الخطأ أن نظن بأن مشكلة الكليات كانت المهمة الرئيسية التى عنى بها الفلاسفة فى تلك الفترة من الزمن .

ومن ثم برزت العيوب الإسكولاتية فى عدم الاهتمام بالحوادث الواقعة وبالعلم ، وفى الإيمان بالتدليل العقلى ، فى الأمور التى لا يفصل فيها غير المشاهدة ، وفى الوقوف أطول مما ينبغى عند الفوارق اللفظية الدقيقة .

يقول توينبى (الفكر التاريخى عند الإغريق ص ١٦٧) : حاول بروكوبيوس (٥٠٠/٥٦٥) التعبير عن حيرة (طبيعة الله) بين حرية الفكر والخضوع للمفاهيم السائدة ، بقوله : إن محاولة البحث فى طبيعة الله تبدو لى أنها نوع من الضلال والخلل العقلى ، والذهن الإنسانى ليس كذلك ، فإننى أضل عن طريقه إلى المفهوم الدقيق ، حتى فى الشئون الإنسانية ، وعلى هذا فبالأحرى تلك المشاكل المتعلقة بطبيعة الله ، ومن مثل هذه المسائل أقترح أن أتحفظ احتياطياً ، وسوف أشير إلى أننى لست كافراً بالمبادئ المسلم بها ، وأيّا ما كان الأمر ، فإنى أتردد شخصياً فى أن أقول أى عبارة عن الله ، فيما عدا أنه كامل الخلق ، وكليّ الإرادة مادياً .. وأترك هذا الأمر للآخرين : الكهنة ، والعلمانيين ، ليصوغوا فى عبارات المعرفة اللاهوتية التى يعتقدون بأنهم يملكون ناصيتها .

وجاء يوحنا الأسكتلندى ، أو الأيرلندى - كما يقول رسل (تاريخ الفلسفة الغربية جـ ٢ ص ١٥٥/١٦٥) - معتنقاً الأفلاطونية الجديدة ، مثقفاً بالثقافة اليونانية ، مؤمناً بالمذهب البلاجى ، آخذاً بمذهب وحدة الوجود .. وقد أنفق شطراً كبيراً من حياته فى رعاية (شارل) الأصلع ، ملك فرنسا ، ولم يصبه اضطهاد ، على الرغم من بعده عن

الأرثوذكسية بعداً لا شك فيه ، إذا صحّ ما نعلمه ، فقد رفع العقل فوق مرتبة الإيمان ، ولم يأبه قط بسلطة رجال الدين ، ومع ذلك قصد إليه رجال الدين ليكون حكماً فيما نشب بينهم من خلاف .

المذكور أنه ولد سنة ٨٠٠ تقريباً ، وأنه مات حوالى سنة ٨٧٧ ، على أن التاريخين ضرب من التخمين ، وكان فى فرنسا إبّان عهد البابا نقولا الأول ، فصادف فى حياته شارل الأصلع والإمبراطور ميخائيل والبابا نقولا .

كان شارل هو الذى دعا يوحنّا إلى فرنسا ، سنة ٨٤٣ ، ونصّبه رئيساً لمدرسة البلاط .

أصدر يوحنا رسالة (فى الجبر الإلهى) ، مؤيداً (حرية الإرادة) ، واعتمد فيما يقول على أساس من الفلسفة ، وزعم بأن العقل والوحى مصدران للصدق ، ولذا لايمكن أن يقع بينهما اختلاف ، لكن إذا حدث أن خيل إلينا ذات مرة أنهما مختلفان كان العقل أحق لدينا بالقبول .. إن الديانة الصحيحة فى رأيه هى بعينها الفلسفة الصحيحة، والعكس صحيح أيضاً ، وهو أن الفلسفة الصحيحة هى بعينها الديانة الصحيحة .

أصدر مجمعان دينيان حكمهما على كتابته هذه بالكفر ، وذلك فى عامى ٨٥٥/٨٥٩ ، ومع ذلك نجا من العقاب ، بسبب تأييد الملك له .. وبعد موت الملك سنة ٨٧٧ انقطعت أخبار يوحنا .

وأهم مؤلفاته (فى تقسيم الطبيعة) باليونانية ، وفيه يذهب إلى ما ذهب إليه أفلاطون ، من أن المعانى الكلية تأتى قبل الجزئيات .. وقد أدخل فى الطبيعة ما ليس له وجود إلى جانب ما هو موجود ، وليس يتمتع بالوجود الكيانى إلا ذلك الذى يَخلق ولا يُخلق ، فهو جوهر كل شيء ، إذ الله هو بداية الأشياء ووسطها ومنتهاها ، ولا يعلم الناس ولا الملائكة شيئاً عن جوهر الله ، بل إنه مجهول لنفسه ، بمعنى من معانى هذه الكلمة ، (إن الله لا يعرف نفسه ، هو لا يعرف ما هو ، لأنه ليس مما يُسأل عنه بكلمة « ما » ، فمن وجه من الوجوه تراه غير معلوم لنفسه ، وغير معلوم لأى عقل ، كائناً ما كان) ، ويمكن رؤية وجود الله فى وجود الأشياء ، وفى حركة الأشياء يمكن رؤية حياته ، ووجوده هو (الآب) ، وحكمته هى (الابن) ، وحياته هى (الروح القدس) .

وثالوثه الذى يشبه ثالوث أفلوطين شبهاً قريباً ، لا يحتفظ بالمساواة بين (الأشخاص الثلاثة) .

وقد وجهت إليه تهمة الزندقة مراراً ، ثم انتهى الأمر سنة ١٢٢٥ إلى أن أمر البابا أونوريوس الثالث بأن تحرق كل نسخة من هذا الكتاب .

وفى القرن الثالث عشر هجم (القديس) الإنجليزى توماس الأكوينى على فكر كل من أرسطو وابن سينا وابن شد ، ونسب إلى ابن رشد آراء مفتراة ، ثم اعتمد فى نقدها على بعض أقوال ابن سينا والغزالى ، وكأنه يجهل أن أبا الوليد هداه إلى رأيه الأول الذى يسوى فيه بين النفس والعقل الفعال ، وهو الرأى الذى لا يتفق بحال - كما يقول الدكتور قاسم (فى النفس والعقل ص ١٣٥/١٣٦) - مع فلسفة هؤلاء الذين يحتج بهم .

ويضيف الدكتور قاسم أن الأكوينى كان مضطرباً يتردد - على غير هدى - بين آراء أرسطو وآراء ابن سينا ، فهو يستعين بالأول من جهة ، ليثبت أن العقل جزء من النفس ، وهو يلجأ إلى الثانى لكى يبرهن على خلود النفس الجزئية ، وفى أحيان أخرى لم يكن له بُدّ من اتباع الآراء الحقيقية لابن رشد ، فنص على أن النفس ليست مجرد صورة للبدن - كما كان يقول أرسطو - بل هى صورة من جنس خاص ، بمعنى أنها مستقلة عن الجسم الذى تتصل به .

وكان يقول - العقاد / الله ص ١٦١ - إن صفات الله السلبية أيسر فهماً من صفات الله الثبوتية ، فالله غير مركب ، وغير متعدد ، وغير فان ، وغير ناقص .. ويلزم من ذلك أنه كامل كل الكمال ، وأن صفات العلم والخير والجمال هى من معانى هذا الكمال ، ولا تدل على التعدد والتركيب .. وهذا فكر أرسطى خالص ، تردد فى الفكر الإسلامى ، ويمكن أن يكون هذا الفكر قد وصل إليه عن الطريق اليونانى ، أو عن الطريق الإسلامى .

● لقد كرس مارسليو فتشيلو نصف حياته للتوفيق بين أساليب التفكير المختلفة .. ولكى يحقق هذا الغرض شرع يدرس دراسة موسعة شملت زارادشت وكونفشيوس ، حتى وصل إلى أفلوطين ، وشعر أنه عثر فى الأفلاطونية الحديثة الصوفية على الخيط الحريرى الذى يربط أفلاطون بالمسيح .. وحاول أن يصوغ هذا الارتباط فى كتابه

(اللاهوت الأفلاطونى) ، وهو خليط مهوش من الدين القديم والإيمان بالعلوم الخفية والهلينية ، ووصل فيه - بعد تردّد وإحجام - إلى نتيجة من نوع الأحدية (وحدة الوجود)، فقال : (إن الله هو روح العالم) ، وأصبح هذا هو مذهب (نورندسو) والملتفين حوله ، والمجامع العلمية الأفلاطونية فى رومه ، ونابلى ، وغيرهما من البلاد .. ووصلت هذه الفلسفة إلى (جيوردانو برونو) من نابلى ، ثم انتقلت من برونو إلى اسبينوزا ، ومنه إلى هيجل ، ولا تزال حية قائمة إلى اليوم .

ويبدو أن نيقولتو قريناس ، أستاذ الفلسفة فى (بروا) - ١٤٧١/١٤٩٩ - كان يعلّم فيها العقيدة القائلة إن النفس الكلية العالمية وحدها هى الخالدة ، لا النفس الفردية .

ويقول پمبونتسى ، أستاذ الفلسفة فى (بَدوا) - ١٤٩٥//١٥٠٩ - ثم فى جامعة بولونيا ، من سنة ١٥١٢ حتى توفى : (إن من واجبنا - بوصفنا مسيحيين ، ومن أبناء الكنيسة المخلصين - أن نؤمن بخلود النفس الفردية ، أما بوصفنا فلاسفة فليس هذا من واجبنا) .

وكتب طبيب إلى پمبونتسى عن علاج شاف، يقال إنه ثمرة رُقى أو سحر، فقال له : (إن من السخف ، ومما يدعو إلى السخرية ، أن يحتقر الإنسان ما هو واضح وطبيعى ، لكى يلجأ إلى علة غير واضحة ، لا يؤكد صحتها أى احتمال موثوق به) .

وهو - بوصفه مسيحياً - يؤمن بالملائكة والأرواح ، لكنه - بوصفه فيلسوفاً - يرفضها ، ويقول : (إن جميع العلل فى عالم الله طبيعية) .. وهو يتأثر بتدريبه الطبى ، فيسخر من الاعتقاد الشائع فى المصادر السحرية الخفية الشافية من الأمراض ، ويقول : (إنه لو كان فى مقدور الأرواح أن تشفى أمراض الأجسام لكانت هذه الأرواح مادية ، أو كانت تستخدم وسائل مادية ، حتى تستطيع أن تؤثر فى جسم مادي).. ثم يمضى فيصور فى سخرية الأرواح الشافية تهرول غادية رائحة ، ومعها ما تحتاج من جبس ، ومرهم ، وحبوب .. على أنه يعتقد أن لبعض النباتات والحجارة قوة علاجية .. ويصدق المعجزات الواردة فى الكتاب المقدس ، لكنه يظن أنها كلها عمليات طبيعية ، لا نعرف نحن إلا جزءاً من قدرتها ووسائلها ، والناس يعزون إلى الأرواح فى ذلك ما يتعارض مع هذه النظرة ، نظرة العلل الطبيعية للأشياء .. وهو لا يقول إن حياة

الآدميين خاضعة لتأثير الأجرام السماوية فحسب ، بل يضيف إلى ذلك أن جميع الأنظمة البشرية ، ومنها الأديان نفسها ، تنشأ وتزدهر وتضمحل بفعل المؤثرات السماوية ، ويصدق هذا أيضا - فى رأيه - على المسيحية .. ويقول : إن ثمة دلائل - فى تلك الأيام - على أن المسيحية آخذة فى الزوال .. ثم يقول : (إنه يرفض - بوصفه مسيحياً - هذا كله ، ويراه سخفاً وهراء) .. وهو يبرر - كما برر أفلاطون - تلقين الناس الخرافات والأساطير ، إذا كان فى مقدورها أن تساعد على كبح جماح ما فُطر عليه الآدميون من خبث .

● واجتمعت عوامل كثيرة لتجعل الطبقات العليا والوسطى فى أوربا - أواخر القرن الخامس عشر وأوائل السادس عشر - هى (الأكثر تشككاً) .. نذكر منها :

١ - إخفاق الحروب الصليبية .

٢ - انتشار الأفكار الإسلامية فى العالم الغربى ، بتأثير الحروب الصليبية ، والتجارة ، والفلسفة العربية .

٣ - انتقال البابوية إلى أفنيون ، وانقسامها على نفسها ، فى عهد الانشقاق الكبير.

٤ - تكشف عالم وثنى رومانى ملىء بالحكمة والفن العظيم ، رغم خلوه من الكتاب المقدس ، ومن الكنيسة .

٥ - انتشار التعليم وتحرره المتزايد من السيطرة الكهنوتية .

٦ - فساد أخلاق رجال الدين ، ومنهم البابوات أنفسهم ، وانهماكهم فى شئون الدنيا ، مما يوحى بعدم إيمانهم بما يجهرون به من عقائد ، واستخدامهم فكرة المطهر لجمع المال لأغراضهم الخاصة .

٧ - معارضة طبقات التجار وأصحاب المال والأعمال لسيطرة رجال الكنيسة .

٨ - تحول الكنيسة من منظمة دينية إلى سلطة دنيوية .

وكان التشكك - فى أدب وظرف - سمة السيد المهذب ، والصفة التى ينبغى له أن يتصف بها .. وكان بترارك يأسف لأن كثيرين من رجال العلم يرون أن تفضيل الدين المسيحى على الفلسفة الوثنية دليل على الجهل .

ودهش أرازموس إذ وجد فى رومة أن المبادئ الأساسية للدين المسيحى كانت موضوعاً للجدل المتشكك بين الكرادلة أنفسهم ، وأن واحداً من رجال الكنيسة أخذ يشرح له سخف الاعتقاد بحياة فى الدار الآخرة ، وكان غيره يسخرون من المسيح والرسل ، وكان غيرهم يقولون أنهم سمعوا كبار الموظفين البابويين ينكرون القداس ويسبونه .

● لقد كانت فلسفة أرسطو هدية يونانية للمسيحية اللاتينية ، ولكنها كانت أشبه بحصان طروادة يخفى فى باطنه ألف عنصر من العناصر المعادية لهذا الدين .. ولم تكن هذه البذور التى نبتت منها النهضة والاستنارة هى (انتقام الوثنية) من المسيحية فقط ، بل كانت فوق ذلك (انتقاماً للإسلام) على غير علم منه ، فقد غزت المسيحية بلاد فلسطين ، وأخرجت المسلمين من أسبانيا كلها تقريباً ، وتم نقل علوم المسلمين وفلسفتهم إلى أوربا الغربية ، فكانت هذه العلوم والفلسفة من القوى العاملة على تفكيك المسيحية وتفرقها ، وكان ابن سينا وابن رشد - كما كان أرسطو - هما اللذان بثَّا جراثيم النزعة العقلية فى الفكر الأوربى .

برونو .. عندما كان جيوردانو برونو (١٥٤٨/١٦٠٠) فى السابعة عشرة دخل دير الدومينيكان فى نابلى ، وفيه وجد مكتبة غنية بكتب اللاهوت ، وبالكتب اليونانية واللاتينية القديمة ، عن أفلاطون وأرسطو ، وعن مؤلفين عرب وعبرانيين مترجمة إلى اللاتينية ، فتعلقت طبيعته الشاعرية بالأساطير الوثنية ، التى رسخت فى فكره زمناً طويلاً .. ولم تمض سنوات على دخوله الدير حتى ظهرت عليه بوادر الشك فى صحة الدين .

وفى سنة ١٥٧٢ ، رسّم كاهناً ، لكن الشكوك ظلت تثور بين جوانحه ، وتُلهبُه خفية.. كيف يمكن أن يكون ثلاثة فى واحد ؟ كيف يتسنى لكاهن - مهما كانت مرتبته أن يحول الخبز والخمر إلى جسد المسيح ودمه ؟

وفى سنة ١٥٧٦ - بعد أن قضى أحد عشر عاماً فى الرهبنة - فر من الدير ، وتوارى عن الأنظار فى رومه ، وخلع رداء الرهبنة ، وعاد إلى اسمه الذى عُمّد به ، واشتغل بالتعليم فى مدرسة بالقرب من جنوه .

وقضى ستة عشر عاماً فى التجوال بين مدن عدة ، ثم عاد فارتدى ثوب الراهب

الدومينيكانى ، ليحظى بكرم الوفادة فى الأديار ، عَبّر جبال الألب ، ووصل إلى چنيف ، معقل الكلفنية ، وهناك جرد نفسه من ثوب الرهبنة ، وقضى شهرين يكسب قوته من تصحيح المخطوطات وتجارب الطبع .

ثم رحل إلى باريس ، وقد أحرز شهرة فى فن تقوية الذاكرة ، وأرسل إليه هنرى الثالث يستدعيه ، وسُرّ من دروسه ، فعينه مدرساً فى الكوليج دى فرانس .

وفى سنة ١٥٨٢ نشر رواية هزلية تحت عنوان (حامل المشعل) ، هجا فيها الرهبان والأساتذة المتحذلقين .

وفى مارس ١٥٨٣ قصد إنجلترا ، مزوداً بتوصية للسفير الفرنسى فى لندن ، حيث أقام فى قصر السفير ، وفى هذا القصر التقى بعدد من ألمع العقول فى إنجلترا ، وحظى بلقاء الملكة إليزابث .

وفى نفس العام طلب من جامعة أكسفورد أن تأذن له بإلقاء محاضرات فى قاعاتها ، فتحدث عن خلود الروح ، وعن (الكرة السماوية المكبرة إلى خمسة أمثالها) ، أى عن نظرية كوبرنيكس فى الكواكب .. وأطلق على أكسفورد فيما بعد اسم (أرملة التعليم الصحيح) ، و (مجموعة من الجهل المتحذلق العنيد ، والوقاحة امتزجت بفظاظة خرقاء ، يمكن أن ينفد معها صبر أيوب) .. وخلع على نفسه ألقاباً فخمة : (دكتور فى اللاهوت الأكثر تطوراً) ، (أستاذ فى الحكمة الخالصة غير الضارة) .

وفى أواخر سنة ١٥٨٥ عاد إلى باريس ، فى أثر السفير الذى استدعى إليها ، وحاضر فى السربون ، مثيراً عداوة أنصار أرسطو .. ثم سافر إلى ألمانيا ، وقضى عامين يحاضر فى جامعة لوثر بروتنبرج ، لكن لاهوت رجال الإصلاح لم يعجبه ، فلجأ إلى فرانكفورت ، حيث أخذ ينشر مؤلفاته باللاتينية .

لقد ورث برونو براعة الكتاب المسرحيين الإيطاليين ، والمرح الصاخب المؤذى لدى الشعراء الإيطاليين الذين يحشون قصائدهم بألفاظ من لغات أخرى .

يقول برونو : (إنى لأقول ، وأكرر القول ، إنه ليس ثمة مرآة توضع أمام أعين البشر خير من الحِماريّة ، أو الحمار ، ليكشف بشكل أوضح عن واجب هذا الإنسان الذى يفتش عن ثواب يوم الحساب .. ومن ناحية أخرى ، ليس ثمة شيء أشد مغالبة فى تردّينا فى هاوية الجحيم من التأويلات الفلسفية والعقلانية التى تنبع من الحواس ،

وتنمو وتنضج فى العقل البشرى المتطور ، فحاولوا إذن أن تكونوا حميراً ، يأيها الرجال ، ويأيها الذين أنتم بالفعل حمير ، وادرسوا حتى تسيروا من حسن إلى أحسن ، وتُحققوا هذه الغاية والمكانة اللتين لا يمكن الوصول إليهما بالمعرفة والجهود ، مهما عظمت ، بل بالإيمان ، واللتين لا يحول دونهما الجهل والأخطاء ، مهما كانت جسيمة ، ولكن يحول دونهما الكفر ، وإذا كنتم بمثل هذا السلوك مقيدين فى سجل الحياة ، فلسوف تحظون ببركة الكنيسة « المحاربة » ، وتمجيد الكنيسة المنتصرة ، التى يعيش فيها الله ، ويحكم فى كل العصور .. آمين) .

ومن أقواله : (لما كان الكون لا نهائياً ، فإنه لا يمكن أن يكون هناك لا نهائيان ، فإذن يكون « الله » اللانهائى والكون اللانهائى شيئاً واحداً) .. وهذا ما تردد على لسان اسبينوزا : (الله ، أو المادة ، أو الطبيعة) .

(ليس هناك « مدبّر أول » - كما قال أرسطو - بل هناك حركة أو طاقة متأصلة فى كل جزء من هذا الكل ، وليس الله عقلاً خارجياً ، والأجدر به أن يكون القاعدة الداخلية للحركة ، وهى طبيعته وروحه ، والطبيعة هى العقل الخارجى الإلهى ، على أن هذا العقل ليس موجوداً فى « سماء عليا » ، بل هو موجود فى كل جزىء من جُزَيئات الواقع) .

(هناك فى الطبيعة أضداد ، وقوى متعارضة ، ومتناقضات ، لكن بعمل الكون كله فى « مشيئة الله » ، تتوافق كل المتضادات ، وتختفى .. ومن ثم تكون معرفة الوحدة الأسمى هى هدف العلم والفلسفة ، وهى الدواء الشافى للعقل) .

وهذا أيضاً ورد عند اسبينوزا فى (الحب العقلى لله) .

وقد تحدث برونو عن المزايا الخاصة بكثير من الكواكب ، فذهب إلى أن الأشخاص الذين يولدون (تحت تأثير الزهرة) ينزعون إلى الحب والبلاغة والهدوء والسلام ، أما الذين يولدون (تحت تأثير المريخ) فيميلون إلى النزاع والحرب .

وآمن بالخصائص الخفية للأشياء والأرقام ، وبأن الأمراض قد تكون بسبب العفاريت ، ويمكن علاجها فى بعض الأحيان بلمسة ملك ، أو بلعاب الابن السابع .

وفى أواخر سنة ١٥٩١ غادر فرانكفورت ، وعبر الألب إلى إيطاليا .

وشاء حظه العاثر أن تلقى دعوة من شاب أرستقراطى إيطالى ، ليتولى تعليمه ، ويقيم فى قصره بالبندقية ، وكان أن وشى بأستاذه إلى محكمة التفتيش ، فى رسالة بتاريخ ٢٣ مايو ١٥٩٢ إلى الكاهن المسئول ، جاء فيها أنه قال : (فى عدة مناسبات - أثناء حديثه معى فى بيتى - أنْ الكاثوليك يجدفون عندما يقولون بتحويل الخبز فى المناولة إلى جسد المسيح ، وأنه يعترض على القداس ، ويرى أن جميع الأديان عاجزة عن إقناعه ، وأن يسوع المسيح دجال لجأ إلى الحيل لخداع الناس ، وأغلب الظن أنه توقع لنفسه ميتة تشبه ميتة المجرمين ، فضلاً عن أنه ينكر وجود الأقانيم الثلاثة فى الذات الإلهية ، ويذهب إلى أن العالم أبدى ، وأن هناك عدداً لا نهائياً من العوالم ، وأن الله لا يكف عن خلق أعداد لا نهائية من هذه العوالم ، لأنه يريد المزيد منها ، وأن المسيح أتى بمعجزات تبدو فى ظاهرها طبيعية ، وأنه ساحر شأن الرسل) .

وقام بحبس أستاذه فى إحدى غرف القصر ، كى يمنعه من الهرب .

وكان قد بلغ محكمة التفتيش أن برونو قال عن رجال الدين والرهبان أنهم حمير ، دنسوا الأرض بنفاقهم وريائهم وجشعهم وحياتهم المليئة بالشرور ، وأن الفلسفة يجب أن تحل محل الدين ، وأن الانغماس فى الملذات الدنيوية ليس خطيئة ، وأنه - أى برونو - أشبع شهواته ، قدر ما سنحت له الفرص ، وأنه قال : (إنه استمتع بالنساء كثيراً ، ولو أنه لم يبلغ بعد عدد نساء سليمان) .

وأنه يرى أن الإنسان لا يعدو أن يكون ذرة رمل فى هذا الكون اللانهائى ، وأن هناك كائنات حية تسكن الكواكب الأخرى ، قد تكون أفضل منا أو أسوأ ، وأن الكون وحدة واحدة ، وكل لا يتجزأ ، لا فرق فيه بين الخالق والمخلوق ، فالله هو مجمع ما فى الكون ، وهو حالّ باتساق وانسجام فى كل أجزائه ، والكون يتسم بالكمال ، لأنه حياة الله .. ومن ثم فغاية الفلسفة الكشف عما فى الكون من انسجام ، وأفضل طريق لعبادة الله هو إمعان النظر فى الطبيعة والكون .

ألقى القبض عليه ، وحوكم على مهل ، من مايو إلى سبتمبر ١٥٩٢ ، ودافع عن نفسه بأنه كتب ما كتب بوصفه فيلسوفاً ، واعترف بأنه وقع فى أخطاء كثيرة ، وأبدى ندمه عليها ، وتضرع إلى المحكمة - وهى تعرف أسقامه وعيوبه - أن تعيده إلى الكنيسة الأم ، وأن تزوده بما يلائمه من علاج ، وأن تستعمل معه الرأفة .

وذُكر أنه جثا على ركبتيه قائلاً : (إننى بكل اتضاع أطلب من الله ، ومن قداستكم مغفرة الأخطاء التى ارتكبتها ، والتى أقف بسببها أمامكم للتكفير عنها ، حسبما تحكمون به ، وترونه نافعاً لى من الناحية الرُّوحية ، بل إننى أتوسل إليكم أن توقعوا بى أقصى عقوبة ، حتى لا أدنس رداء الكهنوت المقدس الذى أرتديه ، وإذا شاء الله ، وشاءت قداستكم ، إظهار الرحمة نحوى ، والسماح لى بأن أعيش ، فإنى أقطع على نفسى عهداً بإصلاح حياتى إصلاحاً كبيراً ، أكفر به عن الفضيحة التى تسببت فيها) .

غير أن هذا الندم تبدد بعد ثمانية أعوام ، عندما استدعت محكمة التفتيش فى رومه من حكومة البندقية إرسال السجين إليها ، فاعترضت ، ثم تم ترحيله إلى رومه فى ٢٧ فبراير ١٥٩٣ .

وفى ١٤ يناير ١٥٩٩ تليت عليه ثمانى مسائل هرطيقية مأخوذة من كتبه ، وطلبوا إليه أن ينكرها علناً ، فدافع عن وجهة نظره ، لكنه وافق على قبول حكم البابا فى تلك المسائل .

وفى ٤ فبراير ١٥٩٩ قرر البابا كليمنت الثامن وهيئة محكمة التفتيش أن هذه المقتبسات هرطيقية صريحة .

وفى ٢٠ يناير ١٦٠٠ قدم مذكرة إلى البابا يدعى فيها أن المسائل الواردة فى الاتهام اقتبست من مظانّها بشكل خاطئ ، فأصدر البابا كليمنت الثامن أمراً بإحالته إلى المحكمة المدنية .

وفى ٨ فبراير ١٦٠٠ استدعى المحققون برونو ، وكرروا على مسامعه الاتهامات ، وأعطى فرصة لمراجعة موقفه .

وقرر البابا أنه مارق ، وأنه لا يزال مصراً على موقفه (سادراً فى غيه ، عنيداً ، مكابراً) .

وفى ١٩ فبراير ١٦٠٠ - وهو لا يزال على إصراره - جرد من ثيابه ، وربط لسانه ، وشُد إلى خازوق من الحديد ، فوق ركام من الحطب ، وأحرق حياً على مشهد من جمع غفير .

وفى سنة ١٨٨٩ أقيم له فى نفس مكان حرقه تمثال جمعت له التبرعات من جميع أنحاء الدنيا .

● اتسع مجال الفلسفة للفكر السياسى ، فبالغ مكيافيلى فيما للمسيحية من أثر مضعف للقوى ، موهن للعزيمة ، ناسياً ، أو متناسياً ، الحروب العاتية التى شبت نارها فى العصور الوسطى ، حروب قسطنطين ، وبلساريوس ، وشارلمان ، وفرسان المعبد ، والفرسان التيوتون ، وحروب البابا يوليوس الثانى الذى لم يمض عليها وقت طويل .

جاء فى (قصة الحضارة جـ ٢ ص ٧٣) : (أن المبادئ الأخلاقية المسيحية لم تؤكد الفضائل « النسوية » ، إلا لأن الرجال كانوا يتصفون بالصفات المضادة لها ، وكانت فيهم قوة لدرجة تؤدى إلى الخراب والدمار، فكان لابد من وجود ترياق شاف لهذا الداء، ومثل أعلى مضاد له ، يوعظ به الرومان القساوسة فى المجتلد ، والبرابرة الغلاظ الذين اجتاحوا إيطاليا ، والشعوب الخارجة على القانون التى تحاول الهبوط إلى بلاد الحضارة) .

وهذا تعليل سطحى لدعوة المسيحية إلى الرحمة والعدالة والمحبة والسلام ، وبخاصة أن المسيحية فى أول أمرها كانت رسالة محلية فى إطار يهودى ، ولم تتحول إلى (العالمية) إلا على يد (بولس) .. ثم إن اليهودية - وهى بشهادة التوراة والتلمود المتداولين - ديانة عدوانية شديدة العنصرية والفظاظة والقسوة ، وحين جاء موسى - عليه السلام - لم يكن العالم قطعاناً من الضأن ، بل كانت الحروب بين مصر وجاراتها لا تكاد تخبو حتى تستعر ، ثم إن التاريخ الدينى يحدّث عن أن أقوام جميع الأنبياء والرسل كانوا غلاظاً أشداء ، معاندين جبابرة ، مما يعنى أن هذه (المبادئ النسوية) الرحيمة لم تكن من أجل تقليم الأظافر (العالمية) ، بل من أجل محاربة ما انْغَرَزَ فى نفوس اليهود من عدوانية فاجرة ضد العالم كله ، من خلال أنهم (شعب الله المختار) ، وأن الله لم يخلق غيرهم من (الأمميين) إلا ليكونوا عبيد هذا (الشعب) وخدامه .

ولعل دعوة مكيافيلى الذرائعية (الشوفينية) لم تكن إلا أحد الأُطُر لما أفرزته الأفكار التوراتية التلمودية (حيث يكون الأمر أمر مصلحة بلادنا وخيرها ، وجب علينا ألا نقبل البحث فى العدل أو الظلم ، والرحمة أو القسوة ، وما هو خليق بالثناء أو الازدراء ، بل يجب أن نسلك كل سبيل ينقذ حياة الأمة وحريتها ، وننحى كل ما عدا هذا جانباً) .

(إذا وقفت الدولة عن التوسع أخذت فى الاضمحلال ، وإذا فقدت الرغبة فى الحرب فقل عليها السلام ، والسلم إذا طالت مدته فوق ما يجب تؤدى إلى الضعف والتفكك ، ولذلك كانت حرب تدور بين الفينة والفينة مقوية للقومية ، تعيد للأمة النظام، والشدة ، والوحدة) .

ولقد ظل الفكر المكيافيلى يقود السياسة الأوربية ، أو (المسيحية) ، إلى يوم الناس هذا ، حتى إنه لينطوى على المكيافيلية أو (المسيحية) قول توماس مور عن (الفلسفة الكلامية) : (إن ما تنطوى عليه من خبث فى التفريق بين الأشياء يعود على المرء بفائدة توازى ما يكسب من حلب تيس فى غربال) .. وما أظن الحروب الصليبية ، والحروب التى تشنّ على مستوى المطامع الأوربية ، دينية وسياسية واستعمارية ، وتلك التى يرفرف عليها علم (الأحلاف) ، أو (الأمم المتحدة) أو (الناتو) إلا تطبيقاً رهيباً للفكر المكيافيلى ، أو (عبادة القوة) ، مزوداً بكل ما حققه العالم من فلسفات ومذهبيات وصواريخ عابرة للقارات ، محملة بأخطر ما وصلت إليه (الحضارات) من جرائم وتشوهات وشعارات .

● ومن عجيب أمر هذا العقل (الإنسانى) الذى يتخذ المعارف والعلوم وسيلة تخريب وتدمير - أنه بعينه العقل (الإنسانى) الذى يحلم بعالم خال من الجريمة ، ومن دوافع الشرور والآثام .

حاول أفلاطون فى (الجمهورية) أن يصنع المجتمع الفاضل الذى تحكمه الفلاسفة وأولو العلم ، وفاته أن الفلاسفة والعلماء - إذا لم يكونوا على دراية بالسياسة وبشئون الرعية - يذهبون مذاهب أخطر بكثير مما يذهب إليه المستبدون الطغاة ، من الذين يحترفون السياسة ، وينعمون بثمارها .. إن رءوس الفلاسفة والعلماء هى موضع الثقل ، ومن ثم لا تستقيم خطاهم ، على حين يكون (موضع الثقل) فى أقدام الساسة، وأصحاب المصالح (الحقيقية) ، ورجال الأعمال ، والانتهازيين ، والحمّارين أو ساقة المركبات .. وقد ثبت أن وزارات (الجامعيين) أو (التكنوقراط) أسوأ الوزارات ، والمثل الذى يقول (أد العيش لخبازيه ، ولو أكلوا نصفه) هو أنجح الوسائل العلمية ، فأكثر الحكام تحقيقاً للمكاسب الشعبية هم الذين يعبئون أشعة الشمس فى زجاجات ،

ويملئون الأفق أرقاماً ، بينما ترتفع أرصدتهم الخاصة فى مصارف خارج الحدود ..
وقديماً قيل (القط لا يحب إلا خنّاقه) ، وما زال من يهتفون (بالروح بالدم) لعبد الناصر وصدام حسين وميلوسيفيتش ، بل ما زال من يرفعون أعلام هتلر وموسولينى فى بلادعملت على (التمثيل) بزعامة هتلر وموسولينى !!

وجاء من بعد أفلاطون كثير من الفلاسفة ، مسلمين ومسيحيين ، ولم تتعد محاولاتهم دائرة الحلم الذى لا يصل إلى دائرة الطموح أو إرادة التحقيق .

ولعل هذه (المدن الفاضلة) لا تعدو أن تكون احتجاجاً على ما وصلت إليه الحياة من فساد استباح كل شيء : الفكر والعاطفة ، الإيمان والأوهام ، الطبقات الدنيا والعليا، القادة والرعية .. ومن سيطرة الحماقات الفردية على وسائل الإنتاج ، والاستفادة من ثمار هذا الإنتاج .

فى سنة ١٥١٦ طرح توماس مور باللاتينية - كما لو كان يقوم بدعاية - كتاباً من أشهر الكتب ، مقدماً خطة للمدن الفاضلة الحديثة ، متوقعاً نصف اشتراكية ، معبراً عن نقد للاقتصاد والمجتمع والحكومة فى إنجلترا ، إلى حد أنه تسلح من جديد بالإقدام ، ونشر المجلد فى الخارج ، فى ست طبعات لاتينية .. وما إن حل عام ١٥٢٠ حتى كان حديث التاريخ .. ثم ظهرت النسخة الإنجليزية سنة ١٥٥١ ، بعد وفاة المؤلف بستة عشر عاماً .

كان عنوان حلم مور (ليس فى موضع) ، ثم تغير العنوان فى المطبعة إلى (يوتوبيا) ، أو (المدينة الفاضلة) .

كل إنسان فى المدينة الفاضلة يحمل إنتاجه إلى المخزن العام ، ويتسلم منه ما تقتضيه حاجته ، ولا أحد يطلب أكثر من كفايته ، لأن الأمان من الحاجة يصدّ عن الجشع ، ويتناول الناس الوجبات على مائدة مشتركة ، لكن للمرء أن يأكل فى بيته إذا شاء .

وليس فى المدينة عملة نقدية ، ولا شراء ولا بيع ، ولا يستخدم الذهب بوصفه وسيلة مقايضة ، بل لصناعة ما هو نافع أو جميل .

بهذا لا تكون آفات الغش والسرقة والنزاع على الملكية ، ولا مجاعات ، ولا سنوات عجاف ، لأن المخازن العامة مكتظة بما يزيد عن الحاجة وقت الشدة .

كل أسرة تشتغل بالزراعة والصناعة معاً ، رجالاً ونساء ، واحتياجات الجماعة هو الذى يحدد نوع العمل .

وتحكم المدينة قوانين بسيطة معدودة ، من يخالفها يعمل عبداً للجماعة ، ويؤدى المهامّ الكريهة ، ويستعيد حقه فى المساواة بعد أن يؤدى فترة العقوبة ، أما من يصبحون خطراً على الأمن فيحكم عليهم بالإعدام فى بلاد أخرى .

ووحدة المجتمع فى المدينة الفاضلة هى الأسرة الأبوية (والزوجات يهيمنّ على أزواجهن ، والأولاد ينسبون إلى آبائهم) ، والزواج من واحدة هو الشكل الوحيد المسموح به فى مجال الارتباط الجنسى .

ومن التبعات الأساسية الملقاة على عاتق زعماء القبائل المحافظة على صحة الجماعة ، بتزويدها بالماء النقى ، واتخذ إجراءات الحفاظ على الصحة العامة ، وتوفير العناية الطبية ، وتعليم الأطفال والكبار ، وتدريبهم مهنياً .

والدين فى المدينة الفاضلة محكوم بما يؤلف بين الجماعة ، ولهذا كان التسامح مع أى عقيدة ، ما لم تتطرف فتنكر وجود الله ، أو خلود الإنسان .

ديكارت .. ويخطو عصر النهضة خطوة ليتصدر مسيرته ديكارت (١٥٩٦/ ١٦٥٠)، أبو الفلسفة الحديثة ، وزعيم العقليين فى القرن السابع عشر .

يقول شاخت (رواد الفلسفة الحديثة ص ١٣/ ١٤) : ولد فى مدينة صغيرة فى فرنسا سنة ١٥٩٦ ، وتعلم فى إحدى كلياتها اليسوعية ، واستمر مقتنعاً بسلامة أصول الاتجاهات الأساسية للاهوت والإيمان التى تلقّنها ، حتى رغم سعيه إلى جعل هذه التعاليم تستند إلى ما اعتقد أنه أساس أفضل وأحدث اعتماداً على النهوض بمذهب فلسفى ومنهج فلسفى يتصفان بالرسوخ والشمول ، (ولقد آمن بأن رسالته تدعوه إلى النهوض بهذه المهمة ، بعد بعض الأحلام التى حلمها فى إحدى الأمسيات التى أمضاها فى مدينة أولم بألمانيا ، أثناء خدمته بالجيش الهولندى) .

ورغم أن ديكارت فرنسى الأصل ، فإنه أمضى جانباً كبيراً من حياته فى هولندا .. وهناك قام بتأليف أكثر مؤلفاته الفلسفية التى تَضمّنَت وفرة من الرسائل التى تبادلها هو ومفكرون معاصرون له ، وعلى هذا النحو ابتعد عن اللاهوتيين فى باريس (بعد

صدام مشهور معهم فى بواكير حياته ، خرج منه سليماً بغير سوء) ، ولم تفارق ظلالهم مخيلته قط .

وفى سنة ١٦٤٩ أقنعته كريستينا ، ملكة السويد ، بالذهاب إلى استوكهولم ، للانضمام إلى زمرة المفكرين والمؤلفين الذين التفوا حولها هناك ، وبعد سنة فقط عانى خلالها من زمهرير شتاء السويد ، فمات بالتهاب الرئة .

قال فى كتابه (المقال) : (ليس هناك ما هو بعيد ، بحيث يتعذر بلوغنا إياه ، وليس هناك ما يتصف بخفائه وغموضه ، بحيث يتعذر اكتشافه) .. وهذا يبين مدى ثقته بمنهجه ، وبقدرته (الرياضية) على اقتحام مجاهل الفكر .

وأكد هذه الثقة بقوله فى كتابه (التأملات) : (بمقدورنا معرفة الشيء الكثير عن العالم ، والله ، والنفس ، بغير أن يَعْتَرى معاييرنا أى خطأ - ولو ضئيل - لما يصح أن يوصف بالمعرفة ، بغض النظر عن الحدود القصوى لملكة المعرفة) .

ويتحدث عن المقدرة على الحركة المعرفية ، فى تواضع ، قائلاً : (إذا افترضنا أننى باتباع هذه الوسيلة لم أتمكن من الاهتداء إلى معرفة أنه حقيقة ، وإذا لم أتمكن من بلوغ اليقين فى نتائجى ، مثلما يتيقن عالم الهندسة من نتائجه - فإن بوسعى ، على أقل تقدير ، أن أفعل ما بمقدورى القيام به ، أن أعلق الحكم .. وفى الحق إن الأمر لايقتصر على إمكان قيامى بذلك ، بل من واجبى أن أحجم عن إصدار أية أحكام عن العلم ، والله ، وطبيعة الإنسان .. وإلا فإننى سأعرض نفسى لاحتمال الخطأ) .

ومن تواضع عالم الرياضة الاعتراف بصعوبة الحكم اليقينى ، لأن حواسنا تخدعنا أحياناً ، إذ نكتشف أن الأشياء مختلفة عما تراءت لنا أصلاً ، أو نكتشف أن كل ما هنالك لا يزيد عن هلاوس ، أو خيالات الأشياء ، أو أننا - تحت تأثير نوع من الوهم - قد نظن رؤية شيء .. فإذا أثبتت حواسنا أنها غير موثوق بها مرة ، فكيف يكون اليقين من صدقها مرة أخرى ؟ إن من الصعوبة أن تجد مبرراً لتصديق من سبق أن كذب عليك .

ومع هذا يضع قاعدة لعدم الشك فى كل شيء ، وإلا حيل بيننا وبين القدرة على التفكير ، أو على كسب المعرفة .

وتتلخص هذه القاعدة فى أنه (ليس بمقدورنا أن نشك فى وجودنا ، ونحن موجودون أثناء قيامنا بالشك ، إذ ثمة تناقض فى تصور أن من يفكر لا يكون موجوداً فى نفس الوقت الذى يفكر فيه ، ومن هنا فإننا نهتدى إلى رأس اليقينيات جميعاً ، وهي: **أنا أفكر ، إذن أنا موجود**) .

وكان يرى - كما يقول الدكتور مدكور (مجلة الهلال يونية ١٩٧٢) - أن من منحهم الله العقل ملزمون باستخدامه ، خاصة فى معرفة الله ، ومعرفة أنفسهم .. ومعرفة الله عنده عماد اليقين ، ودعامة الحقائق على اختلافها ، والله هو الموجود الحق اللامتناهى ، وفكرة الألوهية أجلى الأفكار وأوضحها ، ووجودها فى الذهن دليل قاطع على وجود حقيقة خارجية هى مصدرها ، وليس بلازم أن نبحث عن الله فى العالم المحيط بنا ، بل يكفى أن نغمض أعيننا ، ونعطل حواسنا ، ثم نفتش فى عقلنا عن الأفكار الجلية الواضحة ، وسنجد لا محالة فكرة الألوهية فى مقدمتها .

إنه - كما يقول العقاد (الله ص ١٧٤) - لا يتخذ من العالم دليلاً على وجود صانعه ، بل يتخذ من الصانع الكامل الأبدى دليلاً على أن العالم حقيقة ، وليس بالوهم الباطل .

وقد حاول ديكارت أن يقيم بين العقل والمادة قنطرة تنتقل بها المؤثرات بين هذين الجوهرين المختلفين ، فقال : إن الغدة الصنوبرية فى الدماغ هى الحلقة المتوسطة بين روح الإنسان وجسده ، وإن بعض العلماء المعاصرين يؤيدون هذا القول ، ويدعمونه بالمشاهدة والاستقراء .. ولكن ديكارت لم يعن بإيجاد مثل هذه القنطرة بين الله والعالم لأنه - كما يفهم من مجمل آرائه - يرى أن قدرة الله فى غنى عن ذلك التوسط .

وقد قال تلميذه لويس دى لافورج : إن تأثير الأجسام واقع مفروغ منه ، ولكنا إذا حاولنا فهم الحقيقة التى يقع بها التأثير لم تكن أيسر فهماً من تأثير الأرواح فى الأجسام ، ولولا الواسطة الإلهية لما وصلت الأفكار نفسها إلى العقول والأرواح .

وبهذا يثبت ديكارت عجز العقل ، لأن تغيير الحقائق الرياضية نفسها ممكن غير مستحيل ، وأن تغيير العقل الذى ندرك به تلك الحقائق ممكن كذلك غير مستحيل ، ومن ثم فالمعجزة التى هى خرق للقوانين الطبيعية ممكنة ، وليست مستحيلة ، لأن مواد الكون كله ترجع إلى أصل واحد ، وليست خصائص هذه المواد مجعولة فيها بإرادتها ،

وليست كل خاصة منها مستقلة عن سائرها ، فإذا جاز أن يشكل الأصل الواحد بجميع هذه الأشكال ، فاختلافها جائز فى أحوال غير هذه الأحوال ، ولا وجه على الإطلاق للجزم باستحالة هذا الاختلاف .

إن الذى أودع فى الأصل الواحد كل هذه الصور قادر على أن يودعه صوراً أخري.. وعلى الذى يجزم بالاستحالة أن يقيم الدليل ، أما القائل بالإمكان فالواقع هو دليله الذى يقيس عليه - أبو الأنبياء ص ٢٤٦ .

وبهذا يثبت ديكارت - عن طريق العقل - عجز العقل ، لأن العقل هبة إلهية محدودة الإمكانيات ، ولأن الكون وخالق الكون أبعد من أن يملك العقل الإحاطة بهما ، أو التعرف إليهما تعرفاً كاملاً ، لأن إمكانيات العقل قائمة على المشاهدة ، أو على الظن والتخمين ، والمشاهدة تخضع للحواس ، والحواس تزيفها مؤثرات كثيرة ، والظن والتخمين من ضروب أو دروب الوهم .

من هنا يكون ديكارت أقرب إلى الصدق ، وإلى التسليم بالغيب ، وأن مفاتيح الغيب بيد رب الشهادة والغيب ، (الظاهر الباطن) ، سبحانه .

اسبينوزا .. أما اسبينوزا (١٦٣٢//١٦٧٧) فإن آراءه فى الألوهية والدين (حكمة الغرب جـ ٢ ص ٧٨/٨٤) كانت سابقة لعصره ، إلى حد ما ، إنه - برغم جهوده الجادة فى التفكير النظرى الأخلاقى - قد صُبّت عليه اللعنات فى عصره ، وطوال مائة عام بعد ذلك ، بوصفه شيطاناً آثماً .

فى عام ١٦٥٦ قام مجمع اليهود فى أمستردام باستدعائه للتحقيق معه بتهمة الهرطقة ، وسأله : هل قال لأصدقائه إن الله قد يكون من جسد مادى ، وإن الاعتقاد بوجود الفلاسفة ضرب من الهلوسة ، وإن الروح ليس سوى تلك الحياة التى تدب فى جسم الإنسان ، وإن العهد القديم لم يذكر أى شيء بشأن خلود الروح ؟

وقرر المجمع أن اسبينوزا ملعون مثل أبناء ليشع من كل شعب إسرائيل ، وأن اللعنة سوف تلاحقه بالليل والنهار ، وفى كل منزل ينزل فيه ، وفى غدواته وروحاته ، وفى جلوسه وقيامه ، وحذر المجمع اليهودى من التحدث إلى هذا المارق أو الكتابة إليه ، ومن التعامل معه ، أو تقديم أية خدمة له ، أو العيش معه تحت سقف واحد ، فضلاً عن الامتناع عن قراءة كتبه .

وهذا الموقف اليهودى يفيد أن تنصّر اسبينوزا لم يكن إلا (تقية) اتبعها اليهود فى أسبانيا ، ورحلوا بها إلى هولنده ، ومن هذه التقية ما ذكره من أنه لولا اضطهاد المسيحيين لليهود لاندثر اليهودى ، وامتزج بغيره من الشعوب الأوربية ، ولو أن اليهود والمسيحيين عاشوا فى سلام ووئام ، وتبادلوا الحب والمودة ، لتخلوا عن تحيزاتهم وأفكارهم المتزمتة الجامدة ، ولأدرك اليهود أن المسيح هو أعظم الأنبياء ، وأغلبهم طرّا .. ورغم أن اسبينوزا ينكر ألوهية المسيح فإنه يراه سيد الأنام ، لأن الله كشف له عن حكمته الخالدة .

واسبينوزا فى الباب الأول من كتابه (الأخلاق)[1] يبحث (مشكلة الألوهية) ، ويعرض ستة تعريفات ، تشمل تعريفاً للجوهر ، وتعريفاً لله ، وفقاً لتقليد الفلسفة المدرسية ، التى تضع سبعة فروض أساسية ، لا تبرير لها ، ومن ثم يكون علينا أن نتابع استخلاص النتائج ، كما هو الشأن عند إقليدس ، إذ يبدو من الطريقة التى تم بها تعريف الجوهر أنه ينبغى أن يكون شيئاً يفسر نفسه بنفسه كلية .

ويدلل اسبينوزا على أنه يجب أن يكون لامتناهياً ، لأنه لو كان محدوداً لكان لتلك الحدود بعض التأثير عليه ، كما يدلل على أنه لا يمكن أن يوجد إلا جوهر واحد .. ويتبين لنا أن هذا الجوهر هو العالم كله ، وهو بالمثل الله ذاته ، ومن هنا فإن الله والكون ، أى مجموع الأشياء كلها ، واحد .. وهذه هى نظرية (شمول الألوهية) المشهورة عند اسبينوزا ، وإن سبقت فى كتابات غيره ، وبخاصة ديكارت .

وينبغى أن نؤكد أن العرض الذى قدمه لا يتضمن فى ذاته أى قدر من التصوف .. إن المسألة كلها تمرين فى المنطق الاستنباطى ، مبنى على مجموعة من التعريفات والمسلمات المعروضة ببراعة فائقة .. بل إنه لم يتجاوز مقولة (الفيزيقيين) التنويريين - فيما بعد - أن الطبيعة هى الله ، أو أن الكون محكوم بقوانينه (المادية) الثابتة ، أمّا أن يكون الله هو الخالق فقد تميز عن خلقه ، ومن ثم يمكن القول : إن اسبينوزا ينكر وجود الله ، لأنه - كما يقول العقاد (الله ص ١٧٦) - فسر كلامه بأنه (حاضر) في

---

(١) فى كتابى (اليهود .. من الجيتو إلى الفاتيكان) تناولت اسبينوزا من خلال كتابه (رسالة فى السياسة واللاهوت) .

الطبيعة ، لا ينفصل عنها ، ولا تنفصل عنه ، لأنه لا انفصال عن (اللانهاية) ، وهى الله .

ويقول العقاد : عقدة الإشكال أن اسبينوزا لم يُرد أن يفرق بين وجود الأبد ووجود المكان والزمان ، فالمكان يأخذ من المكان ، والزمان يلحق بما له حركة يَبْتدئ وتنتهى فى أمد محدود ، وليس للنهاية حيز يحوز عليه مكان ولا زمان ، فلا تناقض بين كمال الله ووجود الكائنات التى تتحيز فى فضاء محدود ، أو تجرى إلى أمد محدود .

أما مفهوم (الاتحاد) الصوفى فهو خاص بشعور المخلوق الذى يسمو بفكره ووجدانه إلى حيث يجد الله فى كل شئ ، فتفنى ذاته ، ولا يكون إلا الله ، سبحانه .

ويمضى اسبينوزا - فيما يرى رسل - فيبين أن الإنسان يكون فى حالة عبودية ، ما دام خاضعاً للمؤثرات والأسباب الخارجية ، وهذا يسرى فى الواقع على كل شىء متناه، ولكن بقدر ما يستطيع الإنسان تحقيق الوحدة مع الله لا يعود خاضعاً لهذه المؤثرات ، لأن الكون فى مجموعه لا يخضع لتحكم شيء ، وهكذا . فإن المرء - بتوافقه أكثر وأكثر مع الكل - يكتسب قدراً مناظِراً من الحرية ، ذلك لأن الحرية هى بعينها (الاستقلال) ، أو التحكم الذاتى ، وهو لا يصدق إلا على الله ، وعلى هذا النحو نستطيع أن نُحرِّر أنفسنا من الخوف .

● الشعور بالعبودية ، وإمكانية تحرير أنفسنا من الخوف ، يمثل كياناً مستقلاً إلى حد ما ، ويبقى الله الذى يملك (التحكم الذاتى) بيده ملكوت كل شيء ، ويبقى الإنسان - برغم طموحاته وادعاءاته - مجرد (ذرة) فى كون لا متناه ، قد تكون هذه الذرة ذات ملكات ومواهب ، لكنها ملكات ومواهب من (فيض الله) ، خاضعة لإرادته ومشيئته .

ويقول اسبينوزا - فى عَرض رسل - لما كان الشر سلباً أو عدماً ، فمن المحال أن يكون الله أو الطبيعة متصفين بالشر ، لأنهما لا يفتقران إلى شيء ، وكل شيء إنما هو على أفضل وجه فى هذا العالم الوحيد الممكن .

وبالمثل ، لا يمكن - من الناحية الأخلاقية - الاعتراف بأن الشر شيء سلبى فحسب ، فكل عمل من أعمال القوة المتعمدة مثلاً ، هو وصمة إيجابية ودائمة على

جبين العالم ككل ، ومن الجائز أن هذا هو ما تشير إليه المسيحية من طرف خفى فى نظرية الخطيئة .. يقول الله سبحانه فى القرآن الكريم : ﴿ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِى إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ﴾ . (سورة المائدة ، آية ٣٢) – وهذا يعنى أن الشر عدوان على المجتمع ككل ، فالطبيعة الإنسانية تستمرئه ، وتستجيب له ، أكثر مما تستجيب للخير وتستمرئه ، فالشر يعدى ، ومعظم النار من مستصغر الشرر .. الشر ثمرة الكبرياء الزائف ، والغرور ، والرغبة فى فرض وجود الفرد على غيره ، أو الجماعة على غيرها ، والطمع فيما يملك الآخر ، وهو إفراز للشعور بالإحباط ، وبالحرمان ، وبالإهمال ، وبالدونية ، وبعدم القدرة على تسمية الأشياء بأسمائها ، وعدم الاطمئنان إلى غد يحمل حلول مشكلاته ، أى الكفر برحمة الله وفضله وعدله ، ولهذا قالت الملائكة ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ ﴾ . (سورة البقرة ، آية ٣٠) .

لكن هذا لا يعنى (أن أية قوة لا يمكن أن تكون متعمدة ، إذا تأملناها من منظور الأزل) ، وكان الأولى أن يقول : (من منظور الماهية) ، حتى لا ينصرف مفهوم (الأزل) إلى ما هو أبعد من وجود الإنسان ، ولا أحد ينكر أن الإنسان محدث ، ، بل هو أحدث من كثير من (الحيوانات) بآلاف أو ملايين السنين .. أو حتى لا ينصرف (منظور الأزل) إلى قضاء الله وقدره ، مع أن المسئولية الجنائية فردية « ولا تزر وازرة وزر أخرى » فى شريعة الله .. ثم إن الإنسان لا يرتكب الشر إلا من خلال مجتمع ، فالأخلاق لا تنشأ إلا من خلال تفاعلات اجتماعية ، والأديان كذلك لا تمثل إلا منارات تضئ دروب المجتمع ، ودروب الإنسانية .

● فى كتاب (رواد الفلسفة الحديثة ص ١١٨/٩٥) يقدم شاخت نصوصاً تمثل المنطق الاستنباطى الذى اختاره اسبينوزا لبيان وحدانية الله ، وأن الخير ممثل فى إرادته .

ينص البرهان الأول الذى عرضه اسبينوزا على ما يأتى :

١ – أن تصور الله يعنى تصوره كجوهر .

٢ – ينتمى الوجود إلى طبيعة الجوهر .

٣ – ليس بالمقدور تصور الله إلا كموجود ، أما تصور عدم وجوده فيكون محالاً ، لأن إنكار وجوده يحتوى على تناقض ذاتى ، ومن ثم فإنه موجود .

وقال : (لما كانت هناك قوة تترتب على ما يكمن فى الوجود ، فإن ما يتبع ذلك هو أنه بمقدار ما يطرأ على طبيعة الشيء من زيادة ستحدث أيضاً زيادة فى قوته وقدرته على الوجود ، ومن ثم ستكون لكائن لا متناه ، مثل الله ، من ذاته وقدراته اللامتناهية ، القدرة على الوجود بصفة مطلقة ، ومن هنا فإنه موجود بإطلاق) .

(لقد بينت أن الله موجود بالضرورة ، وأنه واحد ، وأنه كائن ، اعتماداً على ضرورة طبيعته فحسب ، وبينت أنه العلة الحرة لجميع الأشياء ، وأن جميع الأشياء كامنة فى الله ، ومن ثم فإنها تعتمد عليه .. وأخيراً فإن جميع الأشياء قد حددها الله تحديداً مسبقاً ، لا بفضل إرادته الحرة ، أو أمره المطلق ، وإنما اعتماداً على طبيعة الله ذاتها) .

(إذا كان هناك جوهر واحد ، وإذا كان من المتعذر وجود جوهرين ، أو ثلاثة جواهر ، فإن ما يتبع ذلك إذن هو أن كل موجود يتعين – على نحو أو آخر – أن يكون جزءاً من هذا الجوهر الأوحد ، لأنه لو وجد شيء ما مستقلاً عن هذا الجوهر الأوحد ، فإنه سيكون جوهراً آخر ، أو جزءاً من جوهر آخر ، ولكن لما كان وجود جوهرين أو أكثر من الجواهر محالاً ، يتعيّن أن يكون كل شيء موجود جزءاً من الجوهر الأوحد ، ولما كان هذا الجوهر الأوحد بالاستطاعة تسميته إما بالله أو بالطبيعة ، فإن بوسعنا القول : إما أن كل ما هو كائن فى الله ، أو أن كل شيء عبارة عن جزء من الطبيعة أو جانب منها) .

هذا القول حوّل أن (المخلوق) جزء من الخالق ، وأن الجزئية لا تفيد استقلالاً ، وأن الجوهر الواحد يمكن تسميته بالطبيعة – ينتهى إلى أن الله هو الطبيعة ، أو أنه لا إله إلا الطبيعة .

ومن عجيب قوله : إن الله (واحد لا يقبل القسمة) ، مع أن مفهوم التجزؤ قسمة، لكنه يظل يدور ليخرج من هذا المأزق ، فيصل إلى أن (هذه الحالة يستطاع تمييز أجزائها ، لا من الناحية الفعلية ، وإنما من ناحية الأحوال التى تتعرض لها) .

حتى هذه (الأحوال) مهما كانت ماهيتها ، إذا كان لها تأثير على الجزء ، فإن الكل سيصيبه قدر من هذا التأثير ، قلّ أو كثر .

ثم يقول : (يمكن التفرقة بين الأجسام بعضها وبعض ، من ناحية الحركة والسكون ، والسرعة والبطء ، وليس من ناحية الجوهر) .

وإذا صح هذا يكون (التمايز) أو التغاير لوناً من الاستقلال ، إلا إذا كان خاضعاً لقانون عام ، كحركة الترس أو المسمار فى آلة ، ومن ثم يتحول التمايز إلى تكامل ، وتحتاج الحركة والسكون إلى من (يدير) هذه (الآلة) ، ويتحكم فيها ، وهو لا شك مغاير لها ، قادر عليها .

وينزع اسبينوزا منزعاً آخر ، يقول : (ليس باستطاعة العقل أن يدفع الجسم للحركة أو السكون ، لأن ما يراه هنا - بكل بساطة - هو أنه لما كان الاثنان شيئاً واحداً ، فما معنى أن يقال إن أحدهما يدفع الطرف الآخر لفعل هذا أو ذاك ، إن هذا قد يصح عندما يكون الكلام خاصاً بشيئين متمايزين ، كالقول مثلاً بأن جسماً يدفع جسماً آخر للحركة ، فى اتجاه ما ، ولكن لما كان العقل والجسم ليسا كيانين متفردين متمايزين ، لذا فلا معنى لأن يقال إنهما يتبادلان التأثير) .

(وطبقاً لهذه النظرة ، فإن الأفكار التى حصل عليها فى مختلف الأوقات لن تزيد عن كونها انعكاسات ذاتية للتغيرات التى تطرأ على حالاتنا الجسمية ، فإذا تغيرت حالتى الجسمية ، على نحو ما ، وإذا لم يكن جسمى شيئاً أكثر من فكرة مركبة لهذا الشيء المركب - أى جسمى - فإن ما يتوقع لن يتجاوز انعكاس هذا التغير فى الحالة الجسمية ، فى هذه الفكرة المركبة - أى عقلى) .

(العقل الإنسانى قادر على إدراك العديد من الأشياء ، ويتناسب ذلك طردياً مع قدرة الجسم على تلقى العديد من الانطباعات ، وكلما ازداد تركيب الجسم ازدادت سبل تأثره ، وازداد تنوع المدركات بالتبعية) .

و (عندما يتوافر لجسم ما لياقة أكبر من الأجسام الأخرى تساعده على القيام بأفعال أوفر ، وعلى تلقى العديد من الانطباعات فى الوقت نفسه - فإنه ستتوافر للعقل أيضاً أكثر من العقول الأخرى القدرة على تكوين العديد من المدركات الأنيّة) .

(إن أفكارنا تترتب إما بتأثير المنبهات الخارجية والقوانين السيكلوجية ، أو بفعل القوانين المنطقية ، وعندما تترتب هذه الأفكار تبعاً لقوانين المنطق ، فإنها تساعدنا على الاقتراب من نوع الحرية التى يتمتع بها الله ،إنه حر ، لأنه يخضع لقوانين طبيعته العقلانية فحسب ، نعم ، إننا سنصبح أحراراً ، بمقدار تنظيم أفكارنا فى نسق ، وفقاً للقوانين نفسها ، وهذا نوع من الحرية ، لأن هذه القوانين ليست من القوانين التى تنسب لطبيعة وجود غريب عن أنفسنا) .

الحديث عن العقل والمؤثرات المحسوسة وغير المحسوسة ، لم يزد على ما قاله فلاسفة اليونان منذ نحو ألفى عام ، من زمن اسبينوزا ، ومحاولة الربط بين العقل من جسم الإنسان وبين العقل الكونى الذى هو الله ، سبحانه ، سبق إليه فلاسفة اليونان كذلك .. لكن أن يصدر هذا عن يهودى ادعى التنصر ، فهو ما يذهب مذهب الشيطان ، كما وصفه قومه .

● ويتتابع التنويريون قرباً وبعداً ، من ديكارت وسبينوزا ، أو قرباً وبعداً من الاعتراف بوجود الواحد الأحد ، وإنكار وجوده ، أو مزجه بالطبيعة ، بحيث لا ندرى أهو هى ، أم هى هو .

ونصل إلى توماس جفرسُن ، ممثلاً الفكر المهاجر إلى (الأرض الجديدة) ، أمريكا ، أرض المال ، ورعاة البقر ، والمافيا ، أرض الطموحات الطاغية الباغية ، أرض المهاجرين ، مستعمرين ، وهاربين مجرمين، وتجار رقيق وأرقاء ، شراذم شراذم من كافة الأنحاء ، صنع المال بهم دولة ، وصنعت الدولة بالمال وحشاً خرافياً ، وتمثالَ (الحرية) الملتف بأعلام العدل وحقوق الإنسان ، بينما يدوس بقدميه كل القيم والمبادئ .

نقل (برنتن) عن جفرسن قوله : (إن القسيس فى كل بلد وكل عصر من أعداء الحرية ، وهو دائماً حليف الحاكم المستبد ، يعينه على سيئاته ، فى نظير حمايته لسيئاته هو الآخر) .

وعلق عليه بقوله (أفكار ورجال ص ٥٠٢/٥٠٨) : يستعمل جفرسن هنا لفظ (القسيس) بطبيعة الحال ، بمعنى عام ، ليدل به على أى رجل من رجال الدين ، وليس فى عبارته مبالغة قط ، وإنما هى تقع وسطاً بين فولتير ، من ناحية ، عندما يقول :

(دعنا نلتهم بعض الجزويت) - وهناك من التطرف ما هو أشد من ذلك افتراساً - وبين الديانة الطبيعية من ناحية أخرى ، أو مذهب الاعتقاد فى الله ، مع إنكار الوحى الذى أخذ به بعض الكاثوليك ، من أمثال اسكندر بوب .

إن المسيحية وعقيدة حركة التنوير كلاهما من العقائد الفعالة التى تدعو بشدة إلى رفع شأن الإنسان ، كلاهما يهدف إلى التطهير القوى بطريقة ما ، ولكليهما أهداف أخلاقية أساسية ، يرميان بها إلى السلام ، وإلى إشباع حاجات الجسد باعتدال ، وإلى التعاون الاجتماعى والحرية الفردية ، وإلى حياة هادئة ، ولكنها ليست كئيبة ، وكلاهما يتخيل الرذيلة على صورة واحدة .. ولما كان **كلاهما ديناً مكافحاً** ، فإنه يفيد من هذه الصورة أكثر مما يفيد من صورة الفضيلة ، يفيد من كفاحه ضد القسوة ، والآلام ، والغيرة ، والغرور ، والأنانية ، والاستهتار ، والتكبر ، والتجبر ، وغير ذلك من الرذائل التى نعرفها جميعاً !!

وإذا كانت عقيدة حركة التنوير ضرباً من ضروب المسيحية ، وتطوراً لها ، فهى من وجهة نظر المسيحية التاريخية فى العصور الوسطى ، وفى عصر النهضة - زندقة ، أو تحريفٌ للمسيحية ، ومن وجهة نظر الكلفنية كفر بالله .

إن عقيدة حركة التنويرلا تفسح مجالاً لإله شخصى يمكن الوصول إليه بالصلاة الإنسانية ، إله لا تحيط به حدود ، أو أية قاعدة من القواعد التى يكشف الناس عنها عندما يدرسون أنفسهم ، ويدرسون بيئتهم ، وهى لا تسمح بوجود غير الطبيعى فوق الطبيعى .

إن عقيدة التنوير - بسبب تحالفها الوثيق مع العلوم الطبيعية ، ومع التفكير المجرد عامة - تميل إلى حد ما حتى تكون أكثر معقولية ، من أشد المتطرفين المسيحيين التطفليين ، وتميل إلى أن تكون أقرب إلى الاستسلام الصوفى الذى نجده فى التجربة المسيحية أمراً مستحيلاً .

إن المسيحية وحركة التنوير كلتيهما تحفل كثيراً بمكانة الإنسان فى التاريخ ، وإن لكلتيهما فى الواقع فلسفة للتاريخ ، وإن كلتيهما تعد نهاية سعيدة .

● كان أولى بكرين برنتن أن يتم قوله بأن الوسيلة المسيحية يسيطر عليها طغيان البابوات ، أما الوسيلة التنويرية فهى أشبه بفأس حفارى القبور .

ثم إن الحديث عن التنويرية كحركة واحدة ، على مثال الحديث عن المسيحية ، كدين واحد ، يعد ضرباً أو ضروباً من المغالطة ، فكما أن التنويريين تغلب عليهم الفردية، والنزوع منزعاً (شخصياً) نجد المسيحية فرقاً وأشياعاً يضرب بعضهم وجوه بعض ، ويلبس كثير منهم (الفراء بالمقلوب) !!

• • •

الاستشراق

- ١ -

الشرق حيث تشرق الشمس ، والغرب حيث تغرب .. هذا تعريف لا يحدد مكاناً ثابتاً فوق كرة تتدحرج ، أو تدور حول نفسها أمام الشمس .. ولهذا يقف التمييز عند العرف السياسى الذى صنعه المستعمرون الأوربيون .. ومع أن التاريخ اليونانى يتحدث عن الشرق الآسيوى المتصف بالحكمة ، فإن الاستعمار الأوربى الذى مدّ ذراعيه حول آسيا وأفريقيا ، وظل يمتص الدم المتدفق فى عروقهما - هبط بمفهوم الشرق إلى حد التخلّف والغفلة وعدم القدرة على النمو ، مع أن هذا كله يمثل مرحلة متأخرة فى تاريخ القارتين ، منذ اتصل مصير القارتين بالأطماع الأوربية ، ومن ثم يدمغ (التفوق الأوربي) بالوحشية والعنصرية ، وباستنزاف ثروات الآخرين ، وبمحاصرة قدراتهم الذاتية والطبيعية قروناً طويلة .

لقد ربط الغرب الاستعمارى علاقته بالشرق الأفريقى / الآسيوى بمدى القرب منه والبعد عنه ، فكان الشرق الأدنى ، والشرق الأوسط ، والشرق الأقصى ، ثم شرق أوربا ، حيث كانت (الكتلة الاشتراكية) ذات أنياب ومخالب (نووية) .. وظل الغرب يتعامل مع كل قسم بسياسة خاصة ، رسمتها الدراسات (الاشتراكية / التبشيرية) على مدى تاريخ (سَيِّئ السمعة) .

وقد اتسعت الدراسات لتشمل اللغة والدين والعادات والتقاليد والعلوم والمعارف والتاريخ والآداب ، وطبيعة الأرض والحيوان والنبات ، والمناخ والآثار والأساطير .. وكل ما يعرّف بمصادر القوة والضعف .

واتسمت هذه الدراسات (الشمولية) بالجدية ، وبالتزييف ، وفقاً للأهداف المنوطة بالدارسين .

ومن ثم لم تقتصر الدراسة على العلماء والمؤرخين والمنقبين عن الآثار ، وعلى رجال الدين المسيحى ، بل شملت العسكريين والجواسيس ، وخبراء الزراعة والاقتصاد والمعلمين والتجار والرحالة والمغامرين .

واتسعت المدن والقرى والجبال والصحارى والأنهار والبحيرات والبحار والموانئ والمعابد والمدارس والجامعات والمصانع والمزارع - لكل أسراب الجراد الأوربى .. هجمات متتابعة مقننة مدروسة مزودة بكل وسائل النهب والابتزاز والهدم والتخريب ، بالمدفع والأفيون والحشيش ، وبالفتن والدسائس ، وبالعملاء والخونة ، وإشاعة العداوات الطائفية ، وتفتيت الروابط القومية ، والروابط الجغرافية والتاريخية والاقتصادية ، حتى يسهل الابتلاع ، وحتى يسلس القياد ، وحتى تظل الأشرعة المحملة بكافة الثمرات تتجه (غرباً) .

● يقولون : إن للاستشراق (سبعَ فوائد) ، أو سبع دوافع رئيسية : نفسية ، وتاريخية ، واقتصادية ، وأيديولوجية ، ودينية ، واستعمارية ، وعلمية .. وبجانبها دوافع ثانوية ، وهى أسباب شخصية مزاجية ، عند بعض من يتهيأ لهم الفراغ والملل ، واتخذوا الاستشراق وسيلة لإشباع رغباتهم الخاصة فى السفر والترحل بين شعوب (الأنتيكات) ، أو فى الاطلاع على ثقافات العالم القديم ، واسترواح أنسامه ، والاستمتاع بأحلامه وآلامه .. ويبدو كذلك أن فريقاً دخل ميدان الاستشراق طلباً للاسترزاق ، عندما ضاقت بهم سبل العيش ، أو دخلوه عندما قعدت بهم إمكانياتهم الفكرية عن الوصول إلى مستوى العلماء فى الميادين الأخرى ، أو دخلوه تخلصاً من مسئولياتهم الدينية المباشرة فى مجتمعاتهم المسيحية .

وهذا التعريف مرتبط بأولئك الذين طفوا على سطح هذا الطوفان الجارف ، يحملون أقلاماً .. وهذا ما يؤكده قول المستشرق م. جويدى : (المستشرق الجدير بهذا الاسم ليس ذلك الذى يقتصر على المعرفة ببعض اللغات الغربية ، أو ذاك الذى يستطيع وصف العادات والتقاليد التى تتبعها بعض الشعوب الأجنبية ، بل ذاك الذى يقوى على الجمع بين دراسة بعض الجوانب من الشرق ، وبين معرفة القوى الروحية والمعنوية الكبرى التى أثرت على تكوين الثقافة البشرية .. إنه ذلك الذى نهل من معين

الحضارات القديمة ، واستطاع أن يقيّم أدوار مختلف العوامل التى ساهمت فى تكوين حضارة القرون الوسطى ، أو حضارة النهضة الحديثة) .

إنه يشير إلى أهمية دراسة (القيم الروحية) التى تبثها الأديان - سماوية كالإسلام ، وغير سماوية كالبرهمية والبوذية والكونفوشية - فى بناء تلك الشعوب (الشرقية) ، حتى يمكن زلزلة هذه المعتقدات فى نفوس أبنائها ، وحتى يمكن شغل الفراغ الروحى بكل زيف المدنية والعلمانية ، والاستمتاع بكل ما تبدع الحضارة الغربية من شرور وآثام .

ولما كان المغلوب يقع فى هوى الغالب ، مقلداً تقليد الغراب للطاووس ، فقد سهل على المستعمر أن يتحرك بحركة تابعيه ، وأن ينطق بلسان أبواقه ، وأن تفتح له أكثر الأبواب بمفاتيح أوليائه ومريديه !!

● وما ذكره جويدى يتجاوز تعريف قاموس أكسفورد الجديد ، أن (المستشرق من يتبحر فى لغات الشرق وآدابه) ، ويتجاوز قول بارت : (كلمة شرق تعنى مشرق الشمس ، فالاستشراق هو علم الشرق ، أو هو علم العالم الشرقى) .

ويؤرخ رودنسون لظهور الاستشراق بأن (كلمة مستشرق ظهرت فى اللغة الإنجليزية حوالى سنة ١٧٧٩ ، كما دخلت كلمة الاستشراق معجم الأكاديمية الفرنسية فى سنة ١٨٣٨ ، وتجسدت فى فكرة نظام خاص مكرس لدراسة الشرق ، ولم يكن المتخصصون بعد من الكثرة بحيث يمكنهم تشكيل جمعيات أو مجلدات متخصصة فى بلد واحد ، أو شعب واحد ، أو منطقة واحدة من الشرق ، ومن ناحية أخرى ، كثيراً ما كان أفق هؤلاء المستشرقين يشمل كثيراً من المجالات ، بطرق غير متوازية فى عمقها) .

ويضيف الدكتور اللبان : أن الاستشراق (يشمل طوائف متعددة ، تعمل فى ميادين الدراسات الشرقية المختلفة ، فهم يدرسون العلوم والآداب الخاصة بالفرس والهند والصين واليابان والعالم العربى ، وغيرهم من أمم الشرق) .

وكان أول من حاول أن يرقى بالدراسات الشرقية ، فيجعل منها أداة لحرب صليبية هادئة ، تعتمد على أسلحة روحية خالصة - روجر بيكون (١٢١٤/١٢٩٤) الذى كان يرى أن التنصير هو الطريقة الوحيدة التى يمكن بها توسيع رقعة العالم المسيحى .. ولبلوغ هذه الغاية لابد من توفر شروط ثلاثة ، هى :

١ - معرفة اللغات الضرورية .

٢ - دراسة أنواع الكفر، وتمييز بعضها من بعض .

٣ - دراسة الحجج المضادة حتى يمكن دحضها .

وقد شارك بيكون فى أفكاره رجل ولد فى جزيرة ميورقة الأندلسية . يدعى رايموند لل Lullus (١٢٣٥/١٣١٦) ، مطران طليطله ، فقد أسس عام ١٢٧٩ كلية الرهبان فى ميرامار ، لدراسة اللغة العربية ، وفى عام ١٣١١ - ولعله بإيعاز من (لل) - قرر مجلس ڤيينا إنشاء كراسى للغات الشرقية (العربية والتترية) ، فى جامعات باريس ، ولوفا وسلامنكا .. وقد دفعته غيرته الدينية إلى الاستشهاد فى تونس عام ١٣١٦ ، ولم ينتج عن جهوده هذه شيء يستحق الذكر .

وبعد أن اتضح لأوربا فشلها فى السيطرة على بلاد الشام - خاصة بعد معركة حطين سنة ١١٨٧ - كان التفكير فى الاتصال بالمغول ، أملاً فى أن يكونوا أتباعًا للسيد المسيح ، وأن يكونوا عوناً على القوى العربية الإسلامية فى الشرق .

وكان أول (المبشرين) كاربينى الذى أرسله البابا إنوسنت الرابع (١٢٤٣/١٢٥٤) فى سنة ١٢٤٥ .

ثم أرسل لويس التاسع بعثتين إلى المغول ، الأولى سنة ١٢٤٩ ، كان على رأسها أندراوس ، والثانية سنة ١٢٥٥ ، كان على رأسها روبركس الذى عاد إلى أنطاكية ، وأرسل إلى لويس التاسع تقريراً وافياً عن دولة المغول .

وفى سنة ١٢٨٩ أرسل البابا (يوحنا أوف مونت كروفينو) الذى استطاع أن يؤسس الكنيسة اللاتينية فى الصين ، وأن يصبح أسقف كمبالوك (بكين) ، يعاونه ثلاثة من الرهبان الفرنسيسكان .. وقد رافق هذه الإرسالية تاجر إيطالى وبعض الملاحين الإيطاليين .

وبعد أن حقق (آل بولو) حظاً من التوفيق فى رحلاتهم ، حتى كان لهم شأن مع ملك المغول ، استطاعت شركة من جنوه أن تمخر مياه بحر قزوين ، وعُين قنصل بندقى فى تبريز .

لكن فى سنة ١٣١٦ اعتنق الإسلام خانات المغول فى فارس ، فخابت المساعى الإيطالية .

وفى منتصف القرن الرابع عشر عمّ الإسلام وسط آسيا .

وبين سنتى ١٣٦٨ و ١٣٧٠ أغلقت أسرة (منج) الوطنية الصينية الأبواب فى وجه الأجانب .

وكانت الخاتمة أن قطع السبيل على المسيحية ، ومهد الطريق للإسلام الذى بلغ شأواً بعيداً من الاتساع ، وترامت أطرافه بفضل الأتراك العثمانيين .

● كان ثمة أربع طرق للاتصال بالشرق ، ظل المستشرقون يطرقونها ملحّين ، بالرغم مما أصابهم من فشل ذريع :

١ - الطريق البرى الشمالى ، من الصين إلى البحر الأسود ، أو جنوب روسيا رأساً .

٢ - الطريق البرى الأوسط ، من الصين إلى إيران والعراق وبلاد الشام .

٣ - الطريق البحرى ، من البحار الشرقية إلى الخليج العربى ، ثم بلاد الشام .

٤ - الطريق البحرى ، من البحار الشرقية إلى البحر الأحمر ومصر .

وكل من هذه الطرق تلقى بتجارتها إلى موانئ البحر المتوسط ، حيث تنتقل إلى أوربا ، كما كانت هذه الموانئ تتلقى السلع الأوربية لتبعث بها إلى الشرق ، ومن هذه السلع ما كانت تحمله الإرساليات الدينية المرافقة إلى بلاد الشرق .

ولأن أكثر الموانئ ومحطات البر كانت تحت سيطرة المسلمين ، أو الجاليات الإسلامية ، فقد أحيط بدعاة المسيحية ، أو بالمبشرين والمستشرقين الذين تكشفت وسائلهم (الاستعمارية) الاستعلائية التى لا تكف عن إعلان التفوق الغربى (المسيحي).. وفى مرحلة تالية استعانوا بالقدرة العسكرية لفرض وجودهم ، وفك الحصار حول دعاتهم وادعاءاتهم .

يعترف المؤرخ السياسى (جيزو) الذى رأس وزراء فرنسا فى عهد محمد على باشا ، بأن (الغرب كان حريصاً على أن يفتت أجزاء الإمبراطورية العثمانية ، وفى الوقت نفسه يستبقيها فى حالة احتضار دائم ، دون أن يجهز عليها ، لا لغرض ،

إلا لتبقى سيطرتُها على البلاد العربية عقبةً أمام تحرر هذه البلاد ، وحائلاً دون نهضتها .. ومن أجل هذه الغاية درجت سياسة الغرب على الاحتفاظ بتركيا ضعيفة) .

إنها نفس السياسة الأمريكية اليوم التى أشعلت حرباً بين العراق وإيران ، لتستنزف قواهما ، ولتروّج أسلحتها ، ثم غررت بحاكم العراق ليهاجم الكويت ، حتى تثبت لها قواعد عسكرية بين حقول النفط ، وظلت تحاصر العراق سنوات ، تفتش القبور والقصور عن أسلحة مخبأة ، لتحشو قلوب الحكام العرب والمسلمين بالرعب ، وتروضهم على الطاعة والاستسلام ، ولتضخ الزيت العربى والثروات العربية فى المصارف الأمريكية .

وهو هو الهدف من زرع إسرائيل (واسطة عقد) الكيان العربى ، لتظل شغلهم الشاغل ، فتتسع سوق السلاح الذى لا يلبث أن يفقد صلاحيته ، ومن ثم يفقد العر ب القدرة على استعادة حق ، أو على التعامل مع (المشكلات) التى لا تفتأ تتنامى ، ولا تأتى فرادى .

إنها نفس اللعبة الاستعمارية القديمة (فرق تسد) ، أو نشر السموم البيضاء والسوداء ، والأوبئة ، وإثارة الحروب الداخلية ، طائفية وقبلية ودينية ، فى جنوب السودان ، وكشمير ، والبوليساريو ، والأمازيجية ، وجزر موسى ، وجزر مدخل البحر الأحمر ، وتيمور الشرقية .

إنها الأخبار (المصبّغة) عبر الأقمار الصناعية ، وأفلام الجريمة ، والصور الفاجرة ، والأفكار الملوثة عبر شبكات الإنترنت ، وبث لغات (المستعمر) وثقافته ، باسم المدنية والحضارة ، من خلال الإذاعات والمعاهد اللغوية والمدارس الخاصة ، والجامعات الخاصة .

إنها القروض المشبوهة والخبراء الذين يستولون على القروض ، إنها معونات البذور الملوثة بميكروبات تفسد الأرض والزرع والضرع ، وتنشر أمراض الكبد والكلى ، إنها الأسمدة المطعمة بالهرمونات القاتلة ، والأدوية التى انتهت صلاحيتها واللحوم الفاسدة ، وشركات الاستثمار التى لا تصنع عجلة أو ترساً ، بل هى المشروبات (الغازية) - من الغاز والغزو - ومطاعم تملأ الشوارع والميادين ، تحشو بطوناً وتفرغ عقولاً .

ويأتى التشكيك فى قيم الشعوب المغلوبة ، والسخرية منها ، ومن دينها وعاداتها ، وتقاليدها ، مع الحرص على تدريب باحثين ودبلوماسيين ومهنيين ، عن طريق المعاهد العلمية والتربوية والثقافية ، المنتشرة فى أنحاء العالم (النامى) المتخلف (المحاصر) ، وعن طريق القنصليات والبعثات والمنح المشبوهة ، وتبنى المارقين والمتسلقين والطفيليين، وغرسهم فى وسائل الإعلام ، وفى دور الثقافة ، وفى مواطن (صنع القرار) ..

فى إحدى البلاد العربية ، ورد من فرنسا - فى وقت واحد - رئيس وزراء ووزير ، وشاعر يعمل فى كبرى الصحف ، ويدير مجلة شهرية ، وناقد يعمل فى كبرى الصحف ، ويدير مجلة شهرية .. و (الجوقة) تتضخم وتنتشر ، وتمسك باللحى ، وبالحرمات ، وبالرموز الدينية ، وبالثوابت ، والمسلمات ، وفاز الجميع بالأنواط والجوائز ، وبالرضى التـــام .

وفى إحدى البلاد العربية ، هاجم (قاضى الشرع) الخلافة الإسلامية ، وانتهك حرمة عدد من الصحابة ، فلما ثارت ثائرة القوم طافت به أمريكا فى محافل الغرب الأمريكى ، والغرب الأوربى ، ليحاضر فى (مزاعم) الخلافة و (مباذل) الصحابة ، وليختزن العملات (الصعبة) ، ويعود ليصير أحد الكتاب (الرسميين) .. وقد شجع هذا (جامعياً) على مهاجمة (القرآن) ، زاعماً أنه ليس وحياً إلى الرسول (محمد) ﷺ ، وأن محمداً خاطب به العرب (دون سواهم) ، ولما ثارت ثائرة القوم ، وحكمت المحاكم بردته ، التقطته (ماما أمريكا) ، وأسكنته فسيح جناتها ، فى إحدى الجامعات الأوربية.. وتشجع (متطفل) على صناعة القلم ، فملأ عدة صفحات بالمهاترات ، سخر فيها من (أولى العزم من الرسل) ، ومن معجزاتهم ، فقضى عليه القضاء بالسجن عدة سنوات ، لكن (ماما أمريكا) التقطته ، واحتالت له ، فعينته (محاضراً) فى إحدى الجامعات الأوربية ، ورصدت له إحدى الجوائز بآلاف الدولارات .. وهل ننسى ما صنعت أوربا وأمريكا بسلمان رشدى الذى استقبله الملوك ، وأحاط به (الحرس) حيث سار ، لأنه سخر من الرسول محمد ﷺ ، فتبعته (تسليمه) وإن لم تظفر بما ظفر به .. ويبدو أن ذوى الحمية الدينية والحماسة الإسلامية قد حقنوا بمواد (مخدرة) بحيث لم يعودوا يرفعون إصبعاً فى وجه المارقين والمجدفين ، حتى امتلأت الساحة بالكتابات الفاجرة ، ومازالت الحبال الصوتية ملتصقة بالحلوق .

قد يكون السيف المصلت على الرقاب ، باسم (الإرهاب الإسلامى) من عوامل (الصمت التام أو الموت الزؤام) .

إن هذا (الإرهاب) روجت له كافة وسائل الإعلام الأجنبية ، وبالتبعية كافة وسائل الإعلام الوطنية ، وما هو إلا صناعة إبليسية تدليسية أمريكية أوربية (يهودية مسيحية)، من أجل تشويه صورة الإسلام ، ومن أجل تمزيق القوى الإسلامية ، ومن أجل شغل الحكومات الإسلامية بأمنها الداخلى ، حتى صار رجال الأمن هم الأكبر عدداً ، والأكثر تميزاً ، (وبعشرى يا من تنفقين من جيب الميرى) ، خصماً من حاجات الشعب الضرورية.

● إن الحروب الصليبية - منذ القرن الحادى عشر - لم يُرد بها تخليص بيت المقدس من أيدى المسلمين فقط ، لأن المسلمين لم يمنعوا المسيحيين - من كافة الأنحاء - أن يحجوا ويمارسوا شعائرهم وطقوسهم فى الأماكن المقدسة داخل الأراضى الإسلامية ، حتى بعد هذه الحملات العسكرية التى ارتكبت أشنع الجرائم ، عدة قرون.. بل أريد بهذه الحروب الصليبية القضاء على الإسلام ، ليس ثأراً مما حدث فى أسبانيا أو قبل ذلك فى مصر والشام ، أو بعد ذلك فى البلقان ، بل لأن القيم الإسلامية تمثل العقبة الرئيسية دون السيطرة العالمية ، بالرغم من سقوط كل القلاع والحصون .

إنهم على يقين من أن الرياح الإسلامية التى عصفت بالإمبراطوريتين : الفارسية والرومانية ، لا تزال قادرة على أن تعيد سيرتها الأولى ، إذا ما تم توحدها وتضفير قواها (الروحية) ، وتطهيرها من الأوشاب التى حاولت (القوى اليهودية المسيحية) بثها فى أكنافها بكل الوسائل غير المشروعة ، مادية ، وثقافية ، وتعليمية ، وسياسية .

إن الإسلام - بالرغم من كل الوسائل (الشيطانية) - لا يزال يكسب أرضاً جديدة، ليس فى أفريقيا وآسيا فحسب ، بل فى داخل أوربا وأمريكا .. إنه الحق الذى لابد أن يظهر ، ولابد للباطل أن يزهق .

● تزعمت فرنسا النشاط الاستشراقى ، فدعا العالم الفرنسى ليون دى روزنى إلى عقد مؤتمر فى باريس سنة ١٨٧٣ ، حضره جميع مستشرقى أوربا ، لتبادل الآراء ، وعرض المقترحات ، لتدعيم الجهود الاستشراقية وتنسيقها .

وتتابعت المؤتمرات فى العواصم الاستعمارية المختلفة ، وشارك علماء وأدباء من العرب فى كثير منها ، مثل أحمد شوقى ، وأحمد زكى ، وأحمد تيمور، وعبدالله فكرى ، وحمزة فتح الله ، وحفنى ناصف ، وأمين الخولى ، والشيخ المراغى .

وفى عام ١٨٨٧ أنشأ الفرنسيون جمعية للمستشرقين ، ألحقوها بأخرى أنشئت عام ١٨٢٠ ، وتم إصدار (المجلة الآسيوية) .

وفى لندن تألفت جمعية لتشجيع الدراسات الشرقية سنة ١٨٢٣ ، وأصدرت (مجلة الجمعية الآسيوية الملكية) .

وفى عام ١٨٤٢ أنشأ الأمريكيون جمعية ومجلة باسم (الجمعية الشرقية الأمريكية) .

وفى العام نفسه أصدر المستشرقون الألمان مجلة خاصة بهم ، كذلك فعل المستشرقون فى كل من النمسا وأيطاليا وروسيا .

ومن المجلات التى أصدرها المستشرقون الأمريكيون (مجلة جمعية الدراسات الشرقية) ، ولها فروع فى لندن ، وباريس ، وليبزيج ، وتورنتو فى كندا .. وفى الوقت الحاضر يصدر المستشرقون الأمريكيون (مجلة شئون الشرق الأوسط) ، و (مجلة الشرق الأوسط) ، وجميعها مطبوع بالطابع السياسى .

وأخطر المجلات التى يصدرها المستشرقون الأمريكيون - منذ سنة ١٩١١ - مجلة (العالم الإسلامى) ، وهى ذات توجّه تبشيرى سافر .

وأبرز النشاط الاستشراقى تمثل فى إصدار (دائرة المعارف الإسلامية) ، بعدة لغات ، وهى مرجع كثير من المسلمين فى دراساتهم ، مع ما فيها من خلط وتحريف وتعصّب سافر ضد الإسلام والمسلمين .

واستطاع المستشرقون التسلل إلى المجامع اللغوية ، فى كل من القاهرة ودمشق وبغداد .

وبلغ عدد المؤتمرات التى عقدت حتى حرب (١٩١٤/١٩١٨) ستة عشر مؤتمراً ، آخرها فى ڤيينا سنة ١٩١٢ ، ولم ينعقد منذ ذلك الحين أكثر من أربعة مؤتمرات .

ومن أهم المؤتمرات ما عقد بالقاهرة سنة ١٩٠٦ ، إذ بحث فيه المبشرون والمستشرقون مشكلات شتى ، غير أن المسألة الإسلامية أخذت جُلّ أوقاتهم ، وكانت

جوهر مناقشاتهم ، حيث درسوا مشكلة مواجهة الإسلام ، وسرعة انتشاره ، باعتبار أن (الدين الإسلامى هو العقبة القائمة فى طريق التبشير بالنصرانية ، والمسلم فقط هو العدو اللدود لنا) .

وكان الاهتمام بالمرأة الأم ، المنجبة ، المربية ، (الجاهلة) ، القادر على (هدم) كيان الأسرة !!

ومن هنا كانت أهمية وأولوية (جلب النساء المسلمات للمسيح .. إن عدد النساء المسلمات كبير جداً ، فكل نشاط للوصول إليهن يجب أن يكون أوسع مما بذل إلى الآن.. نطلب من كل هيئة تبشيرية أن تحمل فرعها النسائى على العمل ، واضعة نصب عينيها هدفاً جديداً هو الوصول إلى قلوب كل نساء العالم المسلمات ، فى هذا الجيل) ، ومن هنا كانت أول مدرسة للبنات فى الإمبراطورية العثمانية فتحها المبشرون فى بيروت عام ١٨٣٠ ، كما فتحوا مدارس كثيرة للبنات فى مصر وسوريا والسودان والهند وبلاد الأفغان .

وأرسلوا الطبيبات المبشرات إلى البيوت والقرى ، للاتصال مباشرة بالنساء ، واستخدام نفوذ المرأة فى الوصول إلى أهدافهم (النبيلة) .

وكانت الدعوة إلى تحرير المرأة - بالمفهوم المطلق - أشبه بزيادة جرعة الدواء ، فأحدثت بلبلة واضطراباً فى نفوس الرجال والنساء على السواء ، كما حدث أخيراً من الدعوة إلى أن تكون الشقة من حق الزوجة التى أدت إلى تصدير الرجال فى أكياس البلاستيك ، وتمزق أسر كثيرة ، وضياع كثير من حقوق الزوجين والأولاد ، بسبب ما أصاب القضاء ، نتيجة كثرة القضايا ، وكثرة القوانين ، وقلة القضاة ، وبسبب التطلعات المادية غير المشروعة ، عَبر أجهزة التقاضى : الشرطة ، النيابة ، قلم المحضرين ، المحامين ، سكرتارية القضاء ، القضاة !!

واقترح المبشرون جامحة نصرانية ، تهتم بإتقان تعليم اللغة العربية وعلومها وآدابها ، تشترك فى نفقاتها جميع الكنائس ، دون نظر إلى اختلاف المذاهب ، حتى تمكن منافسة الجامعات الإسلامية (العتيقة) .. وبعد مناقشات مستفيضة ، أشار أحد أعضاء المؤتمر إلى خطة بناء السكة الحديدية التى تربط القاهرة ببلاد (الكاب) ،

فى جنوب أفريقيا ، (غير أن هذا الخط الجديد يجعل من القاهرة مَحجاً للمسلمين المنتشرين ، من جنوب أفريقيا إلى شمالها ، فيصعب نشر التبشير حينئذ من الكاب إلى القاهرة) ، وأردف التقرير (أن من سداد الرأى منع جامعة الأزهر من أن تبعث المتخرجين فيها إلى جنوب أفريقيا ، تنفيذاً لقرار مؤتمر التبشير العام ، لأن الإسلام ينمو بلا انقطاع فى أفريقيا) .

يقول أ. ل. شاتليه فى كتابه (الغارة على العالم الإسلامى) ، نقلاً عن سمايلوفيتش (ص ١٣٦) : (دخلنا بعد مؤتمر القاهرة فى دور جديد ، ظهرت فيه أهمية تنصير المسلمين ، وشعر زعماء التبشير أن الكنيسة لابد لها من سَبْر غَوْر المسألة الإسلامية ، وأن تحسن العناية بتربية المبشرين ، وتتوقع خيراً من أعمالهم .. وفكرة تنصير المسلمين تقتضى إيجاد ميدان مشترك للعمل ، تتضافر فيه الأفكار والبحوث والجهود) .

وفى عام ١٩١١ عقد المبشرون المؤتمر التالى فى (لنكو) بالهند ، وافتتح القس المستشرق زويمر[١] بحديث عن الإحصاءات الإسلامية ، وأحوال المسلمين السياسية ، والأمور التى طرأت على الإسلام ، بعد مؤتمر القاهرة التبشيرى ، من التحولات السياسية والفكرية ، والمنهج الذى اتبعته الكنائس المختلفة فى نشاطها التبشيرى .

وأقر المؤتمر مواد المناقشة .. منها :

١ - دراسة حركة الجامعة وطرقها وأهدافها ، والعلاقة بينها وبين تنصير المسلمين .

٢ - دراسة التحولات السياسية فى العالم الإسلامى بأسره ، وصلتها بالإسلام ، وموقف المبشرين منها .

٣ - دراسة موقف الحكومات الإسلامية وغير الإسلامية إزاء إرساليات تبشير المسلمين .

---

(١) بعد احتلال الجزائر سنة ١٨٣٠ قال القس زويمر : (جئنا هذه الأرض - الجزائر - لنبدّل لغة بلغة ، ودينًا بدين ، وعادات بعادات .. ولم نأت فقط لنشر حضارتنا ، كما يزعمون) - هذه حقيقة الغزو التبشيرى !!

٤ - دراسة الإسلام ، وإمكانية مواجهته ، ومنع اتساع نطاقه بين الشعوب الوثنية والمسيحية كذلك .

٥ - دراسة أحوال المبشرين ، وتدريبهم على ممارسة تبشير المسلمين بالذات ، والوسائل اللازمة لهذه المهمة .

٦ - دراسة تأليف الكتب ونشرها بين المبشرين والقراء على السواء .

٧ - دراسة حركات الإصلاح الدينى والاجتماعى والسياسى .

٨ - دراسة الارتقاء الثقافى والنفسى والاجتماعى بين النساء المسلمات ، ومدى نجاح التبشير فى أوساطهن .

٩ - دراسة توسيع نطاق الأعمال النسائية ، وإمكانية جذب المسلمات إليها .

١٠- دراسة ما يتعلق بالمطبوعات والنشرات والبحوث وغيرها .

● وفى أعقاب الحرب العالمية الثانية تكون مجلس الكنائس العالمى ، وعقد أول مؤتمراته فى هولندة سنة ١٩٤٨ ، ثم عقد مؤتمره الثانى فى الولايات المتحدة سنة ١٩٥٤ ، وعقد الثالث فى نيودلهى سنة ١٩٦١ .

وخلال هذه الفترة قام فريق من العاملين فى هذا المجلس بدراسة خاصة للتغير السياسى والاقتصادى والاجتماعى فى داخل الدول المستقلة حديثاً فى أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية ، وهى المناطق التى أطلق عليها اسم (بلاد التغير الاجتماعى السريع).. وعقدت من أجل ذلك المؤتمرات ولجان البحث ، وصدرت القرارات والنشرات والكتب التى تحدد اتجاهات المجلس ، من نمو حركات الاستقلال الوطنى ، والتصنيع ، والتحول نحو الاشتراكية .

وهكذا ، تتجه دعوة المجلس صراحة إلى ضرورة تدخل الكنائس فى سياسة الدول المستقلة حديثاً .. وابتدع المجلس لتبرير هذا الاتجاه نظرية لاهوتية تقول : إن نشاط الدولة فى كل النواحى السياسية والاقتصادية والاجتماعية هو تحت سلطان الله ، ولابد للكنائس من أن تبدى رأياً فى هذا النشاط ، وتعمل على توجيهه الوجهة التى تتفق وإرادة الله .

وفى هذا السبيل لابد من إقامة المعاهد التابعة للكنيسة ، لدراسة الحياة الحكومية والنشاط السياسى فى أى بلد ، وتشكيل نظام يضم رجال اللاهوت ، وخبراء السياسة والاقتصاد ، لتحديد اتجاه الكنيسة ، وهنا لابد من الاستعانة بخبرة الكنائس الغربية ، حتى يكون اتجاه الكنيسة داخل الدولة المستقلة حديثاً متفقاً مع اتجاه الكنائس المسيحية فى العالم الغربى .

ويمضى صاحب (الكنيسة المصرية تواجه الاستعمار والصهيونية ص ٦١/٦٦) قائلاً :

وفى المؤتمر المنعقد فى ديسمبر ١٩٦١ ، فى نيودلهى ، قرر هذا المجلس تبرئة اليهود من دم المسيح ، وحذر الكنائس من التعليم المعادى لليهود .. وجرؤ القسيس البروتستانتى الأمريكى ل. هـ . بنيت ، فوصف المسيحية ذاتها بالعنصرية ضد اليهود ، وحمل الكنيسة تبعة (معاداة السامية) .

وفى سنة ١٩٦٤ خصص المجلس موسماً دراسياً لموضوع (الكنيسة وإسرائيل) ، فى إحدى ضواحى جنيف .. وفى حفل الافتتاح قال عميد كلية اللاهوت فى جنيف : (إن الكنيسة لا تستطيع أن تتجاهل ثقل مسئوليتها العظيمة عن آلام اليهود ، وضياعهم طوال تاريخهم ، ولذلك ، فإن أول ما يصدر عنها هو طلب المغفرة) .

وفى ١٩ فبراير خضع الفاتيكان ، وأصدر ما أصبح يسمى (وثيقة تبرئة اليهود من دم المسيح) .

● وفى الاتحاد السوفيتى - كما يقول الدكتور أنور عبد الملك (مجلة الفكر العربى - العدد ٣١) - منذ مؤتمر باندونج ، صار (معهد شعوب آسيا) ، قرب أكاديمية العلوم - أكبر معهد على الصعيد العالمى ، وأخذت الجامعات بأسرها تنظم دراسات حول آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية ، وقد صدرت مجلات علمية جديدة ومهمة ، بعد أن تضمنت جميع أكاديميات العلوم ، فى جمهوريات الاتحاد السوفيتى ، أقساماً أو هيئات تتصرف إلى هذه الدراسات ، ويصل عدد العاملين فى هذه الأقسام والهيئات حالياً (١٩٦٢) إلى ما يتراوح بين ١٨ و ٢٠ ألف شخص ، (من أساتذة وباحثين ومساعدين تقنيين ومترجمين وخبراء مكتبات .. إلخ) .. وهناك دار نشر مختصة بالكتب الشرقية ، تنشر وحدها كتاباً جديداً كل يومين أو ثلاثة، كما أن الدراسات الحديثة تتقدم برفقة

الاستشراق الكلاسيكى الذى كان مزدهراً فى روسيا الأمس ، وأخيراً أنشىء (معهد أفريقيا) عام ١٩٥٩ ، تحت إشراف الأكاديمى (أ. بونهكين) ، فأدّى ذلك - خلال سنوات قليلة - إلى إحداث تغيير مفاجىء فى المعطيات العلمية للدراسات التى تتناول الشرق الحديث والمعاصر .. فلم يكن من الممكن - منذ ذلك الحين - أن ينصرف المرء انصرافاً عميقاً لتلك الدراسات ، إلا إذا كان يجيد اللغة الروسية ، فضلاً عن اللغات الأوربية التقليدية ، وهى لغة واحدة ، أو عدة لغات شرقية .

● ومن أخطر الوسائل التى نجمت عن الاستعمار الأمريكى أن أصدر الكونجرس فى مايو ١٩٩٨ قراراً بحماية الأقليات الدينية ، أى إعلان حق التدخل فى الشئون الداخلية للحكومات الأخرى ، أو بمعنى أوضح الحكومات النامية أو النائمة ، لإشعال الفتن ولصناعة العملاء ، وتهديد الحكومات التى لا تخضع لإرادتها .

وكانت فرنسا قد ادّعت حماية النصارى فى الشرق ، وأغدقت حكوماتها الأموال على مدارس اليسوعيين والعازريين والإخوان المريميين والكبوشيين ، وشجّعت مدارس اللاييك فى البلاد العربية ، بقصد تثقيف أبناء العرب بثقافة فرنسية بحتة ، وإبعادهم عن الثقافة العربية ، حتى يظلوا - على زعمهم - حرباً على بلادهم ، وعثرة فى سبيل استقلالها ، وأداة لتسلط فرنسا السياسى .

وقد حاولت إنجلترا حماية الأشوريين فى العراق لغاية سياسية ، فلم تفلح .

وما المدارس والمستشفيات والرهبانيات الإيطالية فى الشام إلا أدوات سياسية .

وما تزال الدول الاستعمارية تلتف بعبارة الفرانكفونية ، والكومنويلث الإنجليزى ، والكومنويلث الروسى ، فى محاولة للاحتفاظ باللغة والثقافة الفرنسية والإنجليزية والروسية فى البلاد التى كانت تدور فى فلكها ، لتظل محتفظة بقدر من الدوران ، ولكى تسمح للأيدى القذرة أن تلعب فى الانتخابات ، وفى تشكيل الحكومات ، وفى السيطرة على مصادر الاقتصاد ، وعلى رجال الأعمال ، وعلى مراكز صنع القرار .

● ولعل مما يلفت النظر أن كثيراً من المستشرقين الذين قاموا بدراسة الأدب العربى القديم والحديث فى مصر من اليهود ، مثل ليفى بروفنسال ، وبول كراوس ،

وإسرائيل ولفنسون ، مما يعنى أن اليهود مصرون على تسليح أنفسهم بفهم واضح للعرب ، من خلال أدبهم وثقافتهم ، قبل مواجهتهم عسكرياً واقتصادياً ، مما يدل على ما بين الاستشراق والصهيونية من تنسيق وتوزيع للأدوار .. ومن المستشرقين اليهود الذين لعبوا أدواراً فى مداخلة الفكر الإسلامى وتحريفه ، وتزييف أفكار طلابهم (المسلمين) الذين صار لهم سلطان فى البلاد العربية : دوركايم ، وجولدزيهر ، ومرجليوث، وبرنارد لويس ، ورودنسون ، وغيرهم كثير ، ومن أشهر طلابهم طه حسين، ومنصور فهمى ، وعلى عبد الرازق ، وزكى مبارك ، ومحمود عزمى .

- ٢ -

يقول ول ديورانت (قصة الحضارة جـ ١٣ ص ١٣٢/١٣٣) :

(كان المسيحيون فى بلاد آسيا الغربية ، خارج الجزيرة العربية ، يمارسون شعائر دينهم بكامل حريتهم ، وبقيت الكثرة الغالبة من أهل بلاد الشام مسيحية ، حتى القرن الثالث الإسلامى) .

ويحدثنا المؤرخون أنه كان فى بلاد الشام - فى عصر المأمون - أحد عشر ألف كنيسة ، كما كان فيها عدد كبير من هياكل اليهود ، ومعابد النار .. وكان المسيحيون أحراراً فى الاحتفال بأعيادهم علناً . والحجاج المسيحيون يأتون أفواجاً آمنين لزيارة الأضرحة المسيحية فى فلسطين .. وقد وجد الصليبيون جماعات مسيحية كبيرة فى الشرق الأدنى ، فى القرن الثانى عشر الميلادى ، ولا تزال فيه جماعات منهم إلى يومنا هذا .. وأصبح المسيحيون الخارجون على الدولة البيزنطية ، والذين كانوا يلقون صوراً من الاضطهاد على يد بطارقة القسطنطينية ، وأورشليم ، والإسكندرية ، وأنطاكية - أصبحوا أحراراً آمنين تحت حكم المسلمين الذين لم يكونوا يجدون لنقاشهم ومنازعاتهم معنى يفهمونه .

ولقد ذهب المسلمون فى حماية المسيحيين إلى أبعد من هذا ، إذ عين والى أنطاكية - فى القرن التاسع الميلادى - حرساً خاصاً ، ليمنع الطوائف المسيحية المختلفة من أن يقتل بعضهم بعضاً فى الكنائس .

وانتشرت أديرة الرهبان وأعمالهم فى الزراعة ، وفى إصلاح الأراضى البور .. وكانوا يستمتعون بالنبيذ من عنب الأديرة ، وينعمون فى أسفارهم بضيافتها .

وبلغت العلاقة بين الدينين - فى وقت من الأوقات - درجة من المودة تبيح للمسيحيين الذين يضعون الصلبان على صدورهم أن يؤموا المساجد ، ويتحدثوا فيها مع أصدقائهم المسلمين .

وكانت طوائف الموظفين الرسميين فى البلاد الإسلامية تضم مئات من المسيحيين، وقد بلغ عدد الذين رقوا منهم إلى المناصب العليا فى الدولة من الكثرة درجة أثارت شكوى المسلمين فى بعض العهود ، حتى كان سرجيوس ، والد القديس يوحنا الدمشقي، خازن بيت المال ، فى عهد عبد الملك بن مروان ، وكان يوحنا نفسه - وهو آخر آباء الكنيسة اليونانية - رئيس المجلس الذى كان يتولى حكم دمشق .. لهذا كان المسيحيون فى بلاد الشرق يرون أن حكم المسلمين أهون وأرحم وأعدل من حكم بيزنطة وكنيستها .

ويضيف بارتولد فى (تاريخ الحضارة الإسلامية ص ٥٣/٥٤) : أن (انتشار النصرانية والمانوية فى بلاد المغول ، واليهودية والنصرانية فى القوقاز وشواطئ الفولجا - يعود إلى العصر الإسلامى .. وكانت فى بلاد الخلافة الممتدة من رأس سان فنسنت ، الواقعة جنوبى البرتغال ، إلى سمرقند - مؤسسات مسيحية غنية ، قد حافظت على أملاكها غير المنقولة الموقوفة عليها ، وكان نصارى بلاد الخلافة يتعاملون مع عالم النصرانية بدون مشقة ، ويتمكنون من أن يتلقوا منهم إعانات لمؤسساتهم الدينية .. وكان فى المؤتمر الدينى الذى انعقد فى القسطنطينية ، فى سنة ٦٨٠/٦٨١ ، مندوب من الفرس أيضاً ، مع أن المسيحيين المقيمين ببلاد الخلافة كانوا مرتبطين بعضهم ببعض ارتباطاً وثيقاً) .

ومع هذه السماحة التى قد تصل إلى حد التفريط ، انطلقت (الكلاب الضالة) لتهدم البُنيَ الإسلامية ولتقتلع جذور الإسلام من كل مكان .

يقول توماس أرنولد فى كتابه (تراث الإسلام) : إن أهم دوافع الحروب الصليبية ثلاثة :

١ - يندرج الاتجاه الحربى نحو الخارج الإسلامى ، فى سياق المحاولات الأوربية المتعددة ، لتجاوز تفاقم الأزمة الداخلية العامة التى أصابت مجمل البُنيَ السياسية والفكرية والاقتصادية للمجتمع الغربى ، منذ بداية القرن العاشر ، إذ إن حكمة شارلمان

التى أشاعت النهوض والازدهار . خلال القرنين الثامن والتاسع - لم تلبث أن استبدلت بفوضى الصراع الاجتماعى الذى وضع الملوك والأباطرة فى مواجهة أمراء الإقطاع .. وقد تحول الازدهار إلى جمود فى أعقاب هجمات الفايكنج على مركز الحضارة العربية فى الشمال ، وزحف الهنغاريين إلى وسط أوربا ، حتى شرق ألمانيا .

والكنيسة بدورها تعرضت لموجة جارفة من الانحلال والذبول فى القرنين التاسع والعاشر ، فجرف التيار الإقطاعى رجال الدين ، وتصدع سلطان البابوية ، وانحط المستوى الخلقى لرجال الكنيسة .

وقد سعت الكنيسة الغربية لتطويق أزمتها وأزمة الغرب فى آن واحد ، باحتواء القوى السياسية المتناحرة ، وتعزيز قدرة البابوية عَلى مَرْكَزة القرار الأوربى .. ولم يخف خليفة المسيح والقديس بطرس مساعيه وأحلامه فى أن يكون الزعيم الروحى لجميع المسيحيين ، (فى الشرق والغرب) ، فسارع إلى فرض سلطانه على مسيحيي الشرق ، تحت ستار قيادة الصراع ضد المسلمين ، واسترداد الأماكن المقدسة وحمايتها ، ووضع الأباطرة والأمراء تحت هيمنة الكنيسة ، وتقوية الوضع الداخلى للكنيسة مالياً وسياسياً، عن طريق فرض ضرائب ترافقت مع امتداد الحملات الصليبية ، مثل ضريبة إعانة الأرض المقدسة ، **وكان النائب الرسولى يرافق عسكر الله ويسوسه** .

٢ - لم تكن رؤية المسلمين ممكنة باعتبارهم فاتحين ومحتلين وتوسعيين وأعداء المسيح ، لهذا - كما يعترف غايردنر - (لم تكن الحروب الصليبية لإنقاذ مدينة القدس، بقدر ما كانت لتدمير الإسلام) .

٣ - يمكن وصف أولى الحروب الصليبية بحلف جرى بين الإقطاع الفرنسى وبين المدن الإيطالية ذات القوى البحرية ، فالتجارة سبقت المسيحية إلى القدس ، ولذلك ينبغى رد المشروع الصليبى إلى طبيعة الصراع التاريخى بين التجمعات السياسية الكبرى ، بهدف السيطرة على طرق التجارة الدولية .

وكما تقول هونكه : إن انتصار المسيحية كان يشكل - بالنسبة للتجارة - صفقة رابحة ، لا أكثر ، أما هزيمتها فلن تكون سوى مهزلة .

من هنا كانت الأزمة التى عانت منها فرنسا فى القرن الحادى عشر هى التى أدت إلى غلبة العنصر الفرنسى فى الحروب الصليبية ، ذلك أن أزمة الخبز كانت ترغم

الناس على أكل الأعشاب والحشائش ، وقد أدت إلى خلافات مستمرة بين الأمراء المحليين .

يقول تومبسون : إن (غالبية الذين أسهموا فى الحركة الصليبية تركوا بلدهم ، إما بدافع الفضول ، أو لتحقيق أطماع سياسية ، أو للخلاص من حياة الفقر ، أو للتهرب من ديونهم الثقيلة) .

ولهذا ، لم تسلم البلاد المسيحية التى فى طريق الحملات الصليبية من النهب والسلب ، وارتكاب أبشع الجرائم ، وأمام أسوار القسطنطينية أخذ الصليبيون يواصلون نهب القرى والضياع المجاورة ، ويعتدون على الحرمات .

• • •

ولقد شجع البيزنطيين على استرداد الأراضى المقدسة حالةُ التمزق والخلافات الداخلية بين المسلمين .

وفى عهد قسطنطين السابع (٩٥٩/٩١٣) تم ارسال إنذار عنيف للخليفة العباسى فى بغداد (بهدم الكعبة ، ونشر المسيحية فى الشرق والغرب) .

وقد سعى السلطان السلجوقى ألب أرسلان إلى توحيد الدول الإسلامية فى الشرق الأدنى ، وتأمين الحدود مع بيزنطة التى كانت حينئذ تحت سلطة نقفور ، وبخاصة بعد معركة (مَرْعش) عام ٩٥٣ ، وسقوط حلب سنة ٩٦٢ ، واحتلال مانزكرت عام ١٠٧١ ، آخر موقع للبيزنطيين فى أرمينيا ، واسترداد ملطيه .

ويعدّ احتلال مانزكرت أكبر كارثة حلت بالإمبراطورية البيزنطية ، حتى نهاية القرن الحادى عشر .

وقد سارع الإمبراطور ميخائيل السابع البيزنطى (١٠٧٩/١٠٧١) إلى طلب النجدة من البابا جريجورى السابع ، واعداً بإزالة الخلافات القائمة بين الكنيستين : الشرقية والغربية ، لكن البابا كان مشغولاً بهموم الملوك العلمانية .

وجاء البابا أدريان الثانى ، فألقى خطبة فى مجمع كليرمونت الدينى الذى عقد سنة ١٠٩٥ ، دعا فيها إلى إنقاذ المسيحية من براثن الإسلام ، وقال : (كلما تقتلون

الكثير من المسلمين ازداد إعجاب الله بكم) ، وحث الجموع على حمل السلاح ، من أجل الضريح المقدس ، ومن أجل مسيحيى الشرق .

وقد بدأت الحروب الصليبية بطريقة (تلقائية) ، دون تنظيم موحد ، فبعد إعلان الجهاد ، جمع بطرس الناسك شرذمة من الغوغاء ، رجالاً ونساء ، وسار بهم إلى فلسطين ، قبل أن تبدأ الحملة الصليبية الأولى ، ولم تكن الحملة الصليبية الأولى تحت قيادة تجمع شملها . وتوحد كلمتها .. وخرجت مجموعات من الصبية ، ولم يلبث أن استولى عليهم القراصنة ، وباعوهم بيع الرقيق .

كانوا فى فوضى وعجلة من أمرهم ، لا يحترمون قيماً ، ولا يحفظون عهداً .. عاهدوا ملك الروم على أن يسلموه أول مدينة يفتحونها ، ولم يفعلوا ، وجاءوا معرة النعمان ، فقتلوا جميع من كان فيها من المسلمين اللاجئين إلى الجوامع ، والمختبئين فى السراديب ، وقضوا بالموت صبراً على مائة ألف أو يزيد .

وبعد حصار دام أربعين يوماً سقطت القدس ، وكما قال غوستا فرانكروم : (كان جنودنا يخوضون حتى سيقانهم فى دماء المسلمين) . إذ لم يتركوا مسلماً فى الطرقات أو البيوت أو المساجد إلا قتلوه .. وقد احتمى بالمسجد الأقصى أكثر من سبعين ألف مسلم ، قتلوا جميعاً .

يقول ريمون داجيل ، مؤرخ الحملة ومرافقها : إنه لم يستطع أن يشق طريقه وسط أشلاء المسلمين إلا فى صعوبة بالغة ، وإن دماء القتلى بلغت ركبتيه .

كانوا يُكرهون المسلمين على إلقاء أنفسهم من أعالى البروج وأسقف البيوت ويجعلونهم طعاماً للنيران ، ويخرجونهم من الأقبية ، ويجرونهم فى الساحات .. ودام ذبح المسلمين أسبوعاً ، حتى قتلوا منهم سبعين ألفاً ، ونزل باليهود مثل ما نزل بالمسلمين .

ولعل هذا يرجع - كما يقول مكسيم رودنسون - إلى أن (السراسنة = المسلمين) كانوا بالنسبة للحجاج المسيحيين مجرد أعداد زائدة ، لا قيمة لها ، ومجرد كفار تافهين .. وهو نفس التعبير الذى ردده كبار الصهاينة عن الفلسطينيين .

ولما استرد صلاح الدين القدس كان بها مائة ألف صليبى ، منهم ستون ألف راجل وفارس ، سوى من تبعهم من النساء والأطفال ، فأبقى صلاح الدين على حياتهم ، واستوصى بهم خيراً ، وسهل سبيل الخروج للمكتين عظيمتين بما معهما من جواهر وأموال وخدم ، ورخص للبطريرك الأكبر أن يسير بأموال البِيَع وذخائر الجوامع التى سلبها الصليبيون ، ووافق على هدنة سلمية ، لمدة ثلاث سنين وستة أشهر ، ورضى بقيام دولة مسيحية من يافا وعكا إلى صور وطرابلس وأنطاكية .

● وتحولت وقائع الحركة الصليبية إلى أساطير وقصص وأشعار ومسرحيات تاريخية ، وتجسدت فى لغة يومية مفعمة بالغلبة الغربية ، والكراهية للشرق والمسلمين.. وتواصلت قروناً ، عابرة الزمن والتاريخ ، حتى وصلت إلى ذروتها فى ملحمة الشاعر الإيطالى تورغانو تاسو (١٥٤٥/١٥٩٥) المسماة (أورشليم المحررة) .

وجرؤ دانتى فى (الكوميديا الإلهية) ، فوضع (الرسول محمداً ﷺ وابن عمه عليا) فى أعماق الجحيم .

وبعد دانتى بقرنين تقريباً كتب الإنجليزى جون لوجيت قصيدة (عن محمد المزيف، وكيف أكلته الخنازير وهو سكران) ، لم يترك رذيلة إلا وألحقها بالرسول العظيم ﷺ ، وختمها بقوله (مات كأى إنسان نهم ، لأنه أفرط فى شرب الخمر ، ووقع فى بركة ، فأكلته الخنازير) .

ووصَفَت أنشودة رولاند الشهيرة المسلمين بأنهم يعبدون آلهة ثلاثة : تيرفاجان ، ومحمد ، وأبوللو .

وهذا لا يدل على جهل بالإسلام ، بقدر ما هى الرغبة فى النيل من المسلمين وتشويه صورتهم ، بل الرغبة فى عدم معرفة شيء صحيح عن المسلمين ، وقد كانت الطرق معبدة للمعرفة من خلال الحروب والتجارة والرحلات والكتب الإسلامية المترجمة ، بل من خلال مدارس المسلمين التى كان يقبل عليها كثير من الأوربيين .. والذين ننقل عنهم هذه (الوقاحات) ليسوا من العامة ، إنهم شعراء وكتا ب ، وما كان يشق على أحد منهم الحصول على (المعرفة) ، بل إن المعرفة الصحيحة كانت بين أيدى كثيرين من كبار الكتاب والفلاسفة والساسة - مثل فولتير ورينان وهانوتو - لكنهم « وضعوا أصابعهم فى آذانهم ، واستغشوا ثيابهم ، وأصروا ، واستكبروا استكباراً » .

يذكر جويبير دى - نوجنت (ت سنة ١٢٢٤) أنه لا يعتمد فى كتاباته عن الإسلام على أية مصادر مكتوبة ، لأنه (لا جناح على المرء إذا ذكر بالسوء من يفوق خبثه كل سوء يمكن أن يتصوره المرء) .

وللأسف ظل القوم يتوارثون الكيد للإسلام ، والخوف من المسلمين ، حتى يومنا هذا .

إدوارد لين صاحب كتاب (المصريون المحدثون) زار مصر فى النصف الأول من القرن التاسع عشر ، ومكث بها عدة سنوات ، واعترف بكرم المصريين الذين آووه ، وخلطوه بأنفسهم ، وكشفوا له عن أدق ما فى خصوصياتهم ، حتى قدم بحثاً رائعاً عن عادات المصريين وتقاليدهم ، ظلّ مرجع كثير ممن يزورون مصر للسياحة أو للدراسة أو لسرقة الآثار .. ومع أن بالمكتبة الاستشراقية كتباً كثيرة تتناول هذا الموضوع من أكثر من زاوية ، فإن (لين) يظل فى المقدمة ، بسبب إجادته العامية المصرية ، وبسبب تداخله مع المصريين ، وكثرة صداقاته ، وكثرة تنقلاته فى أنحاء مصر .. ومع أنه فى أكثر من موضع يوحى بحبه للمصريين ، مجتمعاً كريماً مسامحاً - فإنه يصفهم بالغباء ، ويحكم على الدين الإسلامى من واقع الخرافات الشعبية التى تروج فى (الموالد) ، وتتردد على ألسنة العامة ، الذين يأخذون العهود على (أولياء) الجهل والغباء والجمود .. ويصف نساء مصر - بوجه عام - بالفجور وغلبة الشهوة ، وكثيراً ما يقع تحت تأثير ألف ليلة وليلة ، التى ترجمها ، وأخذت لها مكاناً فى المكتبة الأوربية ، فيطلق أحكاماً عامة ، أشبه بالذين يقبلون على الأفلام المصرية - خارج مصر - فيحكمون على المصريين ، والمصريات خاصة ، بكل الآفات الأخلاقية .

وهذا داريل الذى عاش فى إسكندرية القرن العشرين زمناً ، وكتب (رباعية الإسكندرية) ، يتحدث عن (شعب متخلف ، لا علاقة له بالعلم والثقافة والتقدم ، ولم ينفعه دينه للترقى ، وهو شعب يميل إلى الهمجية والجريمة والقسوة ، فهو لا يعرف معنى الحضارة ، يبيع شرفه ومصلحة بلده بدون وعى ، أو من أجل مصلحة ذاتية لاتذكر ، شعب غدار ، لا يعرف المبادئ الأخلاقية) - منى حسين مؤنس ص ٧٢ .

حتى هاتنجتون صاحب (صدام الحضارات) يقول فى نهاية القرن العشرين : (هناك حوالى ألف مليون مسلم يعتنقون هذا الدين ، لهم أفكار ومعتقدات وميراث ثقافى وحضارى مختلف تماماً عن الغرب ، وهم يريدون أن يفرضوا عقيدتهم بالقوة ، بالعنف، بالإرهاب ، بتدمير الحضارة الغربية ، المسلمون هم التهديد الأخير ، وهم الخطر الماثل أمام الغرب كله ، فإما يقضى الإسلام على الغرب ، وإما يقضى الغرب على الإسلام) - المصدر السابق ص ٥٦ .

- ٣ -

فى عام ٨٥٤ قال ألفارو أسقف قرطبة :

(يا للمَسَرّة ، إن الموهوبين من شبان النصارى لا يعرفون اليوم إلا لغة العرب وآدابها، ويؤمنون بها ، ويقبلون عليها فى نهم ، وهم ينفقون أموالاً طائلة فى جمع كتبها ، ويصرّحون فى كل مكان بأن هذه الآداب جديرة بالإعجاب ، فإذا حدثتهم عن الكتب النصرانية أجابوك فى ازدراء بأنها غير جديرة بأن يصرفوا إليها انتباههم ، بل لقد أنسى النصارى حتى لغتهم ، فلا تكاد تجد بين الألف منهم واحداً يستطيع أن يكتب إلى صاحب له كتاباً سليماً من الخطأ ، فأما عن الكتابة فى لغة العرب فإنك واجد فيهم عدداً عظيماً يجيدونها فى أسلوب منمق .. بل هم ينظمون من الشعر العربى ما يفوق شعر العرب أنفسهم فناً وجمالاً) - تاريخ الفكر الأندلسى ص ٤٨٥/٤٨٦ .

وكانت الفترة من عام ١١٠٠ إلى ١٥٠٠ تقريباً ، وهى الفترة التى شهدت حضارة جديدة فى غرب أوربا - تمتاز بالتأثير الإسلامى فى مختلف ميادين المعرفة ، وتعرف هذه الفترة فى التاريخ بعصر الاستعراب الأوربى ، أى العصر الذى تعربت فيه أوربا ، وكانت علوم العرب ومعارفهم هى المصدر الأول لكل كتّاب أوربا .. حتى لقد كان الأساتذة اللاتين يتشبهون بالعرب ، فيلبسون العباءة العربية فى أثناء إلقائهم دروسهم فى المدارس والجامعات .. ومن هنا نشأ تقليد (الروب الجامعى) .

وقد اتصف هذا العصر بتلقى كل ما هو عربى ، واعتباره الحجة البالغة .

يقول راندل فى كتابه (تكوين العقل الحديث جـ ١ ص ٣٣١/٣٣٣) : مع قدر من الإسهاب :

(يظهر أن عظمة العرب كانت تكمن فى قدرتهم على تمثل أفضل ما فى التراث الفكرى للشعوب التى احتكوا بها ، أكثر مما كانت فى أى إبداع أصيل ، فقد أخذوا من العلم اليونانى المعرفة الرياضية والطبية التى احتقرها الرومانيون ، ونبذها المسيحيون، وراحوا يعملون بصبر وجهد فى ذلك الطريق الذى ازدراه الإغريق فى أوج عظمتهم ، متبعين طريق التطور البطيء ، والتكيف العملى ، وقد اكتسبوا من الهند الأرقام التى لايمكن الاستغناء عنها ، وبنوا فى القرن العاشر فى أسبانيا حضارة لم يكن العلم فيها مجرد براعة فحسب ، بل كان علماً طبق على الفنون والصناعات الضرورية للحياة العملية .. وعلى الإجمال كان العرب يمثلون فى القرون الوسطى التفكير العلمى ، والحياة الصناعية العلمية ، اللذين تمثلهما فى أذهاننا اليوم ألمانيا الحديثة .. وخلافاً للإغريق لم يحتقروا المختبرات العلمية ، والتجارب المعملية والميدانية .. أما فى الطب وعلم الآليات ، بل فى جميع العلوم ، فقد استخدموا العلم فى خدمة الحياة الإنسانية مباشرة ، ولم يحتفظوا به كغاية فى حد ذاته ، وقد ورثت عنهم أوربا بسهولة ما ترغب فى تسميته « روح بيكون » ، التى تطمح فى توسيع نطاق حكم الإنسان على الطبيعة .. وعلاوة على ذلك ، تأثر العرب تأثراً عميقاً بالفلسفة الأفلاطونية الحديثة التى كانت سائدة فى الأراضى الهيلينية ، وهى الأراضى التى كانت أول ما وقع تحت حكمهم ، ولكنهم - حتى حين أخذ أرسطو الفيلسوف بلبهم - أعطوا فلسفته صبغة أفلاطونية قوية ، مع أن أفلاطون والذين انضموا تحت لوائه ، ممن حملوا اسمه ، لم يعنوا كثيراً بالاتجاه البيولوجى النظامى الذى عرفت به المدرسة المشائية ، فإنهم شددوا على الرياضيات ، وهى أهم شيء بالنسبة للعلم الطبيعى ، وربما أخذوا تشديدهم هذا عن الفيثاغوريين ، تلك الجماعة التى مزجت بين معرفة دقيقة لقوة الأرقام ، والنزعة الصوفية ، وبينما امتصّ التقليد المسيحى صوفية الأفلاطونية الحديثة ، وأهمل عملها الرياضى ، فإن العرب أظهروا حباً متساوياً للناحيتين .. وعلى ذلك ، حين نشأت الجامعات فى العالم المسيحى وجدت أن أسبانيا لم تحتفظ بالعلم الإسكندرى فحسب ، بل أضافت إليه الشيء الكثير .. لقد شهد القرن الثانى عشر عملية التمثيل الكبرى لهذا العلم ، وتم ذلك فى مركزين رئيسيين : صقلية والأندلس ، حيث تلاقت الثقافتان المسيحية والإسلامية ، وكثيراً ما كان اليهود وسطاء فى هذه العملية ، مما يدل دلالة قاطعة على أهمية ما أنتجته العقلية العربية بالنسبة للإنسانية جمعاء) .

● أصبح جنوب إيطاليا - منذ أن احتله العرب - واسطة لنقل الثقافة إلى أوربا ، إلى جانب الأندلس .

وممن ورد تلك المناهل جربرت أورليان (٩٣٨/١٠٠٣) أحد الرهبان البندكتيين ، الذى درس فى كل من صقلية وقرطبة ، حتى صار من أبرز علماء عصره فى الدراسات العربية والرياضية والفلكية ، ثم رجع إلى قومه ينشر فيهم علوم الشرق وثقافة العَرب ، فرموه بالسحر والكفر ، لكنه سرعان ما ارتقى سُدّةَ البابوية ، باسم سلفستر الثانى سنة ٩٩٩ ، وأصدر قراراً يقضى بأن تترجم إلى اللاتينية الآثار العربية ، فى مختلف العلوم والآداب والفنون ، وأمر بإنشاء مدرستين عربيتين فى رومه ، وأدخل الأرقام العربية فى أوربا .

كذلك تخرج فى مدرسة قرطبة (شانجه) ملك ليون واستوريا .

أما ابن قرطاجنة قسطنطين الأفريقى (ت سنة ١٠٨٧) الذى ترهب فى دير مونتى كاسينو ، فقد أولع بالدراسات الشرقية ، ورحل إلى القيروان ومصر والشام وبغداد وخراسان والهند ، وترجم كتب الطب والفلك .

وزار الراهب الأيرلندى ديكويل مصر ، ووصف أهراماتها .

واهتم بعض أمراء إيطاليا بالعربية ، وشجعوا على تعلمها ونقل آثارها .

وشكل بطرس الموقر فى أسبانيا جماعة من التراجمة يعملون كفريق واحد ، فأتم روبرت أوف كيتون الإنجليزى ترجمة معانى القرآن عام ١١٤٣ ، وترجم الفريق سلسلة من النصوص العربية ، وأعدوا مجموعة خاصة بهم تعرف باسم (كلونيك) ، تحتوى على مؤلَّف لبطرس الموقر نفسه .. لكن المادة التى تضمنتها المجموعة لم تستخدم كأساس لمزيد من الدراسة المتعمقة للإسلام ، إذ لم يكن من يهتم بمثل هذه الدراسة ، ثم إن الحالة العقلية للغرب اللاتينى لم تكن مشجعة على الاهتمام بمذاهب دينية فى حد ذاتها ، كتلك التى كانت موجودة فى الشرق الإسلامى .

وكان بطرس الموقر يرى أن التحدى الإسلامى لم يجد إجابة مسيحية مناسبة حتى أيامه ، وإذا كان الإسلام لا يشكل خطراً عسكرياً مباشراً ، فلا شك فى أنه شديد الخطورة فكرياً ، كذلك لابد من التعرف عليه حتى تمكن مكافحته :

(إذا ما بدا أن العمل الذى أدعو له غير ضرورى الآن ، لأن العدو لن يتأثر بهذا السلاح ، أجيب أن بعض الأعمال التى تجرى فى مجال سلطة الملك الأفخم إنما تتم من أجل ضرورات الدفاع ، أما بعضها الآخر فليس غير مهمة تزيينية ، والباقى يجرى للغرضين فى الوقت نفسه ، فسليمان محب السلام كان يصنع سلاحاً لا يستعمل فى أيامه ، وداود أمر بصنع زخارف للهيكل ، رغم عدم تبين معاصريه فائدة مثل هذا العمل.. وهذا هو الشأن فى العمل الذى أقوم به هنا ، فإذا لم يمكن بهذا الطريق إعادة المسلمين إلى المسيحية الصحيحة ، فلا أقل من أن يستفيد العلماء المسيحيون من عملنا فى مجال دعم إيمان المسيحيين السذج الذين يمكن أن تضير هذه الصغائر عقيدتهم).

كان الهدف إذن من تعلم العربية ، والتعرف إلى أسرارها ، هو الوصول إلى سرّ قوة المسلمين ، ومحاربتهم بأسلحتهم ، بل العمل على غزو الإسلام فى دياره ، وتحويل المسلمين إلى المسيحية .

كانت الأساطيل تدور حول أفريقيا ، لتصل إلى بلاد التوابل ، فتحرم البلاد الإسلامية من مصدر تجارى هام ، كما كان السعى لتحويل المغول إلى المسيحية ، حتى تمكن محاصرة المسلمين ، من الجنوب والشمال .. وإذا نجحت الأساطيل فى دورها التجارى ، أمكن قيامها بدور حربى فتستولى على الأطراف الإسلامية ، وتظل تشدد قبضتها ، حتى تنشب أظافرها فى رقاب بغداد ودمشق والقاهرة والقيروان والرباط ، كما فعلت فى أشبيلية وقرطبة وطليطلة وغرناطة ، وحتى تصبح مكة والمدينة مركزين للمسيحية العالمية .

إذا كانت الحرب الصليبية لم تحقق أهدافها بتحرير القدس ، فلأنه لم تتحقق معرفة أسرار قوة الإسلام ، حتى يمكن امتصاص هذه القوة أو تزييفها ، وتأليف قلوب الذين يحملونها ، وإشعال الفتن بينهم ، حتى يخربوا بيوتهم بأيديهم وأيدى المسيحيين .

● كانت أول مدرسة عرفتها أوربا للدراسات الشرقية قد قامت بتأسيسها هيئة من الوعاظ فى طليطلة ، سنة ١٢٥٠ ، وكانت تتولى تدريس اللغة العربية واللغات (الإنجيلية) والعبرية ، حتى يتيسر تخريج رجال أوتوا القدرة على القيام بالتبشير بين اليهود والمسلمين ، وكان أكبر عالم أنجبته هذه المدرسة هو رايموند مارتن الذى عاصر القديس توماس ، ولم تقتصر معرفته على القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف فى

الإسلام ، وإنما شملت أفذاذ العلماء من رجال الدين والفلسفة ، من الفارابى إلى ابن رشد .

وقد نحا القديس توماس (الإكوينى) هذا المنحى ، فأخذ الكثير عن فلاسفة المسلمين ، لكن لم يحسن هضم الفكر الإسلامى ، حتى لا (يتهمه) الآخرون بأنه أحد تلاميذ المسلمين .

واستمرت حركة الصدّ والإقبال على الثقافة الإسلامية ، بسبب من الكراهية لهذا الدين الذى عصف بالإمبراطورية الرومانية ، واستولى على عاصمة الدولة البيزنطية، وحاصر رومه من الشمال والجنوب ، وبسبب من الطموحات التى بعثتها الانتصارات فى (بواتيه) ، وعلى أرض الأندلس ، حتى تم استردادها كلها ، وتهديد المغرب العربى .

لكن الفتن والمذابح التى نشأت بين الملوك والأمراء ورجال الكنيسة ، وبخاصة بعد التمزقات الكنسية ، التى تبعت التَّمزّقات السياسية ، أو كانت سبباً فيها ، وبخاصة بعد ظهور اللوثرية والكلفنية ، وبعد تشكل الكاثوليكية فى صور بندكتية وجزويتية وفرنسيسكانية ، وغيرها ، وسقوط آلاف القتلى تحت ألوية صليبية ، هى من نسيج ملوك وبابوات - كل هذا ملأ الساحة بالشكوك فى كل المقدسات ، وكثر نقد الكنيسة والكتب المقدسة ، وكانت الدعوة إلى فصل الكنيسة عن الدولة ، وتشبثَ الملوك والأمراء بهذا الاتجاه رجاء التخلص من طغيان الكنيسة واستبدادها .. وكان هذا كله مشجعاً على الأخذ بالعقلانية المتمثلة فى الفكر الإسلامى .

ومن هنا اهتمت الجامعات الأوربية بإنشاء أقسام اللغة العربية واللغات الشرقية .

فى سنة ١٦٣٢ أسس السيد توماس آدمز أول كرسى للغة العربية بجامعة كمبردج.

وفى سنة ١٦٣٦ أسس رئيس الأساقفة كُرسيّا منافسا بجامعة أكسفورد .

وعمل معهد (لى Lec) فى كمبردج ، ومعهد مكبريد فى أكسفورد - لصالح جمعية الكنيسة التبشيرية - فى ترجمة بروتستانتية للإنجيل والمزامير إلى العربية ، على أمل أن يتعرف المسلمون إلى المسيحية ، ويعاد تشكيل الإسلام فى قوالب غربية ، أو إصلاحية .

جاء فى خطابٍ مؤرَّخ فى ٦ مايو ١٦٣٦ عن مؤسِّسِ كرسى اللغة العربية فى جامعة كمبردج :

(ونحن ندرك أننا لا نهدف من هذا العمل الاقتراب من الأدب الجيد ، بتعريض كثير من المعرفة للنور ، ولا من احتباسه فى نطاق هذه اللغة التى نسعى لتعلمها فقط ، ولكننا نهدف أيضاً إلى تقديم خدمة نافعة إلى الملك والدولة ، عن طريق تجارتنا مع الأقطار الشرقية ، وإلى تمجيد الله بتوسيع حدود الكنيسة ، والدعوة إلى الديانة المسيحية بين هؤلاء الذين يعيشون الآن فى الظلمات) .

● ومن الملوك الذين اهتموا بالفكر الإسلامى شارلمان ، الذى كان على معرفة تامة بأمور الشرق ، كما كان على معرفة كاملة بما يجرى على أرض الأندلس وكانت معرفته هذه الحافز على أن يسلك طريق العرب بالنسبة للحركة العلمية ، فأخذ يقرب العلماء المزودين بالفكر العربى ، ومن بينهم رجل فذ اسمه (ألكوان) ، كان يلمّ بكثير من المعارف العربية والإسلامية ، عن طريق اللاتينية والعبرية ، وعندما لاحظ رغبة شارلمان القوية فى النهوض ببلاده ، أخذ يؤسس المدارس المختلفة ، والمجامع العلمية ، على غرار المدارس العربية ، وأمر بتدريس العلوم الحديثة فيها .. ولما قوى نفوذه قام بإدخال الجغرافيا والموسيقى والطب والقانون فى مناهجها .

ولم يمض زمن طويل حتى اعتلى عرش فرنسا الملك شارل ، حفيد شارلمان ، الذى صمم على أن يسلك مسلك جده ، فأعاد كل ما كان من برامج ثقافية ، دون اهتمام بغضب الكنيسة ، واستدعى عالمًا إنجليزياً ، يسمى جون أريجيتا ، كان ملماً بالعربية واليونانية والعبرية ، ومنحه سلطات واسعة فى مجال التربية ، فوضع برنامجاً ثقافياً يقوم على :

١ - ترك مهمة التدريس لأساتذة من العرب ، أو من اليهود الملمين بالثقافة العربية، وللأوربيين الذين تعلموا فى أسبانيا العربية .

٢ - إرسال أكبر عدد ممكن من الطلاب إلى الأندلس ، لتلقى العلم على أيدى العرب .

٣ - ترجمة أهم الآثار العربية إلى اللاتينية ، وبخاصة ما يتصل بالآداب والعلوم والفنون والطب والفلسفة .

كما اهتم بالعربية والإسلام فردريك الثانى (١١٩٤/١٢٥٠) ، ملك صقلية ، ثم إمبراطور جرمانيا ، ما بين (١٢٢٠/١٢٥٠) : وهو حفيد باربAروس (فردريك الأول) .. وقد شجع على تعلم الآداب والفنون والعلوم العربية ، وكانت العربية تدرس بشغف فى

قصره ، فى (بالرمو) ، وقد أهدى هذا الإمبراطور وابنه (مانفرد) جامعات بولونيا وباريس ترجمات لكتب فلسفية عن العربية ، وفى عام ١٢٢٤ أسس الإمبراطور جامعة نابلى ، وجعل منها أكاديمية لإدخال العلوم الغربية إلى العالم الغربى .

وقد كان نصيب هذا الإمبراطور أن طرده البابا جريجورى التاسع من الكنيسة عام ١٢٣٩ ، وكانت إحدى التهم الموجهة إليه ما يبديه من مظاهر الود تجاه الإسلام .

وفى منتصف القرن الثالث عشر قام الفونس ملك قشتاله بنقل العلوم العربية ، وترجمة كتبها .. وأخذ ملوك أوربا وأمراؤها بهذا الاتجاه .

جاء فى كتاب (المستشرقون والتاريخ الإسلامى ص ٢٩/٣٠) :

هناك أمثلة كثيرة توضح الاستشراق العلمى المنظم ، نذكر منها البعثات الثلاث التى قدمت إلى الأندلس ، وأولها بعثة فرنسية ، برئاسة الأميرة اليزابث ، ابنة خال لويس السادس ، ملك فرنسا .. والبعثة الإنجليزية ، على رأسها الأميرة دوبان ، ابنة الأمير چورج ، صاحب مقاطعة ويلز .. أما البعثة الثالثة فأسبانية .

وبعض البعثات من مقاطعات سفوا ، والبافر ، وسكسونيا ، والراين .

وقد بلغ عدد أفراد البعثات سنة ١٢٩٣ سبعمائة طالب وطالبة .

كما بعث الملك فيليب البافارى إلى الخليفة الأموى بالأندلس (هشام الأول) ، يسأله السماح له بإيفاد هيئة تتعرف على حالة بلاد الأندلس .. ودراسة أنظمتها وشرائعها وثقافة مختلف الطبقات فيها ، ليتمكن من اقتباس المثمر المفيد من ذلك لبلاده ، فوافق الخليفة على طلبه .

كما بعث الملك الجرمانى وفداً برئاسة وزيره الأول (ويلميين) ، الذى لقبه الأندلسيون بلقب (وليم الأمين) ، لأنه كان أميناً فى نقل ما رآه من حضارة الأندلس وعظمتها إلى الملك ، وحثه على الاستمرار فى إنفاذ البعثات العلمية لاقتباس معالم الحضارة العربية .

وأرسل ملك إنجلترا ، چورج الثانى ، ابنة أخيه الأميرة دوبان على رأس بعثة من ١٨ فتاة من بنات الأمراء والأعيان إلى أشبيلية ، يرافقهن رئيس موظفى القصر الملكى ، النبيل (سفليك) .

وقدمت بعثات أخرى من فرنسا وإيطاليا وهولنده ، امتلأت بهم معاهد غرناطة وأشبيلية .

ولم يظهر فى أوربا - قبل القرن الخامس عشر - عالم لم يقم بدراسة الكتب العربية ، وظلت ترجمات كتب العرب ، ولاسيما الكتب العلمية ، مصدراً وحيداً تقريباً للتدريس فى جامعاتها ، خمسة قرون أو ستة .

ويرى الأب (خوان أندريس) أن قيام التأليف العلمى في أوربا - فى الطب والرياضيات والعلوم الطبيعية - مرجعه إلى العرب ، ويرى أن روجر بيكون وفتيليون قد استفادا من بصريات الحسن بن الهيثم ، وأن ليوناردو أليزى أخذ الجبر عن العرب ، وأخذ أرنالدو الطب والكيمياء ، كما نهل أعلام الطب الأوربى من كتب العرب ، وخاصة الزهراوى ، كما استوحى (كلير) كشفه لأفلاك الكواكب الدائرية من كتاب البطروجى .

وتم عقد مؤتمر كبير فى فيينا عام ١٣١١ ، تراسه البابا كليمان الخامس ، وقرر أن تؤسس فى باريس وتولون وأكسفورد وسلمنكه مدارس خاصة تدرس فيها العربية والعبرية والكلدانية ، **لتخريج وعاظ يستطيعون تنصير المسلمين واليهود ، أو تشكيكهم فيما هم به يؤمنون .**

ويذكر برنارد لويس أن تعلم العربية لم يكن سهلاً بين الأوربيين فى القرن السادس عشر ، وكان من يحاول ذلك أشبه بمن يتصدى اليوم لتعلم لغة مجهولة ، لا يعرف أحد هجاءها ، كلغة الحيثيين .

ومع هذا كان فرانسوا الأول ، ملك فرنسا ، يجيد اللغة العربية والتركية ، ولما علم أن وليام بوستيل (١٥١٠/١٥٨١) يجيد عدة لغات ألحقه بسفارته فى تركيا لدى السلطان سليم ، وأمره أن يحضر معه إلى باريس كل ما يستطيع الحصول عليه من المخطوطات الشرقية النفيسة .

كان بوستيل قد نذر حياته للعلم ، رغم صوفيته واندفاعه القوى فى خدمة الدين، ورغم جنونه ، فأتقن اللاتينية واليونانية والإيطالية والأسبانية والبرتغالية والعبرية والكلدانية والسريانية والأرمنية والحيثية والعربية ، واهتم بدراسة شعوب هذه اللغات .

وكان اهتمام كثير من المسيحيين بأمر اتحاد الكنائس ، سبيلاً إلى توحيد العمل ضد الإسلام والمسلمين .. حدثت محاولات اتصال مع المسيحيين الشرقيين ، وكان هذا يعنى دراسة لغتهم ونصوصهم ، فى حين كانت إنجلترا وفرنسا والمقاطعات المتحدة (هولنده) أكثر اهتماماً بالتجارة ومخططاتها السياسية فى الشرق .

كذلك أدت تفسيرات الكتاب المقدس التى كانت أحد الموضوعات الرئيسية للجدل بين البروتستانت والكاثوليك - إلى دراسة اللغات الشرقية ، واستمر الأطباء فى الاهتمام بابن سينا ، رغم رد الفعل المضاد للدراسات العربية ، وأدى الخطَر التركى إلى دراسة أوثق للإمبراطورية العثمانية وللإسلام ، ومع تراجع هذا الخطَر - عن طريق النشاط الاستعمارى - أصبح فى الإمكان متابعة الدراسة ، لكنها مشوبة بالكراهية والتحدى والعدوانية .. وانعكس هذا كله على أقلام الأدباء والموسوعيين ، والتنويريين بخاصة .

● جاء فى كتاب (الإسلام والمسيحية ص ٨٦/٦٧) أن دانتى جَمَع فى (جحيمه) كل الخيّرين من غير المسيحيين ، وضع النبى محمداً ﷺ ، نبى الإسلام ، وابن عمه الخليفة الراشدى الرابع ، على بن أبى طالب فى الخندق التاسع الذى يضم مثيرى الصراعات والانشقاقات الدينية والسياسية ، (الذين يزرعون الفتن ، فيحصدون الأوزار) .

وقد رسم صورة لـ (موميتو = محمد) تجسِّد تركيباً سلالياً متصلباً من الشرور، مع من يسميهم (ناشرى الفضيحة والفتنة) ، وجعل عقاب محمد ﷺ أن يشق نصفين من ذقنه إلى دبره ، مثل برميل تمزقت أضلاعه .

وقال تايلور فى كتابه (المسيحية القديمة جـ ١ ص ٢٦٦) : (إن ما نشره محمد وأتباعه فى كل اتجاه لم يكن إلا خرافات منفرة ووثنية منحطة ومخجلة ، ومذاهب كنسية مغرورة ، وطقوساً دينية منْحلّة ، وصبيانية) .

ومن الأساطير التى نشرت عن النبى محمد ﷺ - فى القرون الوسطى - تلك القائلة إنه ساحر كبير ، استطاع عن طريق السحر والخداع تحطيم الكنيسة فى أفريقيا وفى الشرق ، وإنه سمح بالدعارة والفسق لكسب مزيد من الأتباع .

ومن أشهر المستشرقين المتعصبين فى العصور الرسطى (جيبرت أوف نوجنت) الذى كتب عن حياة الرسول محمد ﷺ مجموعة من الأساطير الخرافية ، ابتدعها أو نقلها عن غيره من أعداء الإسلام .. وكان يقول : (لا جناح على الإنسان إذا ذكر بالسوء من يفوق خبثه كل سوء يمكن أن يتصوره إنسان) .

ومنهم (هيلدر برت) أسقف ليمونز ، ورئيس أساقفة (ثور) سنة ١١٢٣ ، فقد كتب عن الرسول ﷺ مجموعة من الخرافات والافتراءات .

واهتم الذين كتبوا عن رسول الله ﷺ بقصته مع بُحَيْرى الراهب ، وأخضعوها لجدل متعصب عقيم .

ومن المستشرقين المتعصبين (توسكان توماس) الذى كتب سنة ١٢٧٨ مجموعة من الخرافات ، ادعى أنه استمدها من كتاب قديم .

وتبعه أمير (بوفيه) الذى نسب مجموعة من الافتراءات الدنيئة إلى الرسول ﷺ وإلى الرسالة .

وفى كتابه (بحث ضد الوثنيين) وصف القديس توماس الإكوينى المسلمين بأنهم وثنيون ، وليسوا هراطقة مجدفين ، ومن هذه الزاوية كان الإكوينى يرى أن المسلمين فى بعض الحالات أقل ارتكاباً للآثام والخطايا ، قياساً على الهراطقة المجدفين من المسيحيين ، وفى حالات أخرى يرى الإكوينى أن المسلمين كانوا أكثر آثاماً وخطايا ، من حيث إن مناقشاتهم مغلوطة فى المسائل والقضايا العقائدية الأكثر اتساعاً وشمولية .

وقد فسر الإكوينى ظاهرة انتشار الإسلام بأن من آمن بدعوته الجهلة البدائيون الذين يعيشون فى الصحراء ، ولم يسبق لهم أن عرفوا أى تعليم أو عقيدة إلهية ، وعن طريق هؤلاء البدو الصعاليك أجبر محمد - بقوة السيف - بقية الناس فى المنطقة على الامتثال لشريعته .

ويؤكد هذا (القديس) المزاعم القائلة إن محمدا ﷺ أغوى كثيراً من الشعوب للدخول فى عقيدته ، من خلال تشجيعه إياها على الحصول على الملذات والشهوات الحسية ، وعن طريق الوعود التى قطعها لها ضمن هذا التوجس الغريزى .

إن توماس الإكوينى لا يستخدم كلمة (القرآن) وحياً من الله سبحانه ، بل يقول (قوانين محمد) .

ولأن كتاب محمد ﷺ هذا هو (حبل الله) ، الذى أمر المسلمين بالاعتصام به ، فقد كانت الدعاوى الكثيرة ضده ، كما كان حال المشركين فى (فجر الإسلام) ، إذ قالوا : (أساطير الأولين اكتتبَها) ، وقالوا (سحر وشِعر وكهانة) .

وجاء المستشرقون اليهود : أمثال جولدزيهر ، وفون كريمر ، وشيلدون آموس ، ليقولوا : إن الشريعة الإسلامية مستمدة من القانون الرومانى ، فهذا القانون هو المصدر الذى أقام فقهاء المسلمين على أساس من قواعده الكيان القانونى للشريعة الإسلامية ، وفى ذلك يقول شيلدون آموس : (إن الشرع المحمدى ليس إلا القانون

الرومانى للإمبراطورية الشرقية) ، معدلاً وفق الأحوال السياسية فى الممتلكات العربية) .

ويستدل هؤلاء العلماء على دعواهم بأن محمداً ﷺ كان على معرفة واسعة بالقانون الرومانى ، كما كان فقهاء المسلمين قد تعرفوا على آراء فقهاء مدارس القانون الرومانى ، وأحكام المحاكم الرومانية فى البلاد التى كانت لا تزال فيها هذه المدارس والمحاكم قائمة بعد الفتح الإسلامى ، بالإضافة إلى تشابه فى النظم القانونية والأحكام والقواعد الموجودة فى الشريعة والقانون الرومانى ، الأمر الذى يعنى أن الشريعة الإسلامية اقتبست هذه النظم والأحكام من القانون الرومانى ، باعتباره سابقاً عليها .

ومن وجهة نظر السبق ، فقد وصل الزعم إلى التوراة والإنجيل ، وكان (بُحَيرى الراهب) أستاذ محمد فى هذا الشأن ، إبان رحلته التجارية إلى بلاد الشام ، وفى هذا يقول ريتشارد بل ، مؤلف كتاب (مقدمة القرآن) : إن محمداً اعتمد فى كتابته القرآن على الكتاب المقدس ، وخاصة على العهد القديم ، فى قسم القصص .. ولكن الجانب الأكبر من المادة التى استعملها محمد ﷺ ليفسر تعاليمه ويدعّمها قد استمده من مصادر يهودية ونصرانية .

ويردّ هذا (الهوسَ) المستشرق بارت ، بأن (معلومات الناس فى مكة - فى عصر النبى ﷺ - عن المسيحية محدودة ، وناقصة ، ولم يكن المسيحيون العرب سائرين فى معتقداتهم فى الاتجاه الصحيح) .

ويقول المستشرق هوارت : (لا تسمح النصوص العربية التى عثر عليها ونشرت وبحثت ، منذ ذلك الوقت ، بأن نرى فى الدّور المسند إلى هذا الراهب السورى إلا مجرد قصة من نسج الخيال) ، هذا مع أن القرآن الكريم يقول : ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ ، مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنت وَلا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَذَا ، فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ .

(سورة هود ، آية ٤٩) .

ويمضى كتاب (الإسلام والمسيحية ص ٩٩/١٠١) فى كشف عورات القوم بقوله:

وسنة ١٦٩٧ ظهر كتاب المستشرق الإنجليزى هنرى بريدو ، بعنوان (الطبيعة الحقيقية للاحتيال المتجسد فى سيرة محمد الشخصية ، بالإضافة إلى مناقشة ترفع

التهمة المماثلة عن المسيحية) .. رأى بريدو فى المسلمين (سلاح الغضب الإلهى) ، وانتقام الرب للخطايا المقترفة من المسيحية الشرقية ، ففى الاضطرابات والانشقاقات المسيحية فى عصره ، وفى المحاولات العنيفة ، وتهم الكفر والإلحاد والوثنية ، فى صراعات الطوائف والفرق والمذاهب الأوربية المختلفة - رأى بريدو الخطر ذاته الذى حل بالمسيحية الشرقية من قبل ، فقال : (لقد فقدنا حقاً عقولنا ، لكيلا نفهم أن الرب باستطاعته أن يرسل فى ظرف مماثل محمداً آخر ليربكنا ويعكر حياتنا) .

ويأتى دور فولتير (١٦٩٢/١٧٧٨) ، وثن العلمانيين ، ليردد ما قاله القديس الإكوينى ، ويقول : إن النبى محمدا نموذج التعصب الدينى ، والطغيان الثيوقراطى ، الذى يستغل مشاعر الناس البسطاء ، ومعتقداتهم الساذجة ، لأجل بلوغ غاياته الشريرة.

وبهذا الصدد كتب إلى أحد أصدقائه : إننى أرى محمداً متعصباً ، عنيفاً ، ومحتالاً ، وعاراً على الجنس البشرى .. تحول من تاجر إلى نبى ، ومشرع ، وملك) .

وفى رسالة إلى ملك بروسيا - حول تراجيديا محمد - شرح فولتير مرة أخرى مفهومه وتصوره لشخصية النبى بقوله : محمد عندى ليس إلا محتالاً بيده سلاح .

وفى (حديث محمد ﷺ إلى الزبير حاكم مكة) يروى فولتير على لسان (الرسول الأعظم) :

(أنصت إن لدى طموحاً ، وكل إنسان له أيضاً طموحات ، بدون شك ، فليس هناك ملك ولا كاهن ولا رئيس ولا مواطن يمكنه أن يعرف مشروعاً فى عظمة مشروعي.. لكل شعب دوره ليسطع نجمه على الأرض ، إما عن طريق القوانين ، وإما عن طريق الفنون ، أو بصفة خاصة عن طريق الحرب ، ولقد جاء أخيراً دور الجزيرة العربية ، فهذا الشعب الكريم قد ظل مجهولاً لأزمنة طويلة جداً ، متروكاً فى صحرائه ، مدفوناً مجده ، وهذه هى الأيام الجديدة التى ترسم للنصر - **وسترتفع الجزيرة العربية على أنقاض العالم** .. لابد أن تكون هناك عبادة جديدة ، وأناشيد جديدة ، وإله جديد للعالم المضلل .. ولقد أتيت بعد ألف عام لأغير هذه السلطات الفجة ، وسأحمل نهراً

أكثر نبلاً إلى الشعوب جميعاً ، وسألغى الآلهة الفاسدة ، وعقيدتى الخاصة هى أن مولدى العظيم هو أول درجات الإصلاح[1] .

ثم جاء هانوتو ، ليقارن بين الإسلام والمسيحية ، فإذا المسيحية ترقى بشأن الإنسان ، إذ تقربه من الحضرة الإلهية ، على حين يحط الإسلام من قدر الإنسان إلى (أسفل الدرك) .

أما المسيو كيمون فى كتابه (باثولوحيا الإسلام) فقد أفرط فى تجرع خمر رديئة، ورفع عقيرته بالنداء ، وهو يدور حول نفسه : (إن الديانة المحمدية جذام نشأ بين الناس ، وأخذ يفتك بهم فتكاً ذريعاً .. بل هو مرض مريع ، وشلل عام ، وجنون ذهولى يبعث على الخمول والكسل ، ولا يصْحُو الإنسان منها إلا ليسفك الدماء . ويدمن على معاقرة الخمر ، ويجمح فى القبائح ، **وما قبر محمد فى مكة** إلا عمود كهربائى يبث الجنون فى رءوس المسلمين ويلجئهم إلى الإتيان بمظاهر الهستيريا العامة والذهول العقلى ، وتكرار لفظة الله إلى ما لا نهاية ، والتعوّد على عبادات تنقلب إلى طبائع أصيلة، ككراهة لحم الخنزير والنبيذ والموسيقى ، وكالجنون الروحانى والليمانيا أو المانيخوليا ، وترتيب ما يستنبط من أفكار القسوة والفجور فى اللذات) .. إلخ .

● وقد تصدى الأستاذ الإمام محمد عبده بالرد (المهذب) على وزير خارجية فرنسا ، هانوتو ، وعلى هذا اليونانى المتفرنس ، مسيو كيمون - فى كتابه (الإسلام بين العلم والمدنية) .. وقدم لرده بقوله ص ٣٦٠ : (أمثال هذا الكاتب - كيمون - يعتقدون أن المسلمين وحوش ضارية ، وحيوانات مفترسة ، كالفهد والضبع ، وإن الواجب إبادة خُمسهم ، والحكم على الباقين بالأشغال الشاقة ، وتدمير الكعبة ، ووضع ضريح محمد ﷺ فى متحف اللوفر .. وهو حل بسيط ، وفيه مصلحة الجنس البشرى ، أليس كذلك ؟ ولكن قد برح عن خاطر الكاتب أنه يوجد نحو ١٣٠ مليون مسلم[2] ، وأن من الجائز أن يهبّ هؤلاء « المجانين » للدفاع عن أنفسهم ، والذود عن بيضة دينهم) .

---

(١) تعلق الدكتورة زينب رضوان على هذا (الغثاء) بقولها : منذ متى كان لمكة رئيس أو حاكم ، إنها مدينة تضم مجموعة من القبائل ، لكل قبيلة رئيس ، ولا تجمع هذه القبائل سلطة ، أو رئيس واحد .. ولم يحدث هذا الأمر إلا مع بداية ظهور الدولة السعودية فى العصر الحديث . وهو تعليق يحتاج إلى تعليق حول مفهوم الرئاسة ، وحول تاريخ الرئاسة فى مكة .

(٢) الآن يتجاوز عدد المسلمين المليار .

تحدث الأستاذ الإمام عن حقيقة (الجبر والاختيار) ، ووقف عند (تأخر المسلمين) ، قائلاً ص ٧٧ :

« إنى لا أنكر أن الزمان تجهم للمسلمين ، كما قد تتكر لغيرهم ، وابتلاهم بمن قد فسد من المتصوفة ، من عدة قرون ، فبثوا فيهم أوهاماً لا نسبة بينها وبين أصول دينهم، فلصقت بأذهانهم ، لا على أنها عقائد ، ولكنها وساوس قد تهلك الجاهل ، وتريك العاقل ، إذا لم يغلبها بعوامل الدين الصحيح ، فنشأ الكسل بين المسلمين ، بفشو الجهل بأصول دينهم ، وعاون على ذلك ميل الأعلياء منهم إلى توريطهم فيما هم فيه ، كما هو شأنهم فى كل أمة .

وهذا الضرب من المتصوفة من حسنات الآريين ، فإنه جاءنا من الفرس والهنود ، بما بقى فيهم من عقائدهم الأولى .

ما أضل هانوتو وأمثاله من قصار النظر إلا أولئك الدراويش الخبثاء ، أو البُله ، الذين يغشَون أطراف الجزائر وتونس ، ولا يخلو منهم اليوم قطر من أقطار الإسلام ، ممَّن اتخذ دينه متجراً يكسب به الحطام ، وجعل من ذكر الله آلة لسلب الأموال من الطغام .

أما لو رجع المسلمون إلى الحقيقة من دينهم لأدوا غرضهم ، واستنبتوا أرضهم ، واستغزروا من الثروة ، وأعدوا لفرنسا ما استطاعوا من قوة ، واعتمدوا فى نجاح أفعالهم على معونة القدر ، وأيقنوا فى صولتهم أن ليس من الموت مفر ، ثم صال صائلهم على مكان العزة منها ، ونال ما ينال القوى من الضعيف ، والعزيز من الذليل ، ولانقلب جنونهم لدى هانوتو عقلاً ، وتحول هذيانهم حكمة وعدلاً » (١) .

وأضاف ص ٩٧ : (وا أسفاه ، لم يبق للمسلم من الدين إلا هذه الثقة فيه ، أما الدين نفسه فقد انقلب فى عقل المسلم وضعه ، وتغير فى مداركه طبعه ، وتبدلت فى فهمه حقيقته ، وانطمست فى نظره طريقته ، وحق فيه قول « على » - كرم اللهُ وجهه -: إن هؤلاء القوم قد لبسوا الدين كما يلبس الفرو مقلوباً) .

---

(١) ما أحسن قول مالك بن نبى : تَخَلّفُ المسلمين (عقوبة مستحقة من الإسلام على المسلمين ، لتخلّيهم عنه ، لا لتمسكهم به ، كما يزعم الزاعمون) .

لكن الأستاذ الإمام لم يفقد الأمل فى بعث قريب .. قال فى ص ٨٧ :

(ألا فليعلما - هانوتو وكيمون - وليعلم كل من يخدع نفسه بمثل حلمهما ، أن الإسلام إن طالت به غَيْبة ، فله أَوْبة ، وإن صدعته النوائب ، فله نوبة .. وقد يقول فيه المنصفون اليوم من الإنجليز ، مثل إسحق تيلر ، وهُوقَسّ شهير ، ورئيس فى كنيسة : «إنه يمتد فى أفريقيا ، ومعه تسير الفضائل حيث سار ، فالكرم والعفاف والنجدة من آثاره ، والشجاعة والإقدام من أنصاره » .. ويأسف أشد الأسف من أن « السُّكْر والفحش والقمار انتشرت بين السكان بانتشار دعوة المبشرين بينهم » ، وقال : « إنه يختار إسلاماً لا سُكْر فيه على مسيحية فيها سكر » .

ثم هو لا يزال ينتشر فى الصين وغيرها من أطراف آسيا ، وسترشده الحوادث إلى طريق الرجوع إلى طهارته ، وتنثنى به الملمات إلى ما كان عليه لأول نشأته ، وتدرك عند ذلك الأمم منه خير ما ترجو ، إن شاء الله) .

وتجب الإشارة إلى أن الإسلام ينتشر اليوم فى عقر دار المبشرين ، فى ألمانيا وفرنسا وأمريكا ، وفى مقدمة الذين أضاء الله بصيرتهم فلاسفة وعلماء ودبلوماسيون ورجال دين .. ولقد جاء على لسان بعضهم أن المسلمين فى أوربا سيعودون إلى الجزيرة العربية ليقوّموا إسلام بنيها .

وقد اهتم الأستاذ الإمام فى رده بالقضايا التى أثارها ويثيرها (المتعصبون) إلى اليوم ، عن نشر الإسلام بالسيف ، وعن الرق ، وعن تعدد الزوجات ، وعن السلطة الدينية ، وعن فضل العلم ، والاحتكام إلى العقل .

● أما القاضى المستنير (قاسم أمين) فقد تصدى للدوق داركور ، النبيل الفرنسى الذى ينتمى إلى أصول نورماندية ، تمتد جذورها إلى القرن الخامس عشر .. زار مصر ثلاث مرات ، ثم نشر كتابه عن (مصر والمصريين) ، مردداً الأوهام الاستشراقية .

فقال قاسم أمين (المصريون ص ٢٩) : إننى أعلم من خبرتى كيف يؤلف الأوربيون كتبهم .. إن (التراجمة) هم الذين يقدمون لهم المادة ، وكلما كانت مرعبة وكاذبة درّت عليهم الذهب .

يقصد قاسم أمين بالتراجمة أولئك الأميين الذين احترفوا (التعريف) بالآثار المصرية ، قبل أن تكون أقسام للآثار بالجامعات .

وقال (المصريون ص ١٢٨/١١٣٣) : خصص الدوق داركور فصلاً من كتابه للحركة التعليمية فى مصر ، وادعى أن نقص الفنون والعلوم فى المجتمعات إنما يرجع إلى تأثير الإسلام السئ ، وتمادَى لدرجة أنه حاول تجريد هذا الدين من العمل المتحضر الذى قدمه للعالم ، فينتزع بذلك ميراثه العظيم ، ومكانته الشامخة ، وأعظم صفاته من العزة والعرفان بالإنسانية .

عندما قام الدوق بمثل هذا البحث الخطير لم يكلف نفسه عناء البحث فى كتابنا المقدس ، أو فى أقوال وأعمال نبيّنا ﷺ ، ولم يقدم أى دليل أو سند كيفما كان ، ولم يحاول - مثل كل الناس - أن يتحرى الدراسة قبل أن يحكم ، وهو يعترف بأنه لم يقرأ أى مخطوط عربى ، فضلاً عن أنه ينقصه تخصص عالم مستشرق مثل (ساديو) الذى اعترف الدوق بعجزه عن منازلته فى هذا الميدان ، ومع ذلك لم يتورع الدوق عن مهاجمة آراء هذا العالم القدير الذى يجله الشرق أجمع ، لاستقامة خلقه ، ولحكمه النزيه .

وإنى أسائل نفسى : إذا كان الدين الإسلامى لم يقف عقبة فى سبيل ازدهار العلوم والفنون طوال عدة قرون ، فلماذا يكون اليوم كذلك ؟ وهل هو يتضمن فى جوهره مبادئ شاذة فى التعليم ؟ أم هل يوجد فى تكوين هذا الدين تعاليم أو وسائل تجافى التعليم ؟ ولنفتح القرآن الذى هو دعامة هذا الدين أمام المسلمين ، هل نجد فى كل هذا الكتاب كلمة واحدة ، لا أقول إنها لا تحض على التعليم ، بل تظهره بشكل غير محبب ؟ كل من اطلع - ولو مرة واحدة - على القرآن لابد أن يتأثر بهذه الميزة الظاهرة ، ألا وهى الاتجاه دائماً إلى عقل الإنسان ، فهو يقول لهم دائماً : انظروا إلى هذا العمل ، وادرسوا هذه المعجزة ، وتفكروا فى هذا المبدأ ، وما أكثر الآيات الكريمة التى تحث على النظر والبحث ، وتُعلى من شأن العلم والعلماء .

إن جميع الأحداث التاريخية التى وردت فى القرآن هى بمثابة عظات أو دروس للمؤمنين ، والوصايا التى يقدمها لهم فى جميع صفحاته ، ليتمعنوا عجائب الخلق فى السموات والأرض ، فى الأشياء والحيوان والإنسان ، وليدرسوا ويدركوا أسرار الولادة ، وانسجام أعضاء الإنسان ووظائفها ، وأسرار الموت ، وهذه قطعاً أعظم الوثائق التى تفوق علوم الطب والتاريخ والفلك ، وجميع فروع العلوم التى وضعت للاستفادة بها ، وتبيان مدى منفعتها .

ولأن الغرب مأخوذ بالأرقام ، قال قاسم أمين (ص ١١٩) : إن إحصائية فرنسية تؤكد أنه يوجد من بين النساء محترفات الفجور رسمياً ٤١٪ من القاصرات وأن أكثر من ربع المواليد أطفال غير شرعيين ، وأن المجتمع يفقد سنوياً حوالى مائة وخمسين ألفاً يموتون فى لحظة الولادة ، أو فى أثناء الحمل ، والإحصائية لا تذكر إلا حالات الإجهاض وما يستتبعها من حالات قتل الأطفال المعروفة ، إنها قد تقدر بنصف مليون ضحية ، وكما قال الكاتب الكبير يوليوس سيمون : (إن الطفل الطبيعى ينجو من الموت بأعجوبة) .

لاحظ أن الإحصائية مرتبطة بزمن تأليف الكتاب سنة ١٨٩٤ .

● أما رينان الفيلسوف المصاب بحمى الباذنجان فقد أوهمته سماديره أن (الإسلام هو احتقار العلم ، وإلغاء المجتمع المدنى ، إنه البساطة المروعة للعقل السامى ، التى تُجدب الدماغ الإنسانى ، وتحول بينه وبين كل فكرة مرهقة ، وكل إحساس رقيق ، وكل بحث عقلانى ، وتجعله فى خدمة توتولوجية أزلية ، الله هو الله) .

وقد لخص محمد روحى فيصل (الرسالة عدد ١١١ سنة ١٩٣٥) فكر هذا الرينان فى :

١ - الجنس السامى توصل إلى أصغر صورة دينية ، لغياب التفكير لديه ، فهو جنس الكتب المنزلة ، والحكم الرمزية ، والمزامير ، والأناشيد .

٢ - إن الجنس السامى تعوزه (الروحانيات السامية) التى عرفها الهنود والألمان ، وليس له هذا الإحساس بالجمال الذى بلغ حد الكمال عند اليونان .

٣ - إن الساميين (بديهتم حاضرة ، لكنها محدودة ، وهم يفهمون الوحدة بشكل غريب ، فالتوحيد هو أهم خصائصهم) ، ومن آثاره الغضب .

٤ - المسلمون تنقصهم (الدهشة التى تدعو إلى التساؤل والتفكير ، والتى تدعو إلى البحث عن الحقيقة) ، فالمعتقد التوحيدى يجعلهم يحيلون كل الأمور إلى الله العلى القدير .

٥ - إنهم بدون فلسفة ، لأن ما هو منقول ليس فلسفة .

٦ - إن شعرهم (يعوزه الاختلاف والتنويع) ، ولهذا يشيع عند العرب الشعر الشخصى الغنائى ، بينما يشيع عند اليهود الشعر المجازى ، فانعدام (المخيلة) ينفى الاختراع .

٧ - الساميون ينقصهم الإحساس بالتنويع ، فالتشريع السامى لم يعرف مطلقاً إلا نوعاً واحداً من القصاص هو الموت ، **وملكة الضحك معروفة عند الساميين** .

٨ - (الأخلاق نفسياً ينظر إليها الساميون نظرة تخالف نظرتنا إليها ، فالسامى لا يعرف مطلقاً أن عليه واجبات إلا لنفسه ، وإذا طلبت إليه أن يحافظ على كلمته ، ويبر بوعده ، وأن يقيم العدل بلا تحيز ، فإنما طلبت إليه مستحيلاً ، فالأنانية تتمثل فيهم بأجلى مظاهرها) .

وجاء فى رد جمال الدين الأفغانى على رينان قوله (الأعمال الكاملة ص٢٠٨/٢٠٩) :

إن المحاضرة تشتمل على نقطتين أساسيتين :

١ - إن الديانة الإسلامية كانت - بما لها من نشأة خاصة - تناهض العلم .

٢ - إن الأمة الإسلامية غير صالحة بطبيعتها لعلوم الطبيعة ، ولا الفلسفة .

(فأما عن النقطة الأولى ، فإن المرء ليتساءل - بعد أن يقرأ المحاضرة عن آخرها - أصدر هذا الشر عن الديانة الإسلامية نفسها ، أم كان منشؤه الصورة التى انتشرت بها الديانة الإسلامية فى العالم ، أم أن أخلاق الشعوب التى اعتنقت الإسلام ، أو حُملت على اعتناقه بالقوة ، وعاداتها وملكاتها الطبيعية - هى جميعاً مصدر ذلك ؟ لاريب أن قصر الوقت المخصص للمسيو رينان قد حال دون جلائه هذه النقطة) .

(وأما النقطة الثانية ، فالكل يعلم أن الشعب العربى خرج من حال الهمجية التى كان عليها ، وأخذ يسير فى طريق التقدم الذهنى والعلمى ، ويُغذّ السير بسرعة لا تعادلها إلا سرعة فتوحاته السياسية ، وقد تمكن فى خلال قرن من التكيف بالعلوم اليونانية والفارسية ، فتقدمت العلوم تقدماً مدهشاً بين العرب ، وفى كل البلدان التى خضعت لسيادتهم) .

(صحيح أن العرب أخذوا عن اليونان فلسفتهم ، كما أخذوا عن الفرس ما اشتهروا به ، بيد أن هذه العلوم التى أخذوها بحق الفتح قد رَقَّوْها ووسعوا نطاقها ، ووضحوها ، ونسقوها تنسيقاً منطقياً ، وبلغوا بها مرتبة من الكمال تدل على سلامة الذوق ، وتنطوى على التثبت والدقة النادرين ، وقد كان الفرنسيون والإنجليز والألمان لايبعدون عن رومه وبيزنطة بُعد العرب عنهما ، وكان من السهل عليهم أن يستغلوا كنوز علوم كلتا المدينتين ، ولكنهم لم يفعلوا ، حتى جاء اليوم الذى ظهر فيه منار المدنية العربية على قمة جبال البرانس ، يرسل ضوءه وبهاءه على الغرب ، فأحسن الأوربيون إذ ذاك استقبال أرسطو ، بعد أن تقمص الصورة العربية - بعد نزوح ابن رشد - ولم يكونوا يفكرون فيه ، وهو فى ثوبه اليونانى ، على مقربة منهم .. أو ليس هذا برهاناً آخر ناصعاً على مزايا العرب الذهنية ، وحبهم الطبيعى للعلوم ؟) .

يقول مسيو رينان : إن أكثر الفلاسفة الذين شهدتهم القرون الوسطى للإسلام كانوا كَتَابِهى السياسيين من أصل حرانى ، أو فارسى ، أو أندلسى ، أو من نصارى الشام.

(ولست أريد أن أغمط علماء الفرس صفاتهم الباهرة ، ولا أن أغضّ الطرف عن الدور الجليل الذى لعبوه فى العالم الإسلامى ، ولكن أرجو أن يسمح لى أن ألاحظ أن الحرانيين كانوا عرباً ، وأن العرب لما احتلوا أسبانيا لم يفقدوا جنسيتهم ، بل ظلوا عرباً، وأن اللغة العربية كانت إلى ما قبل الإسلام بعدة قرون لغة الحرانيين ، ولكنهم قد حافظوا على ديانتهم القديمة ، وهى الصابئة ، ليس معناه أنهم لم ينتموا إلى الجنسية العربية ، وقد كانت أكثرية نصارى الشام عرباً غسّانيين ، اهتدوا بهدى النصرانية ، أما ابن باجه وابن رشد وابن طفيل فلا يمكن القول بأنهم أقل عربية من الكندى ، بدعوى أنهم لم يولدوا فى جزيرة العرب ، وخصوصاً إذا اعتبرنا أن لا سبيل إلى تمييز أمة عن أخرى إلا بلغتها) .

(ثم ، ماذا لو قصرنا نظرنا على الأصل الذى ينتمى إليه العظيم ، ولم نأبه للنفوذ الذى سيطر عليه ، والتشجيع الذى لقيه من الأمة التى عاش فيها ؟ لو فعلنا ذلك لقلنا إن نابليون لا ينتمى إلى فرنسا ، ولما صح لألمانيا أو إنجلترا أن تدعى كلتاهما الحق فى العلماء الذين استوطنوهما بعد أن رحل أصولهم إليها من بلدان أخرى) .

فى بداية القرن العشرين كتب ساندرسون عن (الأزمة العظيمة فى التاريخ العالمي) ، مبيناً أنها تعود إلى الصراع ما بين الاستبداد الشرقى والحرية الغربية ، مع تأكيده الجازم أن (الجنس الآرى العظيم وحده هو القادر على قيادة البشرية نحو طريق الحرية الدينية ، والسياسية ، والحرية الفكرية) - جورافسكى ص ٢٤ .

وهذا القول الذى تردد فى أقلام غربية كثيرة مرده إلى الهزائم المادية والمعنوية التى مُنى بها التعصب الغربى ضد الإسلام ، والانتصارات (الاستعمارية) التى أحرزها الغرب بعد ذلك فى كل من أفريقيا وآسيا وأمريكا وأستراليا .

فى عام ١٩١٠ ألقى بلفور - صاحب الوعد المشئوم سنة ١٩١٧ - محاضرة فى مجلس العموم البريطانى ، ربط فيها بين المعرفة والقوة ، فالمعرفة تمنح القوة ، ومزيد من القوة يتطلب مزيداً من المعرفة .. والمعرفة فى نظره تعنى المسح الكامل لحضارة ما، من أصولها الأولى إلى ذروتها ، لذلك انكبّ الأوربيون - منذ عصور سحيقة - على دراسة الشرق والشرقى ، وكأنهما فى قاعة تدريس ، أو محكمة ، أو سجن ، أو فى دليل موجز لأغراض التحليل العلمى ، وهذا يعنى أن الشرقى اعتبر شيئاً يدرس ، ويؤدب ، ويحاكم ، ويوضح .. والأمم الشرقية - عند بلفور ، كما يقول إدوارد سعيد -لم تؤسس من منطلق (حكم الذات) ، لأنها غير قادرة على ذلك ، مما يحتم على المستشرقين أن يحكموها ويمثلوها ، ويعبروا عن آرائها وتطلعاتها ، وهذا يحتم ضرورة احتلال أوربا للشرق .

وهذا النوع من الفهم كان عاماً فى أوربا ، تأثر به كثير من الكتاب ، أمثال فلوبير ونرفال وسكوت ، وهؤلاء خضعوا لضوابط مقيدة فيما يمكن أن يقولوه عن الشرق .

إن الشرق كان فى نظر المستشرقين يجسّد العالم القديم ، فهو يحنّ إليه كما يحن إلى الفردوس ، ففيه نشأت الأديان ، وعرفت الحضارة فى مهدها الأول .. وبهذا صار موضوعاً أكاديمياً ، وحقل اكتشاف .

يقول فرانسوا دى بلوا ، المستشرق الأمريكى : إن عقود السنين الماضية أبرزت فئة جديدة من (المتخصصين الاستشراقيين) لا تعرف لغات المنطقة ولا تاريخها ، فيما يعرف (بدراسات الشرق الأوسط) التى يعتبر القائمون بها فى الغرب (خبراء شرق

أوسطيين) ، دون أن يعرفوا شيئاً حقيقياً ، إنهم مستشرقو برميل النفط ، الذين يجدون - رغم كل شيء - من يصدق خبرتهم ، ويطبع دراساتهم ويقرؤها ، مع أنهم لا يمتازون عن (خبراء القروض) الذين تبعث بهم حكوماتهم ، لا ستنزاف القروض فى مرتبات ومكافآت ، مقابل تجسسهم على البلاد (المدينة) المستخذية ، حتى لجان التنمية والمعونة ، وحقوق الأنسان ، صارت تعمل عمل العرائس التى تحركها خيوط من وراء ستار ، وبدون ستار .

وقد ظهرت فى السنوات الأخيرة بحوث للمستشرق الهولندى الكبير سنوك مرغونيه فى السياسة الاستعمارية بإندونيسيا ، تؤكد عمل الاستشراق فى خدمة الاستعمار .

ولم يعد خافياً دور ماسينيون (الحجة) فى التصوف الإسلامى ، فى خدمة الحكومات الفرنسية المتعاقبة ، كضابط فى الجيش والمخابرات ، ثم فى دعوته إلى قيام تحالف (إيمانى) إسلامى / مسيحى / يهودى ، فى وجه الاتجاهات المادية ، وهو تحالف أشبه (بحلف بغداد) الأقرب إلى تحالف الذئب والحمل ، أو الثعلب والدجاجة.

وهذا الداعية للحلف اشترك فى المؤامرة الفرنسية البريطانية ، المعروفة باتفاقية سايكس بيكو ، فى حين كان يحظى بصداقات عربية على مستوى عال !!

وهناك اليوم عاملون كثيرون فى مضمار ما يسمى بدراسات الشرق الأوسط ، وضعوا أنفسهم فى خدمة الصهيونية ، متربصين ومنطلقين من معاهد بداخل فلسطين، أو بالولايات المتحدة ، وبالعواصم الأوربية ، شرقاً وغرباً .

ومن هؤلاء المستشرق الأمريكى برنارد لويس ، ودوركايم اليهودى فى فرنسا ، ومرجليوث اليهودى فى إنجلترا ، وقد تخرج على أيديهم عشرات الطلاب العرب واليهود، وفى مقدمة هؤلاء سعادة الباشا (العميد) الذى ملأ كراسى الجامعة والمجمع اللغوى بهؤلاء (الأحباب) ، حتى لا يكون عبقرياً عاقاً .

ومنذ ثلاثة عقود - من السنين - على الأقل ، أخذت حكومات الإمبريالية تمول معاهد وأقسام الدراسات العربية والشرق أوسطية بجامعاتها ، لأنها تنتظر من العاملين فيها تقديم دراسات تحليلية مفيدة لسياساتها الاقتصادية بالشرق .. وربما كان الأمر أوضح بالولايات المتحدة الأمريكية ، وبخاصة أن الشركات التى تعمل بالشرق هى التى تتولى الإنفاق على النشاط الاستشراقى وتوجيه دراساته .

وزاد الطين بلة فى السنوات الماضية إقبال جهات عربية وشرقية على تمويل كراسى ومعاهد لبحوث الإسلام والشرق الأوسط بالولايات المتحدة الأمريكية وأوربا الغربية ، تماماً كما تفعل فى تمويل القواعد العسكرية الأمريكية والأوربية التى تجثم على صدرها ، لتحمى (ذمارها) ، وتمتص ثمارها .. وتماماً كما تودع ما تدرّه حقول النفط فى (مصارف) أمريكية وأوربية ، يديرها أبناء العم (يهوذا) !!

ومن الفُسُولة أن بعض الدول العربية كانت قد سعت إلى إنشاء كرسى للغة العربية فى جامعة سدنى باستراليا ، فحالت نفقاته التى تبلغ خمسة عشر ألف جنيه بينها وبين إنشاء هذا الكرسى ، فى حين أن هبات الأفراد فى أمريكا لكرسى اللغة العربية ، فى جامعة هارفارد ، تبلغ مائتى ألف دولار ، وأن مؤسسة كارنجى قد ساعدت بمبلغ خمسة وثلاثين مليونا من الدولارات للمؤسسات الاستشراقية ، وذلك فضلاً عن الميزانية المعتمدة من الحكومات .. وقد صادفت هذه (الفسولة) أن أحد (الأمراء) خسر فى ليلة واحدة على مائدة القمار ، فى إحدى العواصم الغربية ٨٠٠ مليون دولار .

ومما يلفت الانتباه أن ألمانيا الدولة الأوربية الوحيدة التى ليست لها مصالح كبيرة فى الشرق - بعد أن قطعت الحربان العالميتان أذرعتها الممتدة إلى كل من آسيا وأفريقيا وأوربا ، فى أكثر من محاولة ، للسيطرة على العالم - ولعله من أجل هذه الانعكاسات ، قدمت أهم المستشرقين العاملين (أكاديمياً) فى مجال تاريخ الشرق وحضارته ، تلمساً لما تجود به الأيام والليالى .

● ويضيف فرانسوا دى بلوا أن الدولة الإمبريالية يئست من إمكان رد المسلمين عن دينهم ، كما يئست أيضاً المؤسسات المسيحية الغنية فى الغرب ، وانصرف الاهتمام إلى استدراج مسلمين ، ومسلمين محافظين ، للعمل معهم ولهم ، دونما تركيز على (هدايتهم) للمسيحية ، بل من أجل إثارة الفتن الطائفية ، ونشر الضلالة ، والأفكار الهدامة ، والسخرية من (الرموز) الإسلامية ، وتخريب بيوت المسلمين بأيدى المسلمين، تحت شعار (التكفير والهجرة) ، و (معنا أو علينا) .. هذا بالإضافة إلى استخدام (الاستعمار) الأجهزة الحديثة ، من الأقمار الصناعية إلى (الإنترنت) ، من أجل ترويج الأخلاقيات الفاسدة .

ومما ساعد على هذا التوجه الأكثر خطورة أن المسيحية - بوصفها نظاماً فكرياً وسلوكياً - قد انتهت فى الغرب من زمن بعيد ، وصارت العدوانية تجاه الشرق العربى والإسلامى تنبع من الحرص على الربح ، والتفوق فى المنافسة .. إن الدين يصبح مزعجاً للإمبرياليين إذا شكل عائقاً فى سبيل أهدافهم ، و كان الدافع لمقاومة سيطرتهم ، ولهذا لما فرغوا من أمر الشيوعية كعامل تحد أو تنافس ، صار الإسلام هو الهدف ، والعدو الأول ، ومن ثم حشدت كل الإمكانيات التآمرية ضده .

● وكما مدت اليهودية (الاستعمارية العالمية /الصهيونية) أذرعتها بالسيطرة الاقتصادية والإعلامية ، وبأندية القمار والفجور ، وبعروض السينما ، وترويج أفلام الڤيديو الفاضحة ، وتهريب السموم البيضاء والسوداء والحبوب (الزرقاء) ، واستغلال المحافل الماسونية التى تستقطب مراكز القوى فى العالمين ، السيد والمسود ، المنتج والمستهلك - أسوأ استغلال ، كذلك اليوم تفعل المؤسسات (الاستشراقية / التبشيرية / الاستعمارية) .

يقول الدكتور محمد البهى فى كتابه (الفكر الإسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى) : لقد سلك التبشير طريق التعليم المدرسى ، فى دور الحضانة ، ورياض الأطفال ، والمراحل الابتدائية والثانوية ، للذكور والإناث على السواء ، كما سلك سبيل العمل (الخيرى) الظاهرى ، فى المستشفيات ، ودور الضيافة ، والملاجئ للكبار ، ودور اليتامى واللقطاء ، ومدّ يديه إلى دور النشر والطباعة ، واستحوذ على الأقلام ذات الفعالية ، ومهّد لأصحابها خير المواقع . وزودهم بالمعلومات .

ومن المؤسسات (الاستشراقية / التبشيرية / الاستعمارية) فى مصر :

١ - المعهد الشرقى بدير الدومنيكان ، بشارع مصنع الطرابيش .

٢ - ندوة الكتّاب ، بشارع سليمان باشا .

٣ - دار السلام ، بكنيسة دار السلام بمصر القديمة .

٤ - المعهد الفرنسى بالمنيرة .

كل هذ المؤسسات تخضع للاتجاه الكاثوليكى فى بحث الإسلام وتراثه ، وتخضع كذلك للنفوذ الفرنسى ، والذين يعاونونها من المصريين هم أصحاب الثقافة الفرنسية ، ممن درسوا فى فرنسا الآداب الشرقية والثقافة الإسلامية ويرعاها - كأب روحى -

المستشرق الفرنسى لويس ماسينيون ، عضو المجمع اللغوى بالقاهرة ، ومستشار وزارة المستعمرات الفرنسية فى شئون شمال أفريقية[1] .

يقول جورافسكى (ص ١٣٥) : فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين ، أنشأ المبشرون الكاثوليك مجموعة من المراكز العلمية فى البلدان العربية : جامعة القديس يوسف الكاثوليكية فى بيروت ، وتعرف الآن بالجامعة اليسوعية ، والمعهد الدومينيكانى للدراسات الشرقية فى القاهرة ، ومعهد دراسات (الآباء البيض) فى تونس .. ونشطت جمعية من الكهنة الكاثوليك فى إنشاء معاهد كثيرة فى شمال أفريقيا .

وعشية قيام الحرب العالمية الثانية ، كانت الجالية الأمريكية فى الشرق الأوسط قد وصلت إلى القدرة على (التدخل السريع) .. كانت ثلاث مدارس أمريكية للبنات فى لبنان وحده ، وإلى جانبها الجامعة الأمريكية فى بيروت ، التى كانت تسمى (الكلية السورية الإنجيلية) ، ثم كلية بيروت ، وهى جامعة بروتستانتية ، أنشئت سنة ١٨٦٥ ، ثم عمل على تطويرها وتوسيعها .. وكانت الجامعة الأمريكية فى القاهرة قد فتحت أبوابها سنة ١٩٢٠ ، ورأسها تشارلز واطسُن ، الذى ترجع جذوره فى التبشير البروتستانتى فى مصر إلى عام ١٨٦١ ، وقد افتتحت شعبة لإعداد المعلمين ، ودائرة للخدمة الريفية ، وألحقت بالجامعة مدرسة للدراسات الشرقية ، وقاعة يورت التذكارية لإلقاء المحاضرات العامة ، وتقديم العروض السينمائية .. كل هذا أدى إلى أن أصبحت الجامعة الأمريكية فى القاهرة بسرعة محور النشاط التبشيرى الأمريكى فى مصر ، تماماً كما كان حال الجامعة الأمريكية فى بيروت .. وتماثلت الجامعتان فى اجتذاب أبناء المؤسسة الحاكمة فى مصر والشام ، (فأصبحت - كما يقول روبرت كابلان ص ١٧١/١٧٠ - حاضنة الوطنية المصرية ، تماماً كما كانت الجامعة الأمريكية فى بيروت حاضنة القومية العربية) .

---

(١) لقى ربه كل من الدكتور البهى والمستشرق ماسينيون ، وتغيرت الوجوه والأماكن ، ولم يقتصر الأمر على (التآمر) الفرنسى أو الإنجليزى ، فقد زحف رعاة البقر والغنم والجراد ، ولم يتركوا مكاناً ذا أهمية إلا شغلوه ، تحت راية (الاستعمار) ، باسم المعونات والقروض ، وتحت دعوى (حقوق الإنسان) ، وحماية الأقليات ، ونشر المدنية والحضارة والهامبورجر والفياجرا .

وأنشأت الجامعة الأمريكية فى بيروت معهداً لتدريس العربية ، دون أن يرتبط رسمياً بالجامعة ، وإن كان جزءاً لا يتجزأ من عالم الاغتراب والوافدين ، وقد تخرج فى هذا المعهد دبلوماسيون ، وعناصر من المخابرات الأمريكية .

وكان القصد من الجامعة الأمريكية فى القاهرة أن تكون قريبة من الجامع الأزهر، على سبيل التحدى ، أو على أساس تشويش الفكر عند طلاب الأزهر ، ببث أفكار شوهاء فى محيط فكر (منغلق) .

جاء فى المنشور الذى أصدرته الجامعة الأمريكية فى بيروت عام ١٩٠٦ ، بعد احتجاج الطلبة المسلمين على وجوب الاشتراك فى طقوس الكنيسة : (إن هذه الكلية مسيحية ، أسست بأموال شعب مسيحى ، هم اشتروا الأرض ، وهم أقاموا الأبنية ، وهم أنشئوا المستشفى وجهزوه ، ولا يمكن للمؤسسة أن تستمر إذا لم يساندها هؤلاء ، وكل هذا قد فعله هؤلاء ليوجدوا تعليماً يكون الإنجيل من مواده ، فتفرض منافع الحقيقة المسيحية على كل تلميذ .. وكل طالب يدخل مؤسستنا يجب أن يعرف من قبل ما يطلب منه) .

كما أعلن مجلس أمناء الكلية فى هذه المؤسسة (أن الكلية لم تؤسس للتعليم العلمانى ، ولا لبث الأخلاق الحميدة ، ولكن من أولى غاياتها أن تعلّم الحقائق الكبرى التى فى التوراة ، وأن تكون مركزاً للنور المسيحى ، وللتأثير المسيحى ، وأن تخرج بذلك على الناس ، وتوصيهم به) .

إعلان صريح عن دور الجامعة الأمريكية فى بيروت ، وبالتالى فى مصر ، وهو الدور المعلن المكشوف الذى يستتبع دوراً تبشيرياً يخرج المسلمين من ظلمات الإسلام المتخلف إلى نور المسيحية المتحضر .

وفى عام ١٩١٦ أسس (معهد الشرق الأوسط) فى واشنطن ، وما لبث أن أُتبع عام ١٩٤٩ (بمجلس الشئون الشرق أوسطية) فى نيويورك .

وفى عام ١٩٤٧ عمدت لجنة سكاربورج - بناء على مشورة (أ . أربرى) - إلى الشروع فى تجديد الاستشراق البريطانى ، إذ كانت نهاية الحرب تُملى الاضطلاع

(بالمسئوليات التى تظل ملقاة على عاتقنا فى المستعمرات ، وبعلاقاتنا مع دول الدومينيون، وهى دول قريبة من شرق آسيا وأفريقيا ، فضلاً عن علاقاتنا الجديدة بالهند وبرمانيا وسيلان) .

وبعد أربع سنوات ، جاء رد فعل لجنة (هايتر) رداً عنيفاً ، يندد بوضع ما زال مخيباً للآمال ، بما أن مركز الثقل فى العالم قد انتقل من أوربا ، فإن الأهمية الراهنة لا ينبغى أن تعوّل على علماء اللغة ، على (فائض من المؤرخين ، والحقوقيين ، والاقتصاديين ، والاختصاصيين فى العلوم الاجتماعية) ، أما أهم الأهداف فهى :

١ - أن يتوفر للأمة احتياطى أعظم مما هو متوفر لها الآن ، وأشد توازناً من جهة الباحثين ، ومن جهة المواد المنشورة حول هذه البلدان .

٢ - أن يُصار إلى المشاركة فى تشكيل هيئة تتولى المواد المنشورة حول هذه البلدان.

٣ - أن يُصار إلى تشجيع الاهتمام باللغات الشرقية ، تشجيعاً غير مباشر .

٤ - أن يُصار إلى رفع نسبة الدراسات الحديثة ، ونسبة دراسة اللغات الحديثة ، قياساً على الدراسات الكلاسيكية .

- ٥ -

يقول المستشرق الألمانى بيكر : (إن هناك عداء من النصرانية للإسلام ، بسبب أن الإسلام عندما انتشر فى العصور الوسطى أقام سداً منيعاً فى وجه انتشار النصرانية، ثم امتد إلى البلاد التى كانت خاضعة لسلطانها) .

وبيكر هذا يقول عنه أولريش هارمان ، المستشرق الألمانى : إنه كان (منغمساً فى النشاطات السياسية ، حتى أصبح فى عام ١٩١٤ شديد الحماسة لمخطط استخدام الإسلام فى أفريقيا والهند كدرع سياسية فى وجه البريطانيين) .

وفى مثل هذا النوع من الاستشراق قال استيفان فيلد ، المستشرق الألمانى : (توجد جماعة يسمون أنفسهم مستشرقين سخروا معلوماتهم عن الإسلام وتاريخه فى سبيل مكافحة الإسلام والمسلمين ، وهذا واقع مؤلم لابد أن يعترف به المستشرقون المخلصون لرسالتهم بكل صراحة) .

ويقول الدكتور إبراهيم اللبان : (سمعت أحد كبار المستشرقين يتحدث أمامى ، فيذكر أن مستر إيدن - رئيس الوزراء البريطانى إبان العدوان الثلاثى على مصر سنة ١٩٥٦ - كان قبل أن يضع قراراً سياسياً فى شئون الشرق الأوسط ، يجمع المستشرقين المستعمرين ، ويستمع إلى آرائهم ، ثم يقرر ما يقرره فى ضوء ما يسمعه منهم ، هذا إلى أن بعضهم كان يؤسس صلات ثقافية بالبارزين من رجال الأمة العربية ، ويتخذ من هذه الصلات ستاراً يقوم من ورائه بأعمال التجسس فى أثناء الحرب) .

وفى تقرير وزير المستعمرات البريطانى بتاريخ ٩ يناير ١٩٣٨ : (إن الحرب علمتنا أن الوحدة الإسلامية هى الخطر الأعظم الذى ينبغى على الإمبراطورية أن تحذره وتحاربه ، وليست الإمبراطورية وحدها ، بل فرنسا أيضاً ، ولفرحتنا فقد ذهبت الخلافة ، وأتمنى أن تكون إلى غير رجعة) .

وتقول مجلة (العالم الإسلامى) الإنجليزية الاستشراقية : (إن شيئاً من الخوف يجب أن يسيطر على العالم الغربى ، ولهذا الخوف أسباب ، منها : أن الإسلام - منذ أن ظهر فى مكة - لم يضعف عددياً ، بل هو دائماً فى ازدياد واتساع ، ثم إن الإسلام ليس ديناً فحسب ، بل إن من أركانه الجهاد ، ولم يتفق قط أن شعباً دخل فى الإسلام ثم عاد نصرانياً) .

لهذا كان همّ الغرب (سلب الحركة الإسلامية عنصر القوة ، والتمركز فيها) ، كما صرح القس كالهون سيمون .

وقد اتخذ هذا (السلب) وسائل مختلفة ، لكن أخطر هذه الوسائل هو محاولة الفصل بين المسلمين والتراث الإسلامى ، ولأن التراث الإسلامى بلغة القرآن ، فإن الترويج للغات الأجنبية يساعد على (توهين) الروابط مع التراث ، وفى هذا السبيل كان الاهتمام بنشر الثقافتين الفرنسية والإنجليزية ، وتبعتهما الألمانية والإيطالية والروسية والصينية واليابانية ، وإن كان قد غلب على تعلم بعض اللغات (الوعى التجارى) .

ثم كان الاهتمام باللهجات العربية الحديثة التى زعم الأستاذ العقاد أن (المصالح التجارية) لبعض الدول الأوروبية مع العالم العربى هى التى أدت إلى الاهتمام باللهجات

العربية الحديثة ، مع أن العَرب يتنافسون على النطق الصحيح باللغات الأجنبية ، أو بالكلمات الأجنبية فى مجالسهم ومحافلهم ، ويتخذها التجار والحرفيون فى الإعلان عن شئونهم ، والمثقفون يردفون الكلمة العربية بأخرى أجنبية ، إظهاراً للبراعة وسعة الثقافة، حتى الشعر الذى هو الشعر جعل شاعر كان يشار إليه بأصابع اليدين والقدمين يهجنه بجمل إنجليزية (!!) ، وشاعر آخر دعا إلى إلغاء النحو العربى ، وشاعر ثالث حاول أن يهدم صرح العربية الشامخ ، ويثبت أن أصحاب هذا الصرح غير مبدعين ، وأنهم لم يقدموا للإنسانية شيئاً ذا بال .. ومما هو جدير بالإشارة أن العقود مع المؤسسات العربية ، ولغة الحوار مع البعثات الأجنبية تتم فى العادة بلغة الأجنبى ، حتى ولو كان يجيد العربية .

من هنا كان الاهتمام بتعيين مدرسين عرباً فى الجامعات الأوربية ، لتدريس اللهجات العربية ، منذ القرن التاسع عشر ، مما يدعو إلى مزيد من الانتباه والاهتمام والوعى بالمصير .

ومن أوائل المدرسين العرب الذين أغروا بالعمل فى هذا المجال إلياس بقطر الذى شغل كرسى العربية العامية ، بمدرسة اللغات الشرقية بباريس سنة ١٨٢٠ .. وكان محمد عياد طنطاوى مدرس العامية المصرية ، فى كلية اللغات الشرقية ، بجامعة بطرسبرج التى أسست سنة ١٨٥٥ .. وقام أحمد فارس الشدياق بتدريس العامية السورية ، فى الجامعات البريطانية ، وألّف فيها (أصول العربية المحلية) سنة ١٨٥٦ .. واشتغل ميخائيل صباغ بنفس العمل فى استراسبورج ، وصنف (الرسالة التامة فى كلام العامة) ، و (المناهج فى أصول الكلام الدارج) ، سنة ١٨٨٦ .

وإذا كان علماء العرب (بُقْطر والطنطاوي ، والشدياق ، والصباغ) قد ألفوا كتباً في العامية بدافع تسهيل دراسة العربية الدارجة لتلاميذهم الأجانب ، فإن علماء الاستشراق الذين ألفوا كتباً فيها قد فعلوا ذلك (من أجل القضاء على العربية الفصحى ، وإحلال العامية محلها .. لأن روح العداء للعربية الفصحى والرغبة فى إقصائها عن الميدان الأدبى ، لم تنتشر إلا عن طريق الأجانب) ، للقضاء على (الجذور) ، والفصل بين العرب والتراث ، ولإقامة سدّ منيع بين العرب والدين ، ومن ثم يسهل شنقهم على حواف آبارهم !!

وفى سنة ١٨٨٠ - وصندوق الدين يدفع بمصر إلى براثن الاحتلال العسكرى السافر - نشر الدكتور ولهلم سبيتا ، مدير دار الكتب المصرية كتابه (قواعد العربية العامية فى مصر) ، وقد تنبأ فيه بمصير العربية الفصحى إلى الموت كما ماتت اللاتينية.. وفى سنة ١٨٩٠ ظهر كتاب (اللهجة العربية الحديثة فى مصر) لكارل فولرس الذى خطا على منهج سبيتا ، واستنبط حروف اللاتينية لكتابة العامية القاهرية، وتدوين نصوص منها .

وفى سنة ١٩٠١ ظهر كتاب (العربية المحلية فى مصر) لسلدن دلمور ، وقد سلك مسلك سابقيه .

وفى سنة ١٩٢٦ ظهر كتاب (المقتضب فى عربية مصر) لفيلوت وبول اللذين عملا على تيسير دراسة العامية المصرية .

هذا بالإضافة إلى ما صنع المهندس الإنجليزى للرى ، وليم كوكس ، الذى أصدر مجلة (الأزهر) سنة ١٨٩٣ ، ليحطم كل القيم العربية والدينية ، وكانت المجلة من قبل لاثنين من شيوخ الأزهر ، هما إبراهيم مصطفى وحسن رفقى ، ثم اشتراها كوكس ، واحتفظ باسمها على سبيل التحدى ، وقد زعم أن اللغة الفصحى هى التى أماتت قوة الإبداع فنياً ، ولا أمل فى إحياء هذه الأمة إلا إذا اتخذت العامية لغة كتابة وتأليف .

ولا ننسى دور كل من كرومر ودنلوب فى محاربة الفكر العربى والإسلامى ، والتشكيك فى قدرة العربية والإسلام على النهوض بتبعات العصر الحديث .

فلما كانت أحداث تركيا وإلغاء الخلافة ، واللغة العربية ، والكتابة بالحروف اللاتينية ، وتتريك الأذان والصلاة ومنع الدراسات الدينية ، وإغلاق كتاتيب تحفيظ القرآن الكريم - على يد يهود (الدونمة) - ظهرت فئران التجارب ، التى عنى بتربيتها المستشرقون المتعصبون ضد الإسلام ، فكان من دعا إلى كتابة العربية بالحروف اللاتينية .. ومن دعا إلى عدم شرعية الخلافة الإسلامية ، وأنكر وجود دولة إسلامية ، وقضاء إسلامى ، فهلّل له التنويريون ، منذ عام ١٩٢٥ إلى اليوم ، وإلى ما شاء الله .. وكان من دعا إلى أن جميع الشعر الجاهلى - وهو من مصادر التفسير القرآنى - تمت

صياغته ونحله فى العصر الإسلامى ، والعباسى بخاصة ، وشكك فى تاريخية القصص القرآنى ، وبخاصة أخبار الأنبياء ، وكان الداعية إلى الفرعونية ، وإلى أن مصر أقرب إلى شعوب وحضارات البحر المتوسط منها إلى شعوب وحضارات آسيا وأفريقيا .

وفى خضم هذه التظاهرة بضرورة الانسلاخ من جلودنا ، لنلبس (الفرو مقلوباً) قال سلامة موسى ، أحد شيوخ التنوير ، وعين أعيانه :

(إنى أعتقد أن ٩٠ ، بل ربما ٩٩٪ من كتّابنا سلفيون ، وهذه السلفية هى نتيجة لحرمان الأمة من الرقى الصناعى ، وقصرها على الزراعى ، وعرقلة - بل عرقبة - كل تقدم صناعى حاولته الأمة فى السنين الأخيرة ، لأن الموقع الصناعى كان جديراً بأن يحدث مجتمعاً مستقبلياً ، يكتب مؤلفوه بلغة الشعب ، وتنتقل اهتماماتهم الذهنية من التأليف عن قدماء العرب ، إلى التأليف عن مشكلاتنا العصرية .. وإنى بالطبع لا أغفل هنا عن ارتباط اللغة بالتقاليد والعقائد ، وأن هذا الارتباط من أسباب الكراهية للتطور اللغوى ، أعنى أن العقلية الكلاسية فى اللغة ، عقلية التقاليد التليدة ، قد أحدثت لنا مزاجاً أدبياً اجتماعياً ، هو النظر إلى الماضى ، ومحاولة استرداد الأمس ، والتبلد والتجمد ، فى الوقت الذى نحتاج فيه إلى أن نشق طريقنا إلى المستقبل) .

يلاحظ أن لشيخ التنوير كتاباً بعنوان (هؤلاء علمونى) لم يذكر فيهم عربياً أو شرقياً ، ما عدا غاندى ، حتى لا يوصم بالرجعية .

ثم كان الاهتمام بدراسة اللهجات العربية ، على الأسس الاستشراقية ، وكانت العناية باللغة العامية ، وكتابة القصة والشعر بهما .. وجاء زمان يشجع على الطعن فى المقدسات ، فنُسب القرآن إلى (محمد) ﷺ الثائر العربى ، وزُعم أن القرآن بصيغته العربية مُوجَّه إلى العرب فقط لا غير ، كما وجهت التوراة إلى اليهود ، مع أن التوراة كتبت بغير لغة موسى ، والأناجيل كتبت بغير لغة عيسى (!!) .. وكانت الدعوة إلى إعادة كتابة القرآن حسب ترتيب نزول آياته ، كم فعل بعض المستشرقين الألمان .. وكانت الدعوة إلى تطوير التشريع الإسلامى ، وبخاصة ما نَصّ عليه القرآن الكريم بشأن حقوق المرأة ، والميراث .. وعقدت مؤتمرات باسم حقوق المرأة ، تحت المظلة الأمريكية ،

من أجل المساواة مع الرجل (فى كل شىء) ، فى حرية الحركة ، وحرية العمل ، وفى طلب الطلاق ، وفى الاستيلاء على شقة الزوجية ، وإنكار الحجاب .. إلخ .. إلخ ، حتى طالبت زعيمة يتردد صوتها على كل الموائد ، شرقية وغربية ، بعدم ختان الرجال ، أسوة بعدم ختان الإناث .. وكان تفتيت الأسر ، وعدم الإقبال على الزواج ، وانتشار الاغتصاب بتشجيع من القانون الذى يسقط العقوبة إذا تزوج الذئب ضحيته ، كما انتشر الزواج (العرفى) بين صبيان المدارس وشبان الجامعات .. وامتلأت المحاكم بقضايا الرجال والنساء والأولاد !!

● إننا لا ننكر أثر الاستشراق فى تحقيق التراث ، لكنا لا ننسى نهب هذا التراث ، مع الاعتراف بجريمة التفريط فى حفظه .. وإذا كانت الآثار الفرعونية والآشورية والفينيقية تغص بها المتاحف الأوربية والأمريكية ، فإن المخطوطات العربية فى كل من أوربا - شرقية وغربية - وأمريكا أكثر منها فى البلاد العربية .. لقد سرقوا تاريخنا وثرواتنا ، وهم بصدد أن يفسدوا علينا ديننا وأخلاقنا (!!) وحسبهم أنهم نجحوا إلى الآن فى الإيقاع بين الشعوب الإسلامية ، وبين الحكومات الإسلامية ، بحيث صارت الاتهامات المعلقة بين اللّحَى والجلاليب والحجاب والنقاب هى الشغل الشاغل عما يكاد لنا نهاراً جهاراً ، انفتاحاً واستثماراً .

نقلت الدكتورة عائشة عبد الرحمن فى (تراثنا بين ماض وحاضر ص ٤٠/٤١) عن (خطط الشام) للأستاذ محمد كرد على : (من المصائب التى أصيبت بها كتب الشام أن بعض دول أوربا ، ومنها فرنسا وجرمانيا وبريطانيا وهولنده وروسيا ، أخذت تجمع منذ القرن السابع عشر كتباً من تراثنا تبتاعها من الشام ، بواسطة وكلائها وقناصلها والأساقفة والمبشرين من رجال الدين ، وكان قومنا - ولا سيما من اتسموا بشعار الدين ، ومن كان يرجع إليهم أمر المدارس والجوامع ، بلغ بهم الجهل والزهد فى الفضائل أن يفضلوا درهماً على أنفس كتاب ، فخالفوا الأمانة ، واستحلوا بيع ما تحت أيديهم ، أو سرقة ما عند غيرهم ، والتصرف فيه كأنه ملكهم) .

وهو ما جرى فى كل بلد عربى ، إذ كانت المساجد تابعة لإدارة الأوقاف ، وغالباً ما يكون المسجد تابعاً لوقف شخصية ذات أهمية اجتماعية ، علمية ، أو سياسية ،

أو اقتصادية ، أو عسكرية ، فيزود المسجد بمكتبته الخاصة ، أو بمكتبة أسرته ، ويأتى أهل الخير فيضيفون إلى المكتبة ما حصلوا عليه من الكتب ، بالشراء ، أو بالميراث ، أو بالهبة .

وجاء فى كتاب (الاستشراق الفرنسى والأدب العربى ص ١٠/١١) أن الوزير الشهير كولبير كان يكلف بعض المعتمدين فى الشرق بالبحث عن المخطوطات العربية ، لترويد مكتبة لويس الرابع عشر بها .

وقد تعددت البعثات المماثلة خلال القرن الثامن عشر ، بالإضافة إلى الهواة الذين كثر ترددهم على مَظَانّ الذخائر العربية .

ونجح قنصل فرنسا فى مصر (أسلان دى شرفيل) فى أن يجمع وحده ١٥٠٠ مخطوطة ، وكذلك فعل شارل شيفر الموظف بالسفارة الفرنسية باسطنبول ، حتى بلغ عدد المخطوطات العربية فى المكتبة الوطنية وحدها ٣٥٠٠ مخطوطة ، وتجاوز عدد المخطوطات فى فرنسا سبعة آلاف ، حفظت بأحدث الوسائل العلمية .

وأرسل فريدريش فلهلم الرابع ، ملك بروسيا ، كلاً من ريتشارد ليبيوس وهنريش تبرمان - إلى الشرق لشراء مخطوطات ، وقد لقيت هذه المخطوطات فى أوربا اهتماماً عظيماً ، وتمت صيانتها والعناية بها وفهرستها فهرسة علمية وصفية دقيقة .

وقام ألوارد Alwardt بوضع فهرس للمخطوطات العربية فى مكتبة برلين ، بلغ عشرة مجلدات ، حظيت بجهد فنى وشمول دقيق .

تقول الدكتورة عائشة (ص ٤٨) : إن فهارس المخطوطات العربية فى مكتبة برلين وحدها كانت تملأ - إلى عام ١٩٣٠ - عشرة مجلدات ضخمة ، وإن أحد طلاب جامعة برنستون القدامى أهدى إلى جامعته مكتبة فيها ستة آلاف مخطوط عربى .

وبلغ رصيد معهد الاستشراق فى طشقند ، عاصمة أوزبكستان ثمانين ألف مخطوط باللغة العربية واللغات الشرعية .

وهناك مجموعات أخرى فى قازان ، وباكو ، وتبليس ، وخاركوف .

وهذا يعطى فكرة عما جمعوا من مخطوطات ، ملئوا بها خزائن الكتب العربية فى الفاتيكان برومه ، والأمبروزيانا بميلانو ، وباليرمو بصقلية ، والناسيونال بباريس ، وفيينا ، وهاله ، وبرلين ، والإسكوريال ، وليون بهولنده ، والمتحف البريطانى بلندن ، وموسكو ، وبطرسبرج ، عدا مئات المكتبات الخاصة بعلماء الاستشراق ، وهواة جمع المخطوطات ، وتجارها .

وثمة من يقول : إن عدد المخطوطات خارج العالم العربى يبلغ ١٤٠ ألف مخطوط.

وعملية (التفريغ) هذه أريد بها حرمان العرب من تراثهم ، إلى جانب حرمان العرب من لغتهم .

جاء فى كتاب (الأبطال) لكارليل ص ١٤١ :

(إن لشاكسبير فضلاً عن مزية المجْد والفخار وتهذيب النفوس والأخلاق ، فائدة مادّية عملية ، وهى أنه الجامعة الكبرى والعروة الوثقى لشتى طوائف البريطانيين فى أنحاء المعمورة) .

كذلك الشأن مع تراث كل شعب وأمة ، (ومن فات قديمه تاه) ، أصلح الله حال التنويريين العرب !!

● ● ●

الجزويت..وجزاء سنمار

فى سنة ١٤٩٢ اكتشف كولمبس القارة الأمريكية ، وفى سنة ١٤٩٧ أبحر فاسكودا جاما حول أفريقيا .

وبدأ السباق بين دول أوربا ، خاصة بين أسبانيا والبرتغال ، لامتلاك هذه الأقطار الجديدة ، واشتركت الكنيسة فى هذه المغامرات ، لتكسب الكنيسة شعوباً جديدة .

كانت هزائم الحروب الصليبية ، وسيطرة مصر والشام على تجارة التوابل ، أهم الحوافز للبحث عن طريق إلى الهند ، غير الطريق الذى يسيطر عليه المسلمون .

وسبق إلى خاطر المغامرين أن الوصول إلى الهند لن يحرر التجارة من أيدى المسلمين فحسب ، بل يمكن أن يكون وسيلة لتطويق المسلمين من الخلف ، واستطاع البرتغاليون أن يحتلوا شواطئ جنوب شبه الجزيرة العربية ، وطمعوا فى الوصول إلى مكة والمدينة ، والاستيلاء على المسجد الحرام وقبر الرسول ﷺ ، للضغط على المسلمين الذين يهيمنون على كنيسة القيامة والقدس .

كانت هذه الأحداث تشعل حماسة رجال الدين ، وبخاصة أن الفاتيكان لعب دوراً فى التوفيق بين المطامع الأسبانية والبرتغالية ، وأرسل فى صحبة الجيوش الغازية من رجاله من يتولون القيادة الدينية ، ونشر المسيحية فى الأراضى الجديدة .

فى ذلك الحين لعب الهوَس الدينى بفيليب ، ملك أسبانيا ، وزعم أنه حامى حمى الكاثوليك .

وبينما كانت محاكم التفتيش فى أسبانيا تطارد (المغاربة) ، كانت جيوشه تحرق المدن ، وتقتل البروتستانت فى هولنده .. كان ذلك سنة ١٥٧٢ ، وهى السنة التى ذبح فيها ٢٥ ألف بروتستانتى ، فى عيدسان بارتلوميه بفرنسا .

وفى وسط هذه الظروف المشتعلة حماسة وعنفاً ، درج أجناتيوس لويولا

(١٥٥٥/١٤٩١) ، أحد أبناء طبقة النبلاء الفرسان ، وقد أُعدّ ليكون جندياً .. أمضى أربع سنوات فى الخدمة العسكرية ، انتهت بكسر ساقه .. وخلال فترة العلاج والنقاهة قرأ كثيراً من الكتب الدينية ، وتابع الأحداث من وجهة نظر دينية ، وتكونت لديه فكرة أن (أنبل الحروب حرب مسيحية ضد الإسلام) .

أخذ ينتقل بين أسبانيا وإيطاليا وفرنسا ، ودرس الفلسفة واللاهوت واللغة اللاتينية ، وجعل يعلم طلاب المعرفة ، ويدرب نفسه على الحياة الروحية ، ممارساً ضروب التقشف .

وفى ١٥ أغسطس ١٥٣٤ اجتمع مع تسعة طلاب فى باريس ، داخل كنيسة بمونمارتر ، وأخذوا على أنفسهم عهداً أن يذهبوا ويعيشوا فى الأراضى المقدسة .

وفى سنة ١٥٣٩ طلب إلى الكردينال كونتارينى أن يرفع إلى البابا بولس الثالث مواد تنظيم جماعة (الجزويت) ، وأن يلتمس اعتبارها فرقة دينية جديدة ، بعد أن تنامى عددها .

صدر المرسوم البابوى سسنة ١٥٤٠ بتشكيل (الإكليريكيون النظاميون فى جماعة يسوع) ، ولم يظهر اسم (الجزويت) إلا سنة ١٥٤٤ .

فى ١٧ أبريل ١٥٤١ انتخب لويولا قائداً للجماعة ، وظل عدة سنوات مقيماً فى رومه ، يمارس مع رفاقه رياضة روحية شاقة ، ويؤدون الأشغال الحقيرة ، ملتزمين بالطاعة المطلقة (المقدسة) ، يؤمرون كما يؤمر الجند ، وينقلون إلى رؤسائهم أخطاء زملائهم ، دون غضاضة .

أخذوا أنفسهم بدراسة الرياضيات والآداب القديمة والفلسفة واللاهوت ، واشتغلوا بالتعليم فى المدارس والجامعات ، وجعلوا كل المقتنيات والأنشطة الجزويتية فى خدمة (مجد الرب) .

ازداد حجم الجماعة بعد أن انضم إليها فرنسيس بورجيا ، دوق جانديا ، الذى وهبها ثروته .. ويوم أصبح هذا الرجل قائدها سنة ١٥٦٥ كانت تضم ٣٥٥٠ عضواً ، يعيشون فى ١٣٠ بيتاً ، فى ثمانية عشر إقليماً ، أو دولة .

وصار (الجزويت) أو اليسوعيون - على مدى قرن من الزمان - أقوى جماعة دينية فى الكنيسة الكاثوليكية .

وفى سنة ١٧٦٥ كانوا قد أسسوا فى فرنسا وحدها اثنتى عشرة كلية ، وسرعان ما سيطروا على تعليم الشباب فى فرنسا .. ولمدة مائتى عام ، اختار ملوك فرنسا كهنة اعترافهم من بينهم ، وحذا سائر الحكام الكاثوليك حذوهم ، وبهذه الوسيلة وغيرها أمكن لهؤلاء اليسوعيين التأثير فى أوربا كلها .

إن جماعة اليسوعيين هى التى حملت المسيحية إلى الصين ، بعد سقوط أسرة (منج) ، وكان لها أهم الإرساليات التبشيرية فى كل من الهند وأمريكا الشمالية ، وهم ناشرو الحضارة الغربية بين الهنود فى أمريكا الجنوبية .

ويقول السير فرانسيس بيكون : (فأما من الناحية البيولوجية - التربوية - فارجع إلى مدارس اليسوعيين ، إذ لم يمارس فى التعليم أحسن منها) .. رفعوا مستوى الذكاء، وأحيوا ضمير أوربا الكاثوليكية ، ودفعوا أوربا البروتستانتية إلى بذل الجهود لمنافستهم فى مضمار التعليم - ويلز جـ ٣ ص ٩٩٦ .

وفى سنة ١٦٥١ قام جون إليوت Eliot (١٦٠٤/١٦٦٠) - بعد أن تعلم إحدى اللغات الهندية - بمراسم العماد ، وأنشأ مستوطنات منفصلة يعيش فيها المعمَّدون الجدد . وكان هناك عدد من الشبان يدربون على الخدمة المسيحية .

وفى سنة ١٦٧١ أمكن إحصاء حوالى ٣٦٠٠ مسيحى هندى - تاريخ الكنيسة جـ ٥ ص ١٤٣ .

● لم تكن الطريق مفروشة بالورود .. فمنذ بداية نشاطهم فى باريس وهم يعانون حرباً لا هوادة فيها من البرلمان ، ومن جامعة السربون .. وفى سنة ١٥٩٤ اتهمهم البرلمان بتحريض (رافياك) على قتل الملك ، وأيد هذا الاتهام بالإشارة إلى بحث اليسوعى الأسبانى ماريانا الذى دافع فيه عن مشروعية قتل الملوك فى ظروف معينة .

لكن جماعة يسوع ازدادت عدداً وقوة وسلطاناً ، وسيطرت على سياسة لويس الرابع عشر الدينية ، وأدت به إلى الإيقاع بالجانسنيين فى بورت رويال ، على أنهم كلفنيون ، تحت ستار الكاثوليكية ، وكان هذا الموقف مُنْعَطَفاً أضرّ بهم ، أو أضعف من سرعة إنجازاتهم .

وما إن حل عام ١٧٤٩ حتى كان لجماعة يسوع ٣٣٥٠ عضوا فى فرنسا ، من بينهم ١٧٦٣ كاهناً ، وبرزوا بين رجال الدين الفرنسيين ، بوصفهم أقدر العلماء والباحثين ،

وأبرع اللاهوتيين ، وأفصح الوعاظ ، وأفضل المعلمين ، وأتقى المدافعين عن الكنيسة ، وأنشطهم وأنجحهم ، وقد أسهموا فى كثير من العلوم ، وأثّروا فى تطوير الفنون .

ولعل من مدارس هذه الجماعة تخرج أكثر قادة التنوير فى أوربا ، وإن اتُّهم التنويريون بالإلحاد فلعوامل ثقافية أخرى لم يكن لليسوعيين يد فيها .

وقد استغل أعداء الجماعة تخرج هؤلاء الملاحدة فى مدارسها ، وظل هؤلاء الأعداء ، وأكثرهم من رجال الدين ، يتصيدون الاتهامات ، ويلصقونها بهم ، سعياً للقضاء عليهم ، أو لتشويه صورتهم عند الحاكمين ، وعند المجلس البابوى .. وقد نجحت هذه المساعى إلى حد كبير .

•• سنوات المحنة :

أعلن الكردينال برنيس أن قمع حركة اليسوعيين فى فرنسا يرجع إلى امتناع كهنة الاعتراف اليسوعيين عن منح الغفران لمدام بومبادور ، على الرغم من توكيداتها أن علاقتها بلويس الخامس عشر لم تعد جسدية .

وكان (داميين) حاول قتل الملك ، ولما كان كاهنُ اعتراف (داميين) يسوعياً ، أخذ الملك يصغى إلى كل من يعادون الكنيسة .. وشجّع الملكَ على اتخذا قراره ضد اليسوعيين أن البرتغال (الصغيرة) تجاسرت على طردهم .

وبعد هزيمة الفرنسيين على يد فردريك ، وهبوط مكانة فرنسا ، بات اليسوعيون المشجب الذى عُلقت عليه أوضار الهزيمة ، كما فعل نيرون بالمسيحيين بعد حريق رومه ، وكما صار كل دكتاتور فاشل يعلق خطاياه فى رقاب رجال الدين ، أو فى رقاب (المعارضة) !!

اتهم اليسوعيون بكل رذيلة ، حتى باللواط والعمالة لدول أجنبية .. ولأنهم حققوا مكاسب اقتصادية فى التجارة والصناعة والزراعة ، وكانوا من أغنى المقاولين فى مستعمرات أسبانيا والبرتغال - فقد كانوا المستهدف الرئيسى للحاقدين والطامعين والفاشلين .

جأرت جهات مختلفة بالشكوى ، وبخاصة أصحاب المشروعات الخاصة ، والذين نافسهم الجزويت فى مجالات الاقتصاد .

كان الأب أنطوان دى لافالت الرئيس الأعلى لليسوعيين فى جزر الأنتيل ، قد أدار باسم الجماعة مزارع واسعة فى جزر الهند الغربية ، واستخدم آلافاً من المواطنين السود ، وصدّر السكر والبن إلى أوربا .

وفى سنة ١٧٥٥ اقترض مبالغ ضخمة من مصارف مَرْسيليا ، ولسداد هذه القروض أرسل إلى فرنسا سفناً محملة بالبضائع التى تقدر قيمتها بخمسة ملايين دولار ، لكن البوارج الإنجليزية استولت عليها ، فى بداية حرب السنوات السبع .. وأملاً فى تعويض هذه الخسائر اقترض مبالغ أكبر ، لكنه أخفق ، وأعلن إفلاسه ، وهو مدين بمبلغ مليونى فرنك وأربعمائة ألف .

طالب الدائنون جماعة يسوع بالاعتراف بالمسئولية عن ديون لافالت ، فلما رفضت باعتبار عمل لافالت كان تصرفاً فردياً - انتهز البرلمان الفرنسى الفرصة ، وكان أكثره من الجانسنيين ، ليقوم بفحص دستور الجماعة وقوانينها ومستنداتها التى تكشف عن تنظيمها وأنشطتها ومصادر تمويلها .

وفى ٨ مايو سنة ١٧٥٥ قدم الراهب ترى Terray تقريراً عن سلوك (جماعة اليسوعيين) ، وعلى أساس هذا التقرير أصدر البرلمان فى ٦ أغسطس قرارين ، قضى أحدهما بإحراق عدد كبير من مطبوعات الجماعة ، منذ إنشائها ، لأنها (تعلّم مبادئ بغيضة تدعو إلى سفك الدماء) ، وتهدد أمن المواطنين والملوك ، كما حرم الانضمام إلى الجماعة (بعد الآن) فى فرنسا ، كما قضى بأنه - فى أول أبريل ١٧٦٢ - يجب إغلاق كل مدارس اليسوعيين ، اللهم إلا تلك التى تحصل على ترخيص من البرلمان ، باستمرار الدراسة فيها .. أما القرار الثانى فأباح تقديم الشكاوى ضد سوء استخدام السلطة فى الجماعة ، أو بواسطتها .

● اقترح ملك فرنسا أن تفوض كل سلطات البابا فى فرنسا إلى خمسة من القساوسة الإقليميين ، يقسمون اليمين على طاعة القانون الفرنسى ، وكانت مواد هذا القانون سنة ١٦٨٢ قد أحلت الكنيسة الفرنسية من الخضوع للبابا .

رفض البابا كليمنت الثالث عشر ، ولورنزو ريتشى رئيس اليسوعيين ، ، اقتراح الملك ، وقالا : (فليبق اليسوعيون كما هم ، أو لا يبقون مطلقاً) .. ولمصلحة اليسوعيين أهاب البابا برجال الدين الفرنسيين تأييد موقفه ، متجاهلاً القانون الفرنسى .

دخلت البرلمانات الإقليمية حلبة الصراع ، وأضافت بعض التقارير التى تلقتها مزيداً من الاتهامات ضد اليسوعيين .

وفى ١٥ فبراير ١٧٦٢ أمر برلمان (روان) كل اليسوعيين فى نورماندى بإخلاء دورهم وكلياتهم ومدارسهم ، وعزل كل المديرين (الأجانب) .. وصدرت قرارات مماثلة فى عدة أقاليم .

وفى أول أبريل أمر برلمان باريس بتنفيذ قراراته ، ونقل إدارة المدارس اليسوعية - فى دائرة اختصاصه - إلى مديرين آخرين .

● قدمت ملكة فرنسا وبناتها والدوفين (ولى العهد) وغيرهم من حزب المتدينين فى الحاشية - التماسات من أجل اليسوعيين ، لكن شوازيل (القوة المسيطرة) ، ومدام بمبادور (عشيقة الملك) ، نصحا الملك بالإذعان للبرلمان ، وإغلاق المدارس اليسوعية .

وفى ٦ أغسطس ١٧٦٢ أعلن أن جماعة يسوع لا تلتئم مع قوانين فرنسا ، وأن الأيمان التى أقسمها الأعضاء طغت على ولائهم للملك ، وأن خضوع الجماعة لسلطة (أجنبية = البابا) جعل منها هيئة أجنبية داخل الدولة .. وبناء على هذا أمر بحل الجماعة داخل فرنسا ، وتخلى كل الجزويت - خلال ثمانية أيام - عن كل ممتلكاتهم ، ومصادرتها لصالح الملك .. وقد بلغت قيمة الممتلكات التى صودرت ٥٨ مليون فرنك .

استنكر كريستوف دى بومونت ، رئيس أساقفة باريس ، تصرفات البرلمان بشدة ، وعبّرت مجموعة من رجال الدين الفرنسيين سنة ١٧٦٥ عن حزنها وأسفها لحل الجماعة ، ودعت إلى إعادتها ، وأعلن البابا كليمنت فى مرسومه الرسولى براءة اليسوعيين ، فعُدّ ذلك تدخلاً فى شئون فرنسا ، وأحرق المرسوم فى عدة دول محالفة لفرنسا ، أو معادية للبابا .

وفى سنة ١٧٦٧ قرر البرلمان مغادرة كل اليسوعيين أرض فرنسا ، وتبرأ قليل منهم من الطائفة ، إيثاراً للبقاء فى الوطن .

وقد عبر (التنويرى) دالمبير فى كتابه (تاريخ القضاء على اليسوعيين) عن ابتهاجه بمصيرهم ، قائلاً : (إن القضاء على جماعة يسوع سيعود بأكبر النفع على العقل ، شريطة الا يرقى تعصب الجانسنيين إلى مستوى تعصب اليسوعيين .. وإذا كان لنا أن نختار بين هاتين الطائفتين ، فإننا نؤثر جماعة يسوع التى هى أقل طغياناً وجَوْراً، فإن الجزويت الذين يخدمون الناس ، ويتكيفون معهم - شريطة ألا يعلن المرء عداءه لهم - أجازوا للمرء أن يفكر كيف شاء ، أما الجانسنيون فإنهم يفرضون على كل الناس أن يفكروا كما يفكرون هم ، وإذا قدر لهم أن يسودوا لتحكموا فى طرق التفكير والتعبير والسلوك) .

وكـأنما أراد برلمان باريس الذى يسيطر عليه الجـانسنيـون أن يعلن عن توجُّهـه الاستبدادى ، فأصدر فى نفس العام الذى أمر فيه بحل الجماعة سنة ١٧٦٢ ، بإحراق (إميل القرن الثامن عشـر) لروسو ، وهو كتاب لا يتعارض مع الدين ، إلى حد ما .. وفى نفس العام أعدم برلمان تولوز - الذى تحكم فيه الجانسنيون كذلك - جان كالاس .. وأحرق برلمان باريس سنة ١١٧٦٥ قاموس فولتير .

•• قمة المأساة :

أدى طرد اليسوعيين من البرتغال سنة ١٧٥٩ ، ومن فرنسا (١٧٦٤/١٧٦٧) ، ومن أسبانيا ونابلى سنة ١٧٦٧ - إلى أن يواصلوا نشاطهم وسط وشمالى إيطاليا ، وفى سيليزيا ، وبولنده .

وفى ٧ فبراير ١٧٦٨ طُردوا من دوقية بارما (البوربونية) ، وأضيفوا إلى حشد اللاجئين فى ولايات الكنيسة .

احتج البابا كليمنت الثالث عشر بأن (بارما) ولاية بابوية ، وهدد الدوقَ فرديناند السادس ووزراءه بالحرْم ، إذا نفذ مرسوم الطرد ، فلما أصروا ، أصدر مرسوماً أعلن فيه مصادرة رتبة الدوق ولقبه وإلغاءهما .

شنّت الحكومات الكاثوليكية فى أسبانيا وفرنسا ونابلى حرباً على البابوية . واستولى تانونتشى على مدينتى بنيفينتو ، وبونتيتكورفو البابويتين ، واحتلت فرنسا أفينون .

وفى ١٠ ديسمبر ١٧٦٨ قدم السفير الفرنسى فى رومه - باسم فرنسا ونابلى وأسبانيا - إلى البابا طلباً بسحب المرسوم الموجّه ضد (بارما) ، وإلغاء جمعية اليسوعيين .. فانهار البابا تحت وطأة هذا الإنذار (الحاسم) ، ودعا لعقد مجمع من المطارنة والمبعوثين فى ٣ فبراير ١٧٦٩ ، لدراسة الأمر .. وفى ٤ فبراير خرّ صريعاً بانفجار فى المخ .

وفى ١٩ مايو ١٧٦٩ انتخب كليمنت الرابع عشر ، فألْفىَ نفسه واقعاً تحت رحمة الدول الكاثوليكية ، إذ أصدر شوازيل - الذى كان مسيطرًا على الحكومة الفرنسية - إنذاراً بأنه (إذا لم يستطع البابا التوصل إلى تفاهم مع فرنسا ، ففى استطاعته أن يعتبر كل علاقاته معها منتهية) .

خضع كليمنت حتى يعيد ترتيب أوراقه ، وكتب إلى الملك شارل الثالث ، ملك أسبانيا (١٧٥٩/١٧٨٨) : (سأرفع إلى حكمة جلالتكم وذكائكم خطة للقضاء المبرم على « الجمعية ») ، وأمر مساعديه بمراجعة السجلات ، وتلخيص تاريخ (الجمعية) ، وإنجازاتها ، وجرائمها (المزعومة) .

هذا بينما كانت أسبانيا تُعِدّ للقضاء عليهم .

● كان الملك شارل الثالث قد عين الكونت أراندا رئيساً لمجلس قشتاله ، واتخذ أراندا (المثقفَ) كامبومانيسَ مساعداً له ، وبحجة الإصلاح الدينى استعدا لضرب اليسوعيين ضربة مفاجئة ، فأرسل أراندا رسائل مختومة ممهورة بتوقيع الملك ، فى مطلع سنة ١٧٦٧ ، إلى الموظفين فى جميع أنحاء الإمبراطورية ، مشفوعة بالأمر بعدم فضّها إلا فى ٣١ مارس فى أسبانيا ، وفى ٢ أبريل فى المستعمرات ، وإلا كان الموت عقاب المخالفين .

وفى ٣١ مارس استيقظ اليسوعيون الأسبان ، ليجدوا بيوتهم ومدارسهم يطوقها الجنود ، وليجدوا أنفسهم معتقلين ، وأُمروا بالرحيل فى هدوء ، غير مصطحبين سوى ما يطيقون حمله ، وأما سائر ممتلكاتهم فقد صادرتها الدولة .. ثم أخذوا تحت الحراسة العسكرية فى عربات إلى أقرب ميناء .. وبعث الملك إلى البابا يخبره بأنه (ينقلهم إلى الأراضى الكنسية ، ليظلوا تحت إشراف قداسته الحكيم ، وإنى لأرجو من قداستكم ألا تعتبروا هذا القرار إلا احتياطاً مدنياً لا غنى عنه ، لم أتخذه إلا بعد البحث الناضج ، والتفكير العميق) .

ولقى اليسوعيون - فى غضون هذا الوقت - النفى المماثل من نابلى وبارما وأمريكا الأسبانية والفليبين .

ناشد البابا الملكَ شارل أن يلغى هذه المراسيم التى ستصعق العالم المسيحى كله ، لا محالة ، لما فيها من مباغتة وقسوة ، فأجاب شارل : (إننى - لرغبتى فى أن أعفى العالم من فضيحة كبرى - سأظل ما حييت مخبّئاً فى قلبى سر المؤامرة النكراء التى اقتضت هذه الصرامة ، وينبغى لقداستكم أن تصدقوا كلمتى ، فسلامة حياتى تفرض علىّ الصمت العميق) .

وفى ٢١ يوليه ١٧٧٣ أعلن البابا استسلامه ، ووقع الرسالة البابوية التاريخية التى جاء فى ختامها :

(... فإننا بعد الصمت المتأنى ، ونتيجة لمعرفتنا الخاصة ، وبحكم كمال سلطتنا الرسولية - نَحِلّ ونُلغى ، بمقتضى هذه الرسالة البابوية ، جمعية اليسوعيين ، ونُبطل ونُلغى كل مناصبها ووظائفها وإدارتها ، ودورها ، ومدارسها ، وكلياتها ، وخلواتها ، وملاجئها ، وسائر المؤسسات التى تخصها ، على أى وجه كان ، وفى أى إقليم ، أو مملكة ، أو دولة ، لها وجود فيها) .

وبعد عام أو يزيد من هذا المرسوم ، أسلم البابا الروح ، وكثرت الشائعات أن عقله اختل فى الشهور الأخيرة .

وفى ١٥ فبراير ١٧٩٣ انضم البابا للحلف المعادى لفرنسا الثورة ، فلما دخل نابليون رومه سنة ١٧٩٨ طالب البابا بالتخلى عن كل سلطاته الزمنية ، فأبى ، واعتقل ، وظل فى السجن حتى توفى فى ٢٦ أغسطس ١٧٩٩ .

أما خليفته بيوس السابع فقد جعل رد الجمعية اليسوعية إلى سابق عهده سنة ١٨١٤ جزءاً من انتصار التحالف على نابليون .

• • •

الخروج من التابوت

١ - فى الصين

كما سبقت الإشارة ، كان اكتشاف الأمريكتين على أيدى الأسبان والبرتغاليين من ثمار الهزيمة (الصليبية) فى الشرق الأدنى ، وقد اشتركت الكنيسة فى هذه المغامرات، على أساس كسب شعوب جديدة للمسيحية .

وعمل البابا على أن يرسل إلى هذ الأرض الجديدة (رجالاً حكماء ، مستقيمين ، أفاضل ، مؤهلين لتعريف السكان من أهل البلاد الأصليين بحسن الأخلاق والإيمان الكاثوليكى) .

لكن التأثير الفعلى كان ضئيلاً ، بسبب الاستغلال الاستعمارى وجبروته ، مما أدى إلى نقص عدد السكان الأصليين فى المكسيك (مثلاً) ، من أحد عشر مليوناً سنة ١٥١٩ إلى مليونين ونصف المليون عند نهاية القرن ، وكذلك حال بقية أقطار أمريكا الوسطى والجنوبية ، فقد نقص عدد السكان الأصليين فى جميع المستعمرات حتى صاروا أقليات مطاردة مضطهدة .

وكان يمكن أن تنشط الجماعات المسيحية ، تبعاً لمطامع الحكومات التى تستظل بظلها ، لكن ما نزل بالجزويت على أرض أوربا ، وما فعله فيليب ملك أسبانيا ضد البروتستانت ، كان من أهم العوامل المضللة للفكر المسيحى ، كذلك ما فعلته فرنسا فى عيد سان بارتلوميه .. ثم كانت حرب الثلاثين التى انتهت بخراب ألمانيا تقريبا سنة ١٦٤٨ ، حتى قيل إن خمسة أسداس القرى والمدن الألمانية مُحيت ، وإن الأهالى الذين كانوا ١٨ مليوناً صاروا أربعة ملايين .

ولم تكن البابوية بعيدة من هذه الجرائم ، فهى التى أعانت على حرب البروتستانت فى كل من فرنسا وهولندة وألمانيا ، وهى التى فرطت فى حماية الجزويت .. وهى التى

وصمت المسيحية بآثام يندى لها جبين الفرد العادى ، فكيف برمز المسيحية ، ورئيس أساقفتها ، والمتحدث باسم الله ، والمشرّع لما جدّ على المسيحية من تشريعات (١٩) .

لقد أخذ الكثيرون ممن خرجوا على (فكر) الكنيسة ، من النساطرة وغيرهم ، يضربون فى الأرض ، حماية لأنفسهم ، وتبشيراً بما يؤمنون به ، وقد استطاع هؤلاء (الفارون) من سطوة الكنيسة (البابوية) أن يحصلوا على ثقة من نزلوا بهم فى منغوليا والصين .

● كان المغول متسامحين ، ولم تكن لهم ديانة سماوية ، وكانوا شجعاناً يجيدون فن القتال .. وقد طمعت البابوية فى أن تتخذ منهم قوة ضاربة ، يغزون بها الإسلام فى دياره ، أو يحاصرونه ، وبهذا يتحقق الهدف الأساسى من الحروب الصليبية على مساحة مترامية الأطراف ، بدرجة تتخطى دائرة الحلم .

وهذه الغاية دعت إلى إيفاد الرسل ، مطمئنين إلى ما حقق النساطرة من نجاح .

كان المغول فى القرن الثالث عشر بقيادة (خان الأكبر) قوة كبرى فى آسيا ، فأرسل البابا إنوسنت الرابع الفرنسيسكانى جون كارين ، فى رحلة طويلة سنة ١٢٤٥ ، لكن يبدو أن هذا (الفرير Frier) لم يحسن الوصول إلى ما يريد ، لأنه لما سمح له بمقابلة (الخان الأكبر) حثّه على أن (يعترف بيسوع المسيح ، ابن الله الوحيد ، ويتعبد لاسمه المجيد ، بممارسة الدين المسيحى) .

غرّ هذا الفرير أنه رسول البابا الذى يمثل قيادة الحضارة الأوربية ، والأساطيل / الأساطير الاستعمارية والتبشيرية ، وغرّه أنه رسول إلى شعب (همجى) متخلف ، وظن أن حسن استقباله وسهولة دخوله على الخان الأكبر إنما هو لون من التقدير لمكانته من البابا ، ولون من الهيبة للقوة التى يمثلها .

ولهذا فوجئ بما لم يكن له فى حساب ، فقد رفض الخان فكرة (المعمودية) ، وزاد فطالب البابا أن يخضع له ، قائلاً : (والآن عليك أن تقول بقلب مخلص : سأمتثل لك وأخدمك ، أنت نفسك ، على رأس كل الأمراء . تعال فوراً واخدم ، وقم على خدمتنا، وإذا لم تحترم أمر الله ، وإذا تجاهلت أمرى ، فسأعتبرك عدواً لى ، وسأردك إلى صوابك ، وإذا خالفت فالله يعلم ما أعمله) - تاريخ الكنيسة جـ ٥ ص ١٣٦/١٣٥ .

وأرسل القديس لويس رسولاً آخر سنة ١٢٥٠ هو وليام أف روبروكيز ، وتتابعت الإرساليات ، وبادر مغامرون .. وبفضل النساطرة أمكن إقامة عدة كنائس .

ومن هنا يحكى ماركوبولو عن علاقات ودية بين قبلاى خان وبين البابا ، وأنه كانت سفارة بين قبلاى والبابا عن طريق عمه ووالده .

● كان الصينيون على يقين - منذ أمد طويل - من أنهم أكثر الشعوب ثقافة ، وأقدمهم حضارة ، وأن سواهم متخلفون همج ، فلما أرسلت بريطانيا سفراء للتفاوض مع البلاط الصينى اعتقد معظم الصينيين أنهم جاءوا لدفع الجزية ، وليقدموا فروض الولاء والطاعة للإمبراطور الصينى .

يقول ابن بطوطة حوالى سنة ١٣٧٨ : (وأهل الصين أعظم الأمم إحكاماً للصناعات ، وأشدهم إتقاناً فيها ، وذلك مشهور من حالهم فيها ، وقد وصفه الناس فأطنبوا فيه . وأما التصوير فلا يجاريهم أحد فى إحكامه من الروم ولا من سواهم . فإن لهم فيه اقتداراً عظيماً ، ومن عجيب ما شاهدت لهم من ذلك أنى ما دخلت مدينة قط من مدنهم ، ثم عدت إليها ، إلا ورأيت صورتى وصور أصحابى منقوشة فى الحيطان والكواغد ، موضوعة فى الأسواق) .

ومع أن شهادة الرحالة تمثل زاوية ضيقة ، فإنها تشير إلى طبيعة العلاقة أو المعايشة بين المذاهب الدينية أو الدنيوية التى عاشت على أرضها ، سواء نشأت فيها كالكنفوشية والطاوية ، أو وفدت إليها كالبوذية والمسيحية ثم (الإسلام) ، إذْ لم تحدث حروب بينها ، أو منافسات عنيفة ، كما حدث بين (الفرق والمذاهب) المسيحية على أرض الإمبراطورية المسيحية ، بل نجد الروح السمحة القادرة على الهضم والتفاعل ، (الأخذ والعطاء) ، دون تعصب أعمى ، حتى ليذكر صاحب (الفكر الصينى من كونفوشيوس إلى ماوتسى تونج - ص ٢٨٧) أن الصينيين لا يرون خطأ فى الاشتراك فى الطقوس الدينية فى معبد بوذى أو طاوى أو كونفوشى ، فى نفس اليوم .. ولقد قالوا : إن أى بوذيساتفا تجسيد لكونفوشيوس ، ويقرر لويس هودوس أنه جاء وقت شيد فيه (معبد بوذى لكونفوشيوس) فى شانتونج ، كما كان الإله الصينى (السماء) يبجّل فى طقوس بوذية معينة .

وهذه سمة عامة للعملاق (القابع) فى شرق آسيا ، جعلت الذئاب الاستعمارية تنهشه من كل جانب : مغولية ، وبرتغالية ، وإنجليزية ، وفرنسية ، ويابانية ، وروسية ، وأمريكية .. وحين أفاق ، وفتل ساعديه ، ونفخ صدره ، أرهب كل هذه الذئاب ، وكان قادراً على أن يبطش بدول كثيرة ، تستمد بقاءها من قوته.. لكنه لم يفكر فى مثل هذا ، بل حينما طمعت فيتنام أن تجرب أنيابها فى إهابه ، تحركت كتيبة صينية ، ودخلت

حدود فيتنام ، ثم عادت من حيث أتت ، لا رغبة عن القتال ، ولا عن إعلان النصر ، إنما هى الحكمة العاقلة الصامتة ، التى تحقق تحت غلاف الصمت أضعاف ما حقق الآخرون بصليل السيوف ، وبحروب الأفيون ، وبكل أسلحة الدمار : قنابل وصواريخ وسفن فضاء .. هذا مع أن فيتنام وكوريا ولاوس وبورما وتايلاند وفورموزا وهونج كونج ومنشوريا ، كلها كانت داخل الحدود الطبيعية للصين ، وطمع فيها من طمع فى وقت كان التنين فى حالة استرخاء .

وإبان حالة الاسترخاء هذه ، فى عام ١٢٠٤ ، تم إعلان جنكيز (خانا) لكافة المغول الرحّل ، فأخذ ينفذ سياسة توسعية ، بدأها بمهاجمة تتار (جورجن جن) ، ثم استولى على بكين عام ١٢١٥ ، واحتل مملكة (هسى - هسيا Hsi-Hsia) بعد ذلك باثنى عشر عاماً ، ثم غزا (كهاى - فينج) عام ١٢٣٣ ، وأخذ المغول يتهيئون لقهر دولة (سونج) ، ومضوا طوال خمسة وأربعين عاماً يناضلون ضد أقوى أعدائهم وأفضلهم عدة ،إلى أن قتل آخر أمراء أسرة سونج فى معركة بحرية عام ١٢٧٩ ، وبهذا صار المغول سادة الصين كلها .

دامت أسرة (يوان) المغولية أكثر من قرن على أرض الصين ، لكنها فشلت فى تحقيق أنظمة للحكم تمسك بزمام إمبراطورية واسعة الأرجاء ، فنشأت مشكلات اقتصادية وأمنية خطيرة ، وتعاظم شأن الجماعات السرية التى تقض مضاجع المحتلين، حتى سقطت آخر معاقل المغول سنة ١٣٨٢ ، وقامت حكومة (منج) التى ما لبثت أن زلزل زلزالها، بسبب الإجراءات التعسفية المتصاعدة ، وارتفاع الضرائب .

وفى سنة ١٦٣٦ انسلَخت منشوريا عن الصين ، وتم انتحار آخر أباطرة (منج) ، وكانت الاستعانة بقبائل المانشو أشبه بالاستغاثة من الرمضاء بالنار .

● خلال هذه الفترة من الاضطرابات دخلت المسيحية إلى الصين على يد النساطرة .

قضى القديس فرانسيس إنسافيير ، صديق لويولا (الجزويتى) ، سنوات عدة فى الصين والهند واليابان ، ووافته المنية عام ١٥٥٢ ، وكان بداية لتدفق جيزويتى نحو الشرق الأقصى ، وبخاصة بعد أن رسّمه بابا رومه قديساً ، وكثرت أحاديث معجزاته التى سجلها الأب بوهور سنة ١٦٨٢ .

وفى عام ١٥٨٢ وصل إلى (مكاو) المبشر اليسوعى الإيطالى (ماثيو ريتشى) ، ثم توجه إلى بكين عام ١٦٠١ ، حيث توفى ، بعد تسع سنوات .

كان ريتشى فائق المقدرة كلغوى ، وعالم طبيعى ، وجغرافى ، ورياضى ، وقد انخرط هو وزملاؤه اليسوعيون فى المجتمع الصينى ، ولم يلبث ريتشى أن وصل إلى البلاط الصينى ، إذ أهدى إلى الإمبراطور ساعتى حائط أحضرهما معه ، وأسعد الصينيين بتشغيلهما بدقة ، وعكف على إصلاح التقويم الصينى ، وأثار الاهتمام بالعلم والتكنولوچيا ، وقام بمعاونة بعض المتنصّرين بترجمة الكتب اليونانية فى الرياضيات والفلك والهيدروليكا ، كما شجع العلماء الآخرين على تأليف المصنفات العلمية المختلفة. وعمل على تطويع الفكر الصينى للفكر المسيحى ، حتى بلغ عدد (المهتدين) عند وفاته حوالى ألفين.

وتحكى قطعة أثرية اكتشفت فى القرن السابع عشر قصة مرسل ظهر فى بلاط الإمبراطور (تانج Tang) العظيم ، وهو يشرح (الديانة المضيئة من سوريا) .. تأثر الإمبراطور كثيراً حتى أنه أمر ببناء دير ، وفى السنوات التالية - طبقاً للنقوش - (انتشرت الديانة فى المقاطعات) ، وكانت هناك أديرة فى مدن كثيرة ، وازدهرت العائلات فى نعمة المسيحية .. (وفى أماكن أخرى تتحدث النقوش عن الكتاب المقدس) ، وعن عمل المسيح ، وطبيعته الإلهية الإنسانية ، فتقول : (أقنوم واحد من ثالوثنا الواحد حجب جلاله الحقيقى ، وأتى إلى العالم كإنسان ، وأعلن ملاك رسالة الفرح ..عذراء حملته فى سوريا .. نجم لامع كان البشير المناسب ، رأى الفرس المجوس بهاءه ، فأتوا يقدمون العطايا) .

يقول تاريخ الكنيسة جـ ٥ ص ١٣٤ : ولا نعلم إلى أى حد انتشرت المسيحية فى الصين ، فلسوء الحظ تقلد الحكم سنة ٨٤٥ إمبراطور كان معارضًا للرهبنة البوذية والمسيحية ، على حد سواء ، فأمر أن يعود كل الرهبان إلى الحياة الدنيوية ، وبعد سنة ٩٠٠ لم تعد توجد إشارة إلى المسيحية ، وفى سنة ٩٨٧ عاد فريق من الرهبان الذين أرسلوا لرعاية الكنيسة فى الصين يقولون إنهم لم يجدوا أثراً للكنيسة هناك .

هذا يعنى أن التبشير كان خاصاً بالنساطرة ، دون علم البابوية ، وربما عمل مع النساطرة بعض المغامرين الفارين من ربقة الفساد البابوى .

وظلت الحركة التبشيرية من عمل أفراد قلائل بين مد وجزر ، بل إنها لتكاد تنقطع انقطاعاً تاماً ، حتى كان عام ١٨٧٤ ، إذ ظهرت فى الأفق أول سفينة أمريكية .

وكان أن تم تكوين جمعيات لتجنيد وتدريب ودعم العاملين للخدمة الإرسالية ، فتأسست (الجمعية المعمدانية الإنجليزية) سنة ١٧٩٢ ، وتكونت (جمعية لندن الإرسالية) سنة ١٧٩٥ ، و (جمعية الكنائس الإرسالية) سنة ١٧٩٩ .. وفى أمريكا تأسس (مجلس الوكلاء الأمريكى للإرساليات الأجنبية) سنة ١٨١٠ .. وفى سنة ١٨١٥ تكونت (إرسالية باسيل السويسرية) - تاريخ الكنيسة جـ ٥ ص ١٤٨ .

● لم يكن الصينيون يقيمون وزناً للأجنبى ، أو للبربرى ، على حد قولهم ، ما دام لا يشكّل عبئاً ، ولا يتسبب فى متاعب ، وكان ثمة جاليات تجارية ، عربية وغربية ، تمارس نشاطها فى أمان وحرية ، وبخاصة فى (ماكاو) ، و (كانتون) .. فقط لم يكن يسمح للأجنبى أن يستخدم صينياً فى بيته ، كما لم يكن مسموحاً للأجانب أن يسافروا داخل البلاد .

وكان روبرت موريسون (١٧٨٢/١٨٣٤) أول مرسل أمريكى بروتستانتى يصل إلى كانتون سنة ١٨٠٧ ، وأقام عالم اللغات هذا فى كانتون متفرغاً لتعلم اللغة الصينية .

وبحلول سنة ١٨١٣ كان قد تَرجَم العهد الجديد إلى الصينية .. وفى سنة ١٨١٩ ترجَم العهد القديم ، وأصدر قاموساً للغة الصينية .

يقول أحد زملاء موريسون : (اكتساب اللغة الصينية عمل يحتاج إلى رجال ذوى أجسام من نحاس ، ورئات من صلب ، ورءوس من سنديان ، وعيون النسور ، وقلوب الرسل ، وذاكرة الملائكة ، وحياة متوشالح) .

وجاء فى كتاب (الإسلام فى الصين ص ٨) : لغة ليس لها حروف ولا هجاء ، ولا نحو ، ولا تنقسم إلى أفعال وأسماء وصفات ، فكل كلمة قد تكون اسماً أو فعلاً أو صفة أو ظرفاً ، حسب سياقها ، وحسب طريقة نطقها - واللغة الصينية المنطوقة تحتوى على عدد يتراوح بين ٣٠٠ و ٤٠٠ لفظ صوتى ذى مقطع واحد ، وهذه المقاطع هى التى تستعمل فى التعبير عن الأربعين ألف حرف المستخدمة فى لغة الكتابة .. لهذا السبب فإن لكل واحد من تلك الألفاظ الصوتية (نغمات) مختلفة ، تتراوح بين ٤ و ٩ ، بحيث يختلف معنى اللفظ ودلالته باختلاف طريقة نطقه والتغنّى به ، وتوضح حركات

الجسم وسياق الكلام هذه النغمات ، وتجعل كل صوت يؤدى أغراضاً متعددة ، فحرف الباء مثلاً قد يؤدى ٦٩ معنى ، كم أن للفظ (شى) ٥٩ معنى ، وللفظ (كو) ٢٩ معنى .

وهذا يبين مدى المعاناة فى تعلم الأجنبى لهذه اللغة التى أتقنها موريسون ، وصنع لها قاموساً ، مما شغله عن دوره التبشيرى ، فلم يعمّد أكثر من عشرة أشخاص ، لكنه - بفضل ترجمة (الكتاب المقدس) ، وبفضل نشاطه الجم ، وتحركه المستمر فيما حول الصين - استطاع أن يؤثر فى كثير من أبناء الصين المهاجرين .

وفى سنة ١٨١٨ أسس موريسون (كلية ملقا الإنجليزية الصينية) .

وبناء على طلب موريسون أرسل مجلس الوكلاء الأمريكى للإرساليات الأجنبية إيليا بريدجمان (١٨٠١/١٨٦١) الذى وصل إلى كانتون سنة ١٨٣٠ ، وافتتح مدرسة للأولاد ، وأصدر مجلة (المستودع الصينى) التى قدمت للكنائس الأم الأخبار عن تاريخ الصين وثقافتها ، وكذلك عن نجاح العمل الإرسالى .

وفى سنة ١٨٣٩ نشبت الحرب بين الصين وإنجلترا ، وانتهت سنة ١٨٤٢ بمعاهدة تانكين التى سمحت بمعاملة أكثر كرماً للأجانب ، والإذن لهم بالإقامةفى أربع مدن أخرى فى الصين ، فأسرع المرسلون لاغتنام هذه الفرصة ، وكانت وفود الميثوديين والمعمدانيين وغيرهم من الطوائف الأمريكية والأوربية .

وحتى سنة ١٨٦٥ لم يدخل المرسلون إلا فى سبع مقاطعات فقط من ١٨ مقاطعة صينية .

وقد تغير كل هذا - بصورة مثيرة - مع مجيء هدسون تايلور (١٨٣٢/١٩٠٥) الذى وصل إلى الصين سنة ١٨٥٣ ، تدفعه جمعية تبشيرية بريطانية صغيرة ، ثم ما لبث - بسبب عجز هذه الجمعية - أن رجع إلى إنجلترا ، وسعى للحصول على الدّعم من مختلف الطوائف والمذاهب .

كان الأمل العظيم عنده أن يصل إلى كل مقاطعات إمبراطورية الصين الممتدة ، حاملاً رسالة الإنجيل .. ولكى يحقق هذا الهدف العظيم وضع بعض المبادئ الأساسية لإرسالية الصين الداخلية الجديدة :

١ - يجب أن يقابل العاملون فى الحقل (المرسلى) بالترحاب من أى طائفة ، ما داموا يتفقون على قانون إيمان بسيط محافظ .

٢ - قبول المرسلين بدون تدريب جامعى .

٣ - يكون مقر المركز الإدارى للإرسالية فى الصين ، وليس فى إنجلترا .

٤ - يرتدى المرسلون الزيّ الصينى ، ويتعايشون مع الشعب .

٥ - الغَرض الأساسى للإرسالية هو فى المقام الأول التبشير بالإنجيل .

٦ - بناء الكنائس ، وتدريب القادة ، يمكن أن يتم فيما بعد .

وفى سنة ١٨٨٢ كان تايلور قد تمكن من زيارة كل مقاطعات الصين ، واستقر المرسلون فى معظمها ، كما تخلّى سبعة من العلماء البارزين فى جامعة كمبردج عن مراكزهم ودخولهم المرتفعة ، لينضموا إلى إرسالية الصين .

وبحلول سنة ١٨٩٥ كان عدد المرسلين التابعين لإرسالية الصين الداخلية قد بلغ ٦٤١ ، أى أكثر من نصف المجموع الكلى للمرسلين فى كل الصين ، وكان يوجد ٤٦٢ مساعداً صينياً ، و ٢٦٠ مركزاً مرسلياً .

واهتم مرسلون آخرون بوضع برامج أكثر تركيزاً ، لتدريب قيادات (الأمة) ، واتبع هذه السياسة تيمولى ريتشارد المعمدانى (١٨٤٥//١٩١٩) الذى عمل أولاً فى مشروع إسعاف ضحايا الجوع فى شانتونج سنة ١٨٧٠ ، لكنه فى وقت لاحق حوّل اهتمامه إلى الثقافة الصينية ولغتها .

وأصبح تيمولى مديراً لجمعية الأدب المسيحى التى أصدرت مجلتين ، تحتوى كل منهما على معلومات عامة ، وتعاليم مسيحية .. وانتشرت المجلتان على نطاق واسع ، وأصبحتا رائجتين بين المثقفين من أبناء الصين .. لأن الصينيين كانوا قد عزلوا أنفسهم عن العالم لعدة قرون ، فقد نما عندهم شوق إلى المعارف الأجنبية .

وقرب نهاية مسيرة تيمولى ، استطاع أن يفتح جامعة فى مقاطعة (شانسى Shansi) ، ثم انتقلت الفكرة إلى جهات أخرى ، وظهرت كلية أسقفية فى شنغهاى ، وأخرى ميثودية فى نانكين ، وثالثة مَشْيخية فى كانتون .

وعند نهاية القرن التاسع عشر كان مجمع المرسلين الأجانب البروتستانت فى الصين حوالى ١٥٠٠ ، ووصل عدد الأعضاء المشتركين فى الكنائس (الفتية) إلى ٨٠ ألفاً ، وكان المجتمع الكاثوليكى أكثر عدداً .

وكـان فى الصين أجـانب آخـرون ، لـكن المرسلين كـانوا الأوسـع انتـشـاراً ، ورأس الحربة للتسلل الأجنبى ، ومن ثم للسيادة الأجنبية .

● لـكن بعض المرسلين عـملوا على خلق مـشـاعـر ضـدهم ، بتـجـاهلهم التـقـاليـد والعـادات الصـينيـة ، فـشـاع وصـف كل من ليس مـن أصـل صـينى بأنـه (شـيطان أجنبى) .

وفى سنة ١٩٠٠ صدر مرسوم إمبراطورى بقتل جميع الأجانب ، فهرب كثيرون إلى خارج البلاد ، ولجأ آخرون إلى قنصلياتهم وسفاراتهم ، وحوصرت السفارات الأجنبية لمدة ٥٥ يوماً ، لكن المرسلين كانوا مشتتين فى أنحاء البلاد ، محرومين من أية وسيلة لحماية أنفسهم ، وكان أن مات ١٨٨ رجلاً وامرأة وطفلاً من جماعات المرسلين ، ولقى مئات الصينيين المسيحيين نفس المصير ، ثم عبأت القوات الأجنبية جيشاً أخمد هذا النشاط المعادى الذى حمل اسم (انتفاضة الملاكم) ، أو (البوكسر) .

ثم شهدت البلاد زيادة هائلة فى النشاط المرسلى ، ونمو الكنيسة .

وبحلول سنة ١٩١٤ وصل عدد المرسلين البروتستانت ٥٤٦٢ ، ووصلت عضوية الكنيسة البروتستانتية أكثر من ٢٥٠ ألفاً ، والكاثوليك أكثر من مليون و ٤٠٠ ألف .

وبعد سنوات تمّ خلع الإمبراطور ، وأعلنت الجمهورية تحت رئاسة المسيحى (سان يات سن sun yat sen) الذى عندما سئل : (إلى أى شىء تعزو نجاح الثورة ؟) قال : (إلى المسيحية أكثر من أى سبب آخر ، فبالإضافة إلى مثلها العليا للحرية الدينية ، تأتينا المسيحية بمعرفة حرية الغرب السياسية ، ومع هذه المعلومات تغرس فى كل مكان تعليم المحبة والسلام .. هذه المثل تتفق وطبيعة الصينيين ، وهى بالأكثر التى أحدثت الثورة وقررت طبيعتها السلمية) .

ومع إنشاء الجمهورية غرقت البلاد فى الفوضى ، واستحال العمل المرسلى ، وقد تحسن الموقف بعد سنة ١٩٣٠ ، أثناء رئاسة شانج كاى شيك ، الذى كان مسيحياً ، فزادت عضوية الكنيسة ، لكن الكارثة وقعت مع الغزو اليابانى سنة ١٩٣٧ ، فلم يعد فى الإمكان الحفاظ على عمل مسيحى ،

وبحلول سنة ١٩٤٩ وصل الشيوعيون إلى الحكم ، تحت قيادة ماو تسى تونج ، وسرعان ما تبين للمرسلين أن وجودهم يشكل خطراً على الصينيين المسيحيين .

وفى سنة ١٩٥٣ تقلص حجم المرسلين من أربعة آلاف إلى (الصفر) ، وأغلقت الكنائس ، وانتزع كل النشاط التعليمى والطبى والاجتماعى من أيدى المسيحيين ، وأنكر كثيرون مسيحيتهم تحت وطأة الشيوعية .

وبعد موت ماو تسى تونج سنة ١٩٧٧ حدث تغيير مثير ، فما إن حل عام ١٩٧٩ حتى أعيد فتح أبواب ١٢٠٠ كنيسة ، وأعيدت مدارس اللاهوت إلى الإشراف المسيحى ، وتزاحم الطلاب على الالتحاق بها ، وسمح بطبع الكتب المقدسة ، واتضح أن من المسيحيين من احتفظ بعقيدته ، وظل يؤدى الشعائر فى الخفاء .

وفى سنة ١٩٨٣ قرر مجلس الصين المسيحى أن هناك مليونين من البروتستانت ، وثلاثة ملايين من الكاثوليك .

وتذكر الموسوعة المسيحية العالمية - حتى سنة ١٩٨٠ - عدداً أقل من هذا بكثير ، أقل من مليونين - تاريخ الكنيسة جـ ٥ ص ٢٠٢/١٧٦ .

٢ - فى جزر المحيط الهادى

(أ) فى اليابان :

فى اليابان عانى الكفاح الرسولى من معاداة الحكام اليابانيين للأجانب ، وسجل مرسلون شجعان صوراً من الكفاح ، والإصرار على النجاح ، ماتنوء به همم كثير من المغامرين .

وفى مقدمة هؤلاء الأفذاذ (كسافيه Xavier ١٥٥٢/١٥٠٦) المبشر الأسبانى الذى اشترك فى تأسيس (جمعية المسيح للتبشير) ، وفى سنة ١٥٤٠ ارتحل إلى جزائر الهند الغربية للتبشير بالمسيحية ، ثم قام بعدة رحلات إلى الهند وسيلان .

وفى سنة ١٥٤٢ ذهب كسافيه إلى جاوه Goa - على الساحل الغربى للهند - حيث كان عدد من الأوربيين ، وركز جهوده على الصيادين البسطاء القاطنين فى القرى ، وكان هؤلاء سبق أن عُمِّدوا فى احتفال جماعى ، لكنهم لم يعرفوا شيئاً عن عقيدتهم ، فترجم كسافيه الصلاة الربانية ، وقانون الإيمان ، والوصايا العشر ، إلى اللغة المحلية .. وفى البداية علّم الشباب الذين أقبلوا بدورهم على تعليم المسنّين .. وفى سنوات قليلة وجدت كنيسة مستقلة بين هؤلاء الصيادين البسطاء .

ثم سافر إلى اليابان سنة ١٥٤٩ ، بعد أن سمع تقارير مشجعة عن اليابانيين ، وكافح ليتعلم اللغة اليابانية ، وجعل نفسه مقبولاً لدى الشعب ، ولم يمض وقت طويل حتى جمع حوله فريقاً من المؤمنين .

مكث فى اليابان ٢٧ شهراً فقط ، لكن البذرة التى غرسها غذّاها مرسلون آخرون من الجزويت .

وفى منطقة واحدة كان خمسون ألف مسيحى سنة ١٥٧٥ .. وفى سنة ١٥٩٣ افتتحت مدرسة لاهوت ، عدد تلاميذها ٨٧ ، لكن إلى سنة ١٦٠١ لم يكن قد ارتسم منهم للخدمة الدينية إلا اثنان من اليابانيين .

وفى سنة ١٥٩٠ تولى السلطة حاكم جديد ، أخذ ينظر إلى المرسلين باعتبارهم يمثلون قوات استعمارية .

وفى سنة ١٦١٤ صدر مرسوم نصه : (جاءت عصابة المسيحيين الأجانب إلى اليابان ، ولم يرسلوا سفنهم التجارية لتبادل البضائع فقط ، بل هم أيضاً يتوقون لنشر قانون شرير ، ليهدموا العقيدة السليمة ، وهذه بذرة كارثة عظيمة ، ويجب سحقها) .

وكان جملة عدد الشهداء ٣١٢٥ ، من بينهم ٧١ شهيداً أوربياً .

وأقفلت اليابان أبوابها فى وجه الأجانب حوالى مائتى عام .. وفى منتصف القرن التاسع عشر فتحت الأبواب للوجود الأجنبى ، تحت ضغط الأسطول الأمريكى .

وعندما وصل المرسلون الكاثوليك إلى نجازاكى ، اندهشوا لما رأوا يابانيين مسيحيين ، وقالوا إنهم سلالة (المهتدين) الأوائل الذين ربحهم الجزويت ، أيام كسافيه، ولما علمت الحكومة بهذا المجتمع المسيحى الصغير لجأت إلى اضطهاده ، بالرغم من احتجاجات القوى الأجنبية ، واستمر هذا الاضطهاد حتى سنة ١٨٧٣ .

وطبقاً للقانون اليابانى فى ذلك الحين كان الموت عقاباً للتحول إلى المسيحية .. ومع أن القانون لم يطبق دائماً بدقة ، فإن إعلان دستور يحمى حرية العقيدة الدينية لم يتم إلا فى سنة ١٨٨٩ .

وكان من أوائل المرسلين فى هذه الحقبة الجديدة كاهن روسى هو نيقولاى الذى وصل سنة ١٨٩١ ، إلا أن الحرب الروسية اليابانية (١٩٠٤/١٩٠٥) عرقلت سعيه .. لكن فى عام ١٩١٢ استطاع نيقولاى أن يعلن عن مجتمع روسى أرثوذكسى ، عدده ثلاثون ألف يابانى .

وأول المرسلين الأمريكيين إلى اليابان كان ج. س. هيبرن المشّيخى (١٨١٥/١٩١١) الذى ألف قاموساً (إنجليزياً يابانياً) ، وأتم معظم الاستعدادات اللازمة لترجمة الكتاب المقدس ، وفتحت زوجته أول مدرسة للبنات فى اليابان ، وأسس هو نفسه مدرسة للشبان فى طوكيو ، حيث قام بتدريس العلوم والطب .

● وهذا يورو نيشيما (١٨٤٣/١٨٩٠) الذى قرأ فى شبابه كتاباً مسيحياً دفعه إلى طلب المزيد من المعرفة ، فهرب إلى أمريكا ، حيث تلقى التعليم الجامعى واللاهوتى ، وعاد إلى اليابان سنة ١٨٧٤ ، ليؤسس جامعة مسيحية ، بمساعدة الكنيسة الأمريكية ، فأسس مدرسة دوشيشا التى تطورت لتصبح من أهم الجامعات المسيحية فى اليابان .

وفى سنة ١٨٧٦ دعت الحكومة اليابانية الدكتور و. س. كلارك الأمريكى ، ليفتتح معهداً زراعياً فى (سابورو) .. وكان كلارك خبيراً زراعياً ، ومسيحياً ملتزماً ، حتى أنه فى غضون السنة الأولى طلب من كل تلاميذه أن يتعمدوا ، وهم بدورهم أثّروا على الفرقة التى أتت بعدهم .. وبعد ثمانى سنوات انتعشت المسيحية فى مدرسة دوشيشا فى كيوتو ، وتعمد ما لا يقل عن مائتى طالب .. وحدث هياج تعطلت بسببه الدراسة بعض الوقت ، وكانت هذه ظاهرة غير عادية فى شعب لا يميل بطبيعته إلى التظاهر والإضراب .

وكان يوشيمورا (١٨٦١/١٩٣٠) - تحت تأثير كلارك - يعارض بشدة وجود الهيئات الكنسية الموسمية ، لذلك نظم حركة (موكى بوكاى) ، أو حركة اللاكنسية ، وقال : (الهيكل المسيحى الحقيقى أرضيته تربة العالم ، وسقفه قبة سماواته ، ومذبحه قلب المؤمن ، وناموسه كلمة الله ، وروحه القدس راعيه الوحيد) .

واشتهر يوشيمورا كأستاذ عظيم لتدريس الكتاب المقدس ، حيث بلغ عدد الحاضرين لسماع محاضراته ألف مستمع فى طوكيو .. وأعظم تراث له كان اثنين وعشرين مجلداً فى تفسير الكتاب المقدس باليابانية .

وفى سنة ١٨٨٣ بلغ عدد الكنائس ٩٣ ، وأقل من خمسة آلاف عضو ، وزاد العدد سنة ١٨٨٨ حتى بلغ ٢٤٩ كنيسة ، وأكثر من ٢٥ ألف عضو ، بالإضافة إلى ١٤ مدرسة لاهوتية ، و ١٠١ من مدارس أخرى ، وزاد عدد المرسلين من ١٤٥ إلى ٤٥١ .

ومع أن نسبة المسيحيين قدرت بأقل من نصف الواحد فى المائة من عدد السكان ،

فإنه كان لهم تأثير ونفوذ أكبر كثيراً من نسبتهم العددية ، وعلى الأخص بين قيادات الأمة .

وتحت ضغط الحكومة انضمت الطوائف البروتستانتية الرئيسية وما فى (كنيسة المسيح المتحدة) سنة ١٩٤٠ ، كما أن علم اللاهوت الأصلى صار يتلى فى بلاد كثيرة خارج اليابان .

وأثناء الحرب العالمية الثانية ، توقفت الكنيسة ، ووضع المرسلون فى السجن .

وبعد هزيمة (دول المحور) ، واستسلام اليابان ، تحولت اليابان إلى مستعمرة ، أو قاعدة أمريكية ، وأصبحت الأجهزة اليابانية تتحرك تحت سمع وبصر ومشيئة القيادة الأمريكية .

(ب) فى كوريا :

كانت هناك محاولة فى بداية القرن التاسع عشر ، لكن هذه المحاولة قمعت بعنف. ومع ذلك قررت المرسلية الأمريكية (البروباجندة) أنه كان هناك سنة ١٨٤٠ ما يقرب من ٢٠ ألف كاثوليكى كورى .

وفى النصف الثانى من القرن التاسع عشر بدأ الموقف يتحسن .. وساعد وجود قوات أجنبية فى المنطقة ، ومعاهدات شبيهة بالتى فرضت على الصين واليابان - على فتح أبواب كوريا للغرب .

وفى سنة ١٨٧٣ استطاع مشيخى اسكتلندى ، اسمه جون روس Ross ، أن يجرى اتصالات ، ويتعلم اللغة ، ويترجم العهد الجديد .

وفى سنة ١٨٨٥ سمح للمشيخيين والميثوديين الأمريكيين بالدخول ، وأسس المشيخى هورس أندروود (١٨٥٩/١٩١٦) كلية ومستشفى ، كما ساعدت الاتصالات الودية مع الأسر المالكة على تمهيد الطريق لمرسلين آخرين أن يقتفوا أثره .

وظلت الكنيسة الكورية قوية ومستقلة وسريعة النمو فى العقد الأول من القرن العشرين .

وبحلول سنة ١٩٢٠ بلغت عضوية البروتستانت ٣٠ ألفاً والكاثوليك ٧٧ ألفاً .

وتضاعفت الكنائس كل عشر سنوات ، منذ سنة ١٩٤٠ ، فقد بلغ عدد المسيحيين -

حسب إحصاء سنة ١٩٨٠ - حوالى أحد عشر مليوناً ونصف المليون ، أى ٣٠٪ من عدد السكان .

وفى سيول عاصمة كوريا الجنوبية توجد كنيسة واحدة ، تسمى (الكنيسة المركزية للإنجيل الكامل) ، فى عضويتها أكثر من ١٠٠ ألف ، مما يجعلها أكبر كنيسة مفردة فى العالم .

وفى سنة ١٩٨٠ اجتمع جمهور فى ميدان عام بسيول ، بلغ عدده مليونين وسبعمائة ألف ، للاستماع إلى رسالة تبشيرية .

وهناك ٥٨٠ مدرسة وكلية ، و ٢٠٠ مركز طبى ، و ١٠٨ مدرسة لاهوت ، وتسع محطات راديو / تليفزيون مسيحية ، وكل هذه تقوم الكنيسة بإدارتها وتشغيلها .. كذلك تتحمل الكنيسة الكورية نفقات ٦٢٠ مرسلاً تابعين لها ، يخدمون فى ثلاثين دولة ، (من بينها مصر) !!

(جـ) فى إندونيسيا :

كان البروتستانت يرون أن من أولويات الكنيسة أن تجدد الكاثوليك ، حيث إن الوقت الباقى قصير ، قبل مجيء الرب ، فإذا كان للرب مختارون فى أرض الوثنية فسوف يجد وسيلة لاسترجاعهم .. إن موارد الكنيسة محدودة ، وحاجاتنا إليها ماسّة ، أما الإرساليات إلى الوثنية فغير مجدية ، بسبب جهلهم ، وانخفاض مستواهم ، ومقاومتهم .

وكان من رأى الألمانى جوهان جيرهارد أن أمر المسيح بالكرازة بالإنجيل إلى العالم كله قد انتهى بانتهاء عصر الرسل ، ففى أيامهم قُدمت هبة الخلاص لكل الشعوب ، ولم تعد الحاجة إلى تقديم العطية مرة ثانية لأولئك الذين سبق أن رفضوها .

لكن فى زحمة (الاكتشافات) وتنافس الإرساليات ، وتطويع التبشير للأعمال العسكرية - دخل المرسلون البروتستانت إلى إندونيسيا مع الاستعمار الهولندى سنة ١٦٣٥ .. وبحلول نهاية القرن السابع عشر قيل إنهم ربحوا للمسيحية ١٤٠ ألف نفس ، وتمت ترجمة الكتاب المقدس إلى اللغة الملاوية سنة ١٦٨٨ ، وكثفت الإرساليات الهولندية جهدها فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر .

ومع نجاح الكنيسة الهولندية فى معظم أنحاء إندونيسيا ، كان حظها مع قبائل (الباتاك) فى سومطرا محدوداً ، لأن الإسلام كان أسبق وأعمق جذوراً .

وفى سنة ١٨٦١ عينت (جمعية إرسالية الدين فى ألمانيا) لودفيج إنجوير نومينسين (١٨٣٤/١٩١٨) .

وتغير الموقف فجأة عندما قرر عدد من قبائل (الباتاك) التحول إلى المسيحية ، وكانت النتيجة أن حَذَا حذوهم عدد كبير ، وأصبح نومينسين ومرسلون آخرون غارقين فى زحام (المهتدين) الجدد .

وفى سنة ١٨٧٦ كان عدد المسيحيين بين الباتاك ألفين ، وفى سنة ١٨٨١ صاروا ٧٥٠٠ ، وفى سنة ١٩١١ وصلوا إلى ما يزيد على المليون .. لكن هذه الزيادة لم تطرد ، بل صارت تنكمش مع النشاط الثورى من أجل الاستقلال ، حتى إذا حصلت البلاد على حريتها تبين مدى المبالغة فى تصوير المد التبشيرى .

(د) فى الفلبين :

كان معظم السكان بدائيين ، ولم يجد الرهبان (فرنسيسكان ودومنيكان) الذين صحبوا الاحتلال الأسبانى - صعوبة فى نشر الديانة المسيحية .

لقد نمت الكنائس بسرعة ، حتى عين البابا أول مطران سنة ١٥٨١ ، وأصبحت البلاد أمة كاثوليكية بأغلبية ٨٤٪ سنة ١٩٨٠ .

كانت المشكلة الكبرى تتمثل فى المنافسة بين الأنظمة الكنسية المختلفة ، ولكى يوضع حد للمشاجرات ، ولكى ينسق الجهد الإرسالى تحت إدارة واحدة ، كون البابا جريجورى الخامس عشر سنة ١٦٢٢ المجمع المقدس لنشر الإيمان الذى عرف باسم (نشر الدعوة Propaganda) ، وقد عملت هذه المؤسسة بسرعة كى توحّد العمل فى كل مجال أو لترسل المزيد من المرسلين، ولتكوّن أبروشيات جديدة ، وتلحقها برومه مباشرة.

وفيما يلى التوجه الصادر إلى المرسلين سنة ١٦٥٩ :

(لا تحسبه فرضاً عليك ، ولا تستخدم أى ضغط لإرغام الناس على تغيير سلوكياتهم وعاداتهم وممارساتهم ، إلا إذا كانت مضادة للدين والخلق السليم .. ما أسخفه من عمل أن ننقل عادات فرنسا ، وأسبانيا ، وإيطاليا ، وبلاد أوربية أخرى

إلى الصين ، لا تنقلوا هذا كله إليهم .. لكن فقط الإيمان الذى لا يحقد ولا يهدم الأساليب والعادات لأى شعب .. الإيمان الذى يفترض دائماً أنهم ليسوا أشراراً ، بل هو بالأحرى يريد أن يراهم مصونين آمنين .. لا تُثر مناقضات تهيج البغضاء والنفور بين عادات الوطنيين والأوربيين .. ابذل أقصى جهدك لتتأقلم معهم) .

(هـ) فى الهنـد :

خدم الجزويتى دى نوبيلى Denobili (١٥٧٧/١٦٥٦) فى الهند ، وقد استطاع أن يكون واحداً من أبناء الهند ، فى كلامه ، وملبسه ، وأخيراً قبلوه كأحد البراهمة ، أعلى مستوى فى نظام الطبقات الهندية .

لقد كتب ترانيم مسيحية بألحان هندية ، وحاول أن يوفق العقيدة المسيحية مع الحكمة الهندية .

من ذلك انتقده رؤساؤه بشدة ، لأن هذا يعرّض الإيمان المسيحى للتضارب .. فكيف يستطيع المؤمنون الجدد أن يعرفوا ما يميزهم كمسيحيين ؟!

كان اللوثريون الدنمركيون بين أولى الكنائس البروتستانتية التى أظهرت اهتماماً بالإرساليات الخارجية ، حيث أرسلوا إلى الهند سنة ١٧٠٦ شاباً اسمه بارتو لومبو زيجنبالج (١٦٨٢/١٧١٩) .. بدأ عمله بين التاميل ، فى ساحل جنوب الهند ، حيث سبق أن بشرهم (كسافيه) .. ومن أهم ما ساهم به زيجنبالج هو تدفق رسائله إلى الكنائس الأوربية ، معبراً عن الاحتياجات والفرص فى الهند ، وكان لرسائله تأثير كبير فى تشجيع المرسلين الإنجليز .

وربما كان أشهر المرسلين البروتستانت فى القرن الثامن عشر هو الألمانى كرستيان فردريك شوارتز (١٧٢٤/١٧٦٨) الذى كان مؤيداً من (الجمعية الإنجليكانية) الإنجليزية ، لنشر الإنجيل فى البلاد الأجنبية ، والتى تأسست سنة ١٧٠١ .. وخدم شوارتز ٤٨ سنة ، واكتسب احترام كل طبقات الشعب ، (بسبب أخلاقه المسيحية النادرة) .. وفى تانجور - فى جنوب الهند - كوّن كنيسة وطنية تضم ألفى (مهتد) .

وكان وليم كارى Carey (١٧٦١/١٨٣٤) الذى يدعونه (أبا الإرساليات الحديثة)

معمدانياً ، خدم راعياً ، وإسكافياً ، فى قرية إنجليزية صغيرة . ولما قرأ الكتاب المقدس، ودرس تقارير المستكشفين عن دول أخرى فى العالم ، تولّد فيه حماس عظيم للإرساليات .. كان علاّمة فى اللغات ، حتى أنه - فى أقل من سبع سنوات - ترجم ونشر العهد الجديد باللغة الأردية ، وهى الترجمة التى ما زالت تستخدم حتى اليوم .. وسافر إلى بلاد فارس ، حيث عكف على ترجمة الكتاب المقدس إلى الفارسية والعربية.. وفى سنة ١٧٩٢ كتب بحثاً عن (التزام المسيحيين باستخدام وسائل للإتيان بالأمم الوثنية إلى الإيمان) .. وتعلم اللغة البنغالية . وترجم إليها العهد الجديد ، وصار حجة لاهوتية تاريخية جغرافية ، تهيب بالكنيسة أن تعلن ملكوت المسيح فى قوته إلى أقصى الأرض .

وكانت النتيجة أن تأسست (الجمعية الإرسالية المعمدانية) ، وأبحر كارى إلى الهند سنة ١٧٩٣ ، وكثيراً ما اقتبس المرسلون شعاره (جرّب أشياء عظيمة من أجل الرب ، وانتظر أشياء عظيمة من الرب) .

واجه كارى صعوبات كثيرة : فقد كانت (شركة الهند الشرقية الإنجليزية) تقاوم المرسلين بسبب خوفها من أن تثير كرازتهم اضطرابات تعود بالضرر على أعمالهم ، وأصيبت زوجته بمرض نفسى لازمها حتى الموت ، وبدد أحد رفاقه أموال الإرسالية فى مشروعات لا ضرورة لها .

وبحلول سنة ١٧٩٩ انضم إليه فى سيرامبور - بالقرب من كلكتا - كل من يشوع مارشمان المدرس ، ووليم وارد المطبعى ، ووضع الثلاثة معاً خمسة أهداف رئيسية للعمل المرسلى :

١ - الكرازة بالإنجيل بكل وسيلة على أوسع نطاق .

٢ - توزيع الكتاب المقدس باللغات المحلية .

٣ - تأسيس كنيسة مستقرة بأسرع ما يمكن .

٤ - دراسة متعمقة وضافية فى فكر الشعوب غير المسيحية .

٥ - التدريب المبكر لخدام الدين من الوطنيين .

وبحلول سنة ١٨٣٣ كانت بعض الكنائس - من غير الجزر البريطانية - تبعث بمرسلين إلى الهند ، وبدأ المشيّخيون الأمريكان العمل فى البنجاب فى نفس الوقت .

وبحلول سنة ١٨٥١ كان عدد المرسلين هناك يقدر بحوالى ٦٠٠ ، وبلغ عدد المسيحيين الهنود حوالى ٩١ ألفاً ، منهم ١٤ ألفاً فقط هم الذين يتناولون العشاء الربانى .

وبعد الاحتلال العسكرى للهند زاد عدد المسيحيين سنة ١٩٠٠ إلى ثلاثة ملايين و٨٢٠ ألفاً ، وفى سنة ١٩٨٠ بلغ عدد المسيحيين ٢٧ مليوناً ، وهذا يعادل ٤٪ تقريباً ، من مجموع عدد السكان ، وينتظر أن تصل النسبة إلى ٥٪ سنة ٢٠٠٠ .

وفى سنة ١٩٧٣ كان عدد المرسلين العاملين فى الهند ستة آلاف مرسل ، لكن الحكومة حدّت من منح تصاريح لمرسلين جدد .

٣ - فى أفريقيا

كانت أفريقيا أولى المرتكزات الاستعمارية ، بعد خيبة الأمل فى الحصول على سوريا ، أو على مصر ، للسيطرة على طريق الحرير إلى الصين ، أو على الطريق البرى البحرى إلى الهند .. وكان الأمل فى الدوران حول أفريقيا هو الدوران حول المقدسات الإسلامية ، والاستيلاء على مكة والمدينة ، والضغط على القوات المصرية السورية من أجل تحرير القدس ، ومن أجل السيطرة على الطرق التجارية القديمة مع الشرق الأقصى ، بالإضافة إلى الطريق الجديد ، طريق الرأس الأفريقى الجنوبى .

وقد وافق احتلال أفريقيا احتلال أمريكا ، ونشأ بين القارتين صناعة أخطر الجرائم البشرية ، إذ تخلصت أمريكا من السكان الأصليين بكل وسائل الإبادة ، وسعت إلى (تفريغ) أفريقيا من قوتها العاملة ، فى شكل (عبيد) يشحنون على سفن غير مؤهلة للنقل البشرى ، أشبه بالغرابيل التى تفقد أكثر ما تحمل قبل الوصول إلى أسواق الرقيق التى تُستنزَف فيها ما بقى من قيمة بشرية ، لتعمل فيهم السياط ، وهم يحملون نير الثيران والبقر والبغال .

وقد صحب جرائم السجون والإبادة هذه الدعوة للسيد المسيح ، داعية السلام والمحبة ، (فيا نسمة الصبح هُبّى على قفا المتنبى) !!

بين سنوات (١٧٣٧/١٧٤٤) عمل جورج شميدت (١٧٠٩/١٧٨٥) بين الهوتنتوت ، وربح قليلاً من المسيحيين ، إلا أنه أرغم على مغادرة البلاد ، لأن رجال الإكليروس

التابعين للكنيسة الهولندية رفضوا الاعتراف برسامته.. لكن بعد ٥٠ عاماً عاد المورافيون ، وذهلوا لما اكتشفوا أن إحدى سيدات الهوتنتوت التى سبق أن عمّدها شميدت كانت ماتزال تحمل كتاب (العهد الجديد) الذى أخذته منه .

وفى سنة ١٨٩٩ أرسلت (جمعية لندن المرسلية) طبيبا هولنديًا ، هو (جون تيودور فاندركمب ١٧٤٧/١٨١١) ، ليعمل هو ورفاقه بين قبائل البيجريين والهوتنتوت والبانتوس ، وقد وجد أن الهوتنتوت الأكثر تقبلاً معنوياتهم محطمة ، بسبب الضغوط الاستعمارية ، فركز جهده عليهم ، وأقام لهم مدينة يلجئون إليها على بعد ٤٠٠ ميل من مدينة كيب تاون ، فأتى كثير من الأفارقة ليعيشوا ويعملوا هناك ، ومات فاندركمب سنة ١٨١١ ، بعد أن وضع أساساً صالحاً بنى عليه مرسلون آخرون .

وعندما حرمت تجارة العبيد سنة ١٨٠٦ ، قام الأسطول البريطانى بحراسة الساحل لمنع مثل هذا النشاط ، ومع الأسطول وصلت بواخر تجارية سعياً وراء (فرص مشروعة) ، وبهذه الطريقة بدأت القارة السوداء تفتح أبوابها لمرسلى الكنيسة .

وفى سنة ١٨٠٤ بعثت (جمعية الكنيسة المرسلية) بمرسلين إلى (سيراليون) ، وتبعهم المعمدانيون سنة ١٨١١ ، لكن أمراض المناطق الحارة حصدت كثيرين .

وفى سنة ١٨٢٨ بدأت مرسلية بازل Basel بسويسرا ، لكن ثمانية من تسعة مرسلين ماتوا بحمى الملاريا خلال ١٢ سنة .

وكان الميثوديست توماس برش فريمان استطاع البقاء على قيد الحياة فى (غانا) ، واشتهر بنشاطه وقدرته على اكتساب لغة الأفريقيين .. وبين سنوات (١٨٣٤/١٨٤٤) نمت الكنيسة التى أسسها بسرعة ، وذلك لاستخدامها مبشرين علمانيين أفريقيين .

ودعى دافيد ليفنجستون (١٨١٣/١٨٧٣) ، (**أحد أعظم المرسلين ، وأكثرهم تأثيراً فى الجنس البشرى**) ، وقد اكتسب شهرة عالمية كمرسل ، وكاتب ، وشاعر ، وعالم باللغات ، وأستاذ فى العلوم ، وطبيب ، وجغرافى .

جاء من أسرة فقيرة فى بلانتير ، باسكتلندة ، وقد اشتغل فى طفولته عاملاً فى مصنع نسيج ، من السادسة صباحاً إلى الثامنة مساء ، لكنه كان مشغوفاً بالعلم ، يأخذ كتاباً معه إلى المصنع ، ويسنده أمامه على آلة النسيج أثناء ساعات العمل ، وفى سن السابعة عشرة كان قد حصل على اختبار دينى عميق ، توجّه بعده إلى أفريقيا .

ولأن ليفنجستون اشتهر بأنه الرجل الذى فتح قلبَ القارة المظلمة علمياً وروحياً ، فقد عمر بالتكريم والتقدير .

وعندما وقف أمام المحتفلين به فى جامعة كمبردج سنة ١٨٥٧ قال :

(أرجو أن أوجه انتباهكم إلى أفريقيا ، أعلم أننى بعد سنوات قليلة سأقضى نحبى فى تلك البلاد المفتوحة حالياً ، والتى أرجو ألا تدعوها تغلق مرة أخرى .. أنا عائد إلى أفريقيا ، لأحاول شق طريق للتجارة وللمسيحية ، فهل تواصلون العمل الذى بدأته ؟ أترك هذا لكم) .

ومات ليفنجستون سنة ١٨٧٣ ، أثناء سعيه الجاد فى البحث عن روافد النيل ، ودفنه خدامه الأفريقيون الأوفياء فى قلب أفريقيا ، لكن جثمانه ما لبث أن نقل إلى إنجلترا . حيث يرقد فى (مدافن العظماء) ، فى وستمنستر آبى Abbey .

من خطاب إلى أحد أصدقائه ، قال :

(كان لكل هذه التدبيرات والتحركات غايتها الظاهرة ، وهى أن تُنمَّى التجارة الأفريقية ، وتُرقَّى بالمدنيّة ، لكنى إذ أثق فيك لا أخفى عليك أننى آمل أن تسفر هذه التحركات عن مستعمرة إنجليزية فى المرتفعات الصحية لأفريقيا الوسطى) .

وكان صموئيل كروثر (١٨٠٦/١٨٩١) أنقذ فى طفولته من سفينة للعبيد ، وأخذ إلى إنجلترا ليخدم ويتعلم هناك ، ثم أرسل إلى سيراليون ، لكنه ذهب إلى نيجيريا سنة ١٨٤٤ ، حيث أمكن أن يعمّد أمه وأخواته اللواتى انفصل عنهن حوالى ثلاثين سنة ، ثم شرع فى إعداد كتب قواعد اللغة اليوروبية Yoruba ، وترجم جزءاً من الكتاب المقدس إلى تلك اللغة ، وبعد فترة رُسّم أسقفاً للنيجر ، حيث أسس كنيسة قام بخدمتها بالكامل أفريقيون .

● ولم تأت الرياح بما يشتهى السَّفِنُ دائماً ، فقد أدت محاولة (تهذيب الوطنيين)، أو تمدينهم إلى العنف .

فى عام ١٨٤٩ هاجم أحد المرسلين فى غرب أفريقيا معبداً من مقدساتهم الدينية، فلما قام المواطنون بمظاهرة ضد ما اعتبروه انتهاكاً لحرمة معابدهم ، أقنع المرسلُ البحريةَ البريطانية بقصف البلدة بالقنابل ، قائلاً : (إنى أعتبر الأمر تدخلا من الرب

لصالح أفريقيا) .. وبسرعة استطاع المرسلون - بمعاونة السلطات البريطانية - أن يفرضوا (تقديس) يوم الأحد على كل المنطقة .. وبهذا حدث الخلط بين ما لله وما لقيصر ، وأصبح الصليب سيفاً ، والسيف صليباً .

وفى سنة ١٨٦٢ عمّد المرسلون اللوثريون ابناً لرئيس قبيلة (بيتشوانا) ، وكان اسمه (كاما) ، وكان أبوه قد طرده لما رفض مراعاة تقاليد القبيلة الدينية .. وفى سنة ١٨٧٢ توفى والده ، فخلفه (كاما) على رئاسة القبيلة ، وعلى الفور أخذ فى إلغاء عادات القبيلة الوثنية ، مثل تعدد الزوجات ، وعبادة الأسلاف ، ودخل معظم أفراد القبيلة فى المسيحية .

وعلى نهر الكونغو تأسست مراكز للتبشير ، واحداً بعد الآخر ، بطول النهر ، وكان المشيخيون الأكثر نشاطاً .. وسرعان ما تحققوا من أن العمل يأتى بثمر أوفر إذا ربوّا مبشرين من الوطنيين ، وأعادوهم مرسلين إلى بلادهم .

وفى قبيلة (بالوبا) كان يعمل أربعون مبشراً أفريقياً فى وقت واحد .

وبين سنتى (١٩٠٤/١٩١١) زادت عضوية الكنيسة من ثلاثة آلاف إلى سبعة .

لكن فى كاتانجا انتهز رئيسها (ميسيدى) فرصة رغبة المرسلين فى أن يكونوا عوناً للقبيلة فسيطر عليهم . كتب زائر لكاتانجا سنة ١٨٩٠ يقول : (يعامل المرسلون ميسيدى كأنه ملك عظيم ، لا يفعلون شيئاً بدون أخذ الإذن منه ، وهم رهن مشيئته ، وتحت طلبه .. كانوا تقريباً عبيده ، يطلبهم باستمرار لأتفه الأسباب ، وباتضاع يذعنون، لم يتجاسروا على الحضور لرؤيتى عند وصولى ، لأن ميسيدى أمرهم بذلك .. وعاش المرسلون كالأهالى على الحنطة والعصيدة ، وأحياناً على اللحم الفاسد) .

وهذا ما وهمه الزائر الذى لم يتبين ما هدف إليه المرسلون من هذه الطاعة .. لقد كان بوسعهم - ولهم أتباع من الوطنيين - أن يجدوا ألف طريق فى الغابة للإفلات ، أو للخلاص من هذا (الطاغية) ، لكنهم عاملوه كالطفل (المدلل) الذى تزيده استجابة الآخرين رعونة ، لكنه فى الوقت نفسه (تحت السيطرة) ، كما يقول الأطباء ورجال الأمن ، وقد حدث مثل ذلك مع (عيدى أمين) الملك الأوغندى ، فى الربع الأخير من القرن العشرين - الذى حمله البيض فى هودج على أكتافهم ، ثم ذهبوا به إلى مزبلة التاريخ .

● ولعب رواد وادى النيل دوراً خطيراً تحت مسمى (الكشف عن منابع نهر النيل) أو عن روافده ، وأعان على ذلك أن شرق أفريقيا ، وبخاصة مصر والحبشة (أكسوم) كانا ملعباً للنفوذ الرومانى .

فقبل انتهاء القرن الخامس الميلادى عززت بيزنطة جهودها الدبلوماسية ، وشجعت حاكم أكسوم على المطالبة بمملكة حمير ، رغبة فى فتح جبهة جديدة ضد الفرس ، وبفضل مساعدة بيزنطة استولت أكسوم على بلاد حمير عدة سنوات .

وفى عام ٥٧٥ تقريباً سئمت فارس من مؤامرات بيزنطة (كما يقول سانت موس ص ٢٠٢) فاستولت على بلاد حمير ، وظل يحكمها - حتى ظهور الإسلام - مندوبٌ فارسى .

ومع هذا ظلت الحبشة - حتى عهد هيلاسلاسى - خط الدفاع والهجوم للمسيحية ، فى هذه المنطقة الأكثر رواجاً تجارياً ، وعن طريقها لعبت أوربا وأمريكا الدور الأكبر لشرق أفريقيا ، والدور الأخطر لتهديد مصر بحرمانها من مياه الفيضان ، تنفيذاً لأهداف أمريكية إسرائيلية أوربية .

ولعب المبشرون المسيحيون بجنوب مصر دوراً لا يقل عن هذا أهمية ، ذلك أن بعثة مونوفيزيقية حملت (النوباد) - وهم قبيلة بدوية شرسة - على اعتناق المسيحية ، حوالى سنة ٥٤٠ ، ثم استُخدموا لكبح جماح جيرانهم (البليميين) الذين هم أشد شماساً . حتى طُردوا إلى الصحراء ، فحل محلهم النوباديون على الحدود ، ويبدو أن لونجيلوس ، وهو شخصية جديرة بالإعجاب ، قد اختار تلك المناطق ، حوالى سنة ٥٧٨، فى أثناء رحلاته التبشيرية ، وأوغل حتى بلغ مياه النيل الأزرق العليا .

وظل التبشير يضُخّ فى شرق أفريقيا ووسطها ، جارّاً خلفه الاستعمار البرتغالى والإنجليزى والفرنسى والإيطالى ، ثم الألمانى .

لكن انتشار الإسلام كان العقبة الكأداء ، بخطواته الأوسع والأسرع ، وبقدرة رجاله على مواجهة القوات الأوربية الأكثر إعداداً وتدريباً ، والأمضى سلاحاً ، والأشد رغبة فى الانتقام من الإسلام والمسلمين .

لقد دخل الإسلام شرق أفريقيا منذ الهجرة إلى الحبشة ، ومنذ وجد المسلمون فى النجاشى عوناً للمسلمين ، حتى أقام المسلمون خلف رسول الله ﷺ صلاة الغائب ، حين جاءهم خبر موته .

وامتد الانتشار مع أبناء اليمن وعمان ، حتى امتزجت العربية بلغة القوم ، فكانت السواحلية ، وظلت السواحلية مع ١٨ لغة أفريقية تكتب بالحروف العربية . إلى أن جاء الإنجليز فى القرن التاسع عشر ، ومعهم المبشرون ، فأعلنوا الحرب على الحرف العربى ، وعلى الإسلام .. فما إن حل القرن العشرون حتى صارت جميع اللغات الأفريقية تكتب بالحروف اللاتينية ، فيما عدا دول ساحل البحر المتوسط .. ومع ما أصاب أفريقيا من الإفقار ، ونهب الثروات ، والسقوط فى هاوية الجوع والجهل والمرض والتصحر - انتشر جيش المبشرين وإرساليات التنصير ، وكثرت الكنائس والمعابد اليهودية ، وخصصت مليارات الدولارات من أجل شراء الجوعى والمرضى من (الوثنيين) ، ومن المسلمين الذين لم تطمئن قلوبهم للإيمان ، والذين غلبت قرقرة بطونهم على همهمة ضمائرهم .

لقد ووجه الاستعمار الفرنسى / الإنجليزى فى مصر بضراوة ، برغم قواته المدربة المزودة بأحدث الأسلحة ، وبرغم تخاذل الحكام المماليك والأتراك ، وبرغم خيانة الحكام المماليك والأتراك ، وبرغم (الطابور الخامس) من الأجانب ومن لاذوا بهم ، أولئك الذين رتعوا فى خير مصر ، ونعموا بسلامها وأمنها .

وواجه الاستعمار الفرنسى فى كل من الجزائر وتونس والمغرب ، والاستعمار الإيطالى فى ليبيا - جيوشاً من الشهداء الأبرار ، والفدائيين ، حتى سالت بأعناق الرجال الأباطح !!

● وبرغم التضحيات التى تجاوزت مليونى شهيد ، ظل الاستعماريون يستخفّون بالقدرة العربية ، بل بالوجود العربى بمنطق زعماء إسرائيل ، فالذى يملك أنياباً عُصّلاً يملك أشداقاً ، وتخرج كلماته قادرة على الطيران ، والذى لا يملك أنياباً ليست له أشداق ، وتنزلق كلماته ميتة .

ذكر موظف فرنسى أمضى فى الشرق اثنتين وعشرين سنة - حين أزمع الرجوع إلى فرنسا - أن (العربى هو إنسان الخيال ، ولا علاقة له بما يسمى المنطق ، إنه

لايعرف وضع حدود بين المعقول واللامعقول ، وطيلة وجوده لم يعرف أن يؤسس أو يقيم دولة ، لأن فكرة المصلحة العامة بعيدة عن تصوره ، فإذا رأيت العربى اليوم متحمساً للأفكار البرلمانية ، فذلك لأن الديمقراطية تتلاءم مع عيوبه الثلاثة الأساسية : الادعاء الجنونى ، الرغبة فى الثرثرة المتواصلة ، الميل الطبيعى إلى الأعمال المَعيبة .. فالموظفون والوزراء لا يفكرون إلا فى الغنى السريع على حساب الأموال العامة ، أضف إلى ذلك أن العربى هو أفضل من يمثل نكران الجميل .. كان بمقدورى أن أبقى سنوات أخرى ، إنما فضلت الرحيل بعد أن أتخمنى القرف) .

لا ريب أن هذا (الموظف الفرنسى) يتحدث عن طبقة العملاء الذين آثروا أن يعيشوا (كلاباً) على باب (الأسد) ، يسترفدون رغده ، ويكتظون بما أبقت موائده ، وما رفده وطعامه إلا ما يبزّه ويقتطعه من لحم الشعب المسكين الذى ينطقون بلغته ، ويتوشحون بتاريخه ، ويحملون بيارقه وأعلامه .. إنهم (كلاب) صيد هذا (الأسد) الاستعمارى ، ينبحون بزئيره ، وينهشون لحومنا بأنيابه ، وفى حدود ما يسمح لهم يصنعون الأناشيد والشعارات ، ويهرّبون العمولات ، ويتاجرون فى الممنوعات .. جعلوا من الديمقراطية حزب الحاكم ، وهو (سيد قراره) ، لا يُسأل عما يفعل ، وهم يسألون !!

فى سنة ١٨٣٠ وصف كليرمون تونّير ، وزير حرب شارل العاشر ، لمليكه ، غزوَ الجزائر ، بقوله : (إنه عمل عظيم ، أنعمت به العناية على فرنسا ، لتمدين العرب . وجعلهم مسيحيين) .

وقال هـ . لامارش : إن (هدفنا من الغزو - وهو هدف لا داعى لستره عن الأوربيين ، ولا عن العرب - هو الدعوة إلى المدنية المسيحية فى أفريقيا) .

وجاء فى كتاب (رحلة فى مملكة الجزائر) : (لقد ضحّى أناس كرماء ، نفوسهم مفعمة بمحبة الإنسانية ، بوجودهم ذاته ، فى سبيل توعية تلك الأمم الهمجية ، وتوسيع حدود المدنية) .

وفى مقالة نشرت سنة ١٨٤٦ فى إحدى صحف بوردو ، نجد هذا التعبير : (ما علينا لتبرير غزونا إلا أن نقول فقط : إننا أدوات للمدنية ، مسيّرون بها) ، ثم يستطرد : (إن البدوى هو الهندى الأحمر فى أفريقيا ، ويجب تهيئة نفس المصير الذى

آل إليه الهنود الحمر ، أثناء عملية استعمار الرواد لأمريكا ، فى عملية استعمار فرنسا للجزائر ، يجب أن يختفى من على وجه الأرض) .

وقال الأسقف الفرنسى ، رئيس أساقفة الجزائر ، والمندوب البابوى لمنطقة الصحراء الكبرى شارل لافيجيرى :

(لقد اختار الله فرنسا ليجعل من الجزائر مهداً لأمة مسيحية عظيمة ، إن دولتنا تراقب ، فأعين كل الكنيسة مركزة علينا) .

يعلق صاحب (تاريخ الكنيسة جـ ٥ ص ١٧١) على هذا بقوله : لقد رأى لافيجيرى نفسه فى دور بطريرك قسطنطينى ، ينظم صرحاً إكليريكياً ، فى إمبراطورية أفريقية جديدة ، فبنى فى قرطاجنة كاتدرائية كبرى ، وأقام فيها ضريحاً فخماً أعده ليوم وفاته ، وعن طريقه نشأ نظام للرهبنة (للآباء البيض) الذين كان غرضهم التبشير ، لكن لما صادفوا نجاحاً قليلاً فى شمال أفريقيا انتقلوا فيما بعد إلى داخل جنوب الصحراء الكبرى ، والكاثوليكية لا توجد فى الغالب إلا بين السكان الأوربيين .

● حين شنت الحرب العالمية الأولى سخّرت جميع الموارد الأفريقية لخدمة المحاربين ، وسخّر شبان أفريقيا ليكونوا فى طليعة المقاتلين ، وتكررت الجريمة بصورة أوسع مع الحرب العالمية الثانية ، فماذا كانت النتيجة ؟!

كشف مكتب الوثائق العامة البريطانى عن خطة (عبقرية) قدمها المارشال مونتجمرى ، بطل معركة العلمين ، لحكومة العمال حينذاك ، لتحويل قارة أفريقيا إلى ثلاثة اتحادات فيدرالية ، يسيطر عليها البريطانيون ، ووصف الأفارقة بأنهم همجيون بشكل مطلق ، وغير قادرين على تطوير بلادهم .

وجاء فى الخطة المؤلفة من ٧٦ صفحة أن مونتجمرى طالب بأن يكون الحكم الأبيض لمصلحة بريطانيا التى يجب أن تستفيد من الثروات الطبيعية والبشرية للقارة السوداء .

وتقضى الخطة التى أعدها المارشال الإنجليزى - بعد جولة فى أفريقيا استغرقت شهرين عام ١٩٤٧ - بزيادة أعداد البيض فى القارة ، وعدم الاهتمام ببيانات الأمم المتحدة عن حق تقرير المصير للشعوب .

وماذا فعلت الأمم المتحدة ، أو عصبة الأمم من قبل ، لصالح الشعوب المغلوبة ؟!

أسفرت الحرب العالمية الأولى عن وعد بلفور الذى باركته كل من بريطانيا وفرنسا ، وأيدته أمريكا ، من أجل زرع النفايات البشرية فى (قلب) الدول العربية ، وزودت هذه النفايات بالمال والسلاح ، وبالأكاذيب الدبلوماسية والدعاية ، حتى تم إعلان دولة إسرائيل ، ومن يومها ومطامع هذه الدولة تتضاعف ، والشعوب العربية والإسلامية منكفئة على همومها وآلامها و (عنترياتها) .

وكانت حروب ١٩٤٨ و ١٩٥٦ و ١٩٦٧ مكيفة تكيفاً استعمارياً ، كما كانت حرب العراق / إيران ، وحرب العراق / الكويت ، استنزافاً إجرامياً للقوى الإسلامية والقوت الإسلامى .

ولم يكتف السرطان الأمريكى / الصهيونى بهذا التدخل الفاضح ، جاراً خلفه (العسكرية والأطماع الأوربية) ، بل أعلن على الملأ حقَّه فى التدخل فى شئون الدول الإسلامية ، حماية (للأقليات) !!

وعلى سبيل المثال ، تقدم رئيس المجلس البلدى لمدينة نيويورك (بيتر فانونى) بمشروع قرار ، له قوة القانون ، يقضى بمقاطعة الشركات التى يثبت أنها تتعامل مع الدول التى تضطهد المسيحيين ، ويدعو المجلس البلدى الكونجرس الأمريكى لاتخاذ قرار مماثل على المستوى الفيدرالى .

وقد عقدت لجنة العلاقات الخارجية فى الكونجرس سلسلة اجتماعات لمناقشة اضطهاد المسيحيين فى الدول الإسلامية ، توطئة لاتخاذ قرار يفرض عقوبات اقتصادية وسياسية ، تمهيداً لتدخل عسكرى يعمل من القلة حكاماً وصناع قرارات !!

● وما تزال الحروب القبلية تأكل الأخضر واليابس ، على المستوى الأفريقى كله ، وما أكثر ما نسمع عن انقلابات ، وجيوش تتحرك داخل حدود دول أخرى ، وطائرات وسفن وغواصات تتحرك لتقيم كيانات هشة ،وتهدم كيانات هشة !!

يقول (تاريخ الكنيسة جـ ٥ ص ٢٠٦) : يتضاعف عدد الأفارقة من كل الطوائف مرة كل ١٢ سنة، ويبلغ عدد السكان المسيحيين فى الوقت الحاضر أكثر من ٢٣٦ مليوناً، وهو ما يعادل ٤٥٪ من سكان القارة .

ومن هنا كانت دعوة (مجلس الكنائس العالمى) إلى أن تصبح أفريقيا كلها مسيحية ، قبل حلول عام ٢٠٠٠ .. وهذا ما يفسره التدخل الاقتصادى والسياسى

والعسكرى فى جميع شئون القارة ، بما هو أشبه بمطاردة ومتابعة (رعاة البقر) ، حتى تدخل جميع الأبقارداخل الأسوار .

● أورد كل من كتاب (قصة الحضارة) . و (تاريخ الكنيسة) ، و (مختصر دراسة للتاريخ) أن سكان العالم المسيحى سنة ١٩٨٠ بلغ حوالى المليار ونصف المليار ، وهو ما يساوى ٣٢,٨٪ من مجموع سكان العالم ، وهذا العدد يتزايد بنسبة ٢١,٦ مليون نسمة كل سنة ، وأكثر هذه الزيادة داخل أفريقيا (السوداء) ، التى لن تغير جلدها مهما طالت مأساتها .

فى سنة ١٩٥٠ كان ٨١,١٪ من السكان المسيحيين فى العالم من البيض ، لكن فى سنة ١٩٨١ نجد المسيحيين من غير البيض هم الأغلبية ، ويتوقع أن يصبح للملونين سنة ٢٠٠٠ ما نسبته ٦٠٪ .

وقد ترجم الإنجيل سنة ١٩٨١ إلى ٨١١ لغة ، ولا يزال هناك ٥٢٠٠ لغة يتحدث بها ١٨٥ مليوناً تعوزهم معرفة الكتاب المقدس .

وفى تقدير المختصين أن ثلث سكان العالم لم تصلهم قط رسالة الإنجيل ، وأن ثُلثًا آخر تلقوا عرضاً سطحياً للإنجيل .

فهل آن لهؤلاء الذين يستفرغون جهودهم وثروة بلادهم وسمعتها فى حروب داخلية ، أو فى حروب حدودية ، أن يعوا من هذه الأرقام شيئاً ؟!

إننى أحيي هذا الكفاح البطولى للطوائف المسيحية التى تعاونت على غزو الأراضى الجديدة ، مزودة بكل وسائل النجاح ، من دراسات بكر للغات غير مدونة ، قام على تدوينها أفذاذ ، وعملوا قواعد ومعاجم لغوية لها .. ومن دراسات عادات الشعوب التى أرادوا إدخالها (ملكوت السماء) ، ومنحها (مجد الرب) .. ومن بناء المنشآت الدينية والتعليمية والطبية والاجتماعية .. ومن الإشراف على الإنتاج الزراعى والصناعى والحرفى .

إنهم لم يدعوا وسيلة للنجاح إلا التمسوها ، وتوسعوا فيها ، وكان من ورائهم أمْداد العون والتأييد ، مادياً ومعنوياً ، أفراداً وجماعات ، مؤسسات وحكومات .

أليس مثل هؤلاء هم الأجدر بالحياة ، دنيا وأخرى ؟!

لقد صار (رعاة البهم يتطاولون فى البنيان) ، ويتقاتلون حول (أشراط الساعة) ،

ولا يمدون أيديهم لمن يحاولون الدعوة إلى الله ، من مسلمى الهند وباكستان ، الذين يجوعون عاماً ليجدوا ما ينفقونه خلال عام الدعوة إلى الله فى مجاهل أفريقيا .

الا يدخل نصيب (المؤلفة قلوبهم) ، و (فى سبيل الله) ، و (الغارمين) - من مصارف الزكاة - فى تزويد الدعاة بمايعينهم على تبليغ رسالة الله إلى من لم تبلغهم الدعوة ؟!

لقد زعمت مصر أنها - وهى بسبيل تطوير الأزهر - أنها تعمل على إعداد الأطباء والمهندسين والعلماء بالطاقة الروحية ، ليكونوا أقدر على نشر الدعوة الإسلامية ، ثم لم تزد مصر على أن جعلت الأزهر غير أزهر ، وزادت من عدد الذين يجلسون على الطريق يعبئون أشعة الشمس فى أنابيق وفى أباريق !!

أما آن لنا - بدلاً من التفنن فى صناعة الإرهاب ، والتفنن فى مقاومة الإرهاب - أن نَصْدُق مع أنفسنا ، ومع الواقع المحيط بنا ، ونزيح تلك الأغشية عن عيوننا ، والأكنّة عن قلوبنا ، والأوهام عن بصيرتنا ، ونخوض معارك العصر ، بالحكمة والموعظة الحسنة، وبمزيد من التعاون والتكافل ، والتضحية بالمال ، والاغتراب من أجل الاقتراب؟!

ألم نسمع قول الله سبحانه ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ﴾ . (سورة التوبة ، آية ١١١) .

ألم يقل الله جل شأنه : ﴿ قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾.
(سورة التوبة ، آية ٢٤) .

فى معارك (إسلامية) على أرض (الأفغان) ، وعلى أرض (البوسنة والهرسك) تطوع شبان للجهاد فى سبيل الله ، من بلاد عربية وإسلامية ، لكنهم لم يستطيعوا العودة إلى أوطانهم ، فقد وصموا بالإرهاب ، ولاحقتهم القوانين حيث ذهبوا ، فلما كانت عملية الإبادة الشاملة فى (كوسوفا) ، لم يزد الشباب الإسلامى على أن صعّد الزفرات ، ومصمص الشفاه ، وضاع فى دوامة الحجاب أو النقاب ، وتقصير اللحية أو تطويلها ، وخير ما فى الوعاء التمر والماء !!

٤ - فى روسـيا

بحلول عـام ٩٥٠ كان فى جنوب روسيا عـدد من المسيـحيين .. وذهبت (أولجا) ملكة كييف إلى القسطنطينية لتعتمد ، وعند عودتها وجدت نبلاءها معارضين للإيمان المسيحى ، كما أن حفيدها الأمير فلاديمير عبد آلهة الأوثان القديمة ، وإن كان لديه حب استطلاع بالنسبة للديانات الأخرى ، إذ أرسل مندوبين إلى عدة بلاد ، يتعرف على معتقدات أصحابها .. ومن بين التقارير التى وصلته ما يقول : (رأينا الألمان يمارسون عبادتهم اللاتينية ، ولا جمال فيها ، وصحبنا اليونانيون إلى كنيستهم ، ولم نعلم إذا كنا فى السماء أو على الأرض .. من المستحيل أن نجد على الأرض جلالاً أعظم من هذا . ومن العبث أن نحاول وصفه ، ولا نستطيع قط أن ننسى جمالاً بهذه العظمة ، إننا نعرف فقط إلهاً يمشى بين الناس) .

وهذا قول أشبـه بما حكى عن دخول اليـهودية بلاد الخزر ، وقد أخذ به جيبون ساخراً ، إذ قال :

(قـارن سـفـراء الإمارة السكندنافيـة فى روسـيـا ، أو تجـارها ، بين عـبـادة أوثان الغابات ، وبين خرافة القسطنطينية الرشيقة ، إنهم قد حَدّقوا معجبين إلى قبة سانتا صوفيا ، وتطلعوا إلى صور القديسين والشهداء الزاهية ، وفى ثروة الهيكل ، وفى عدد الكهنة وأرديتهم ، وفى أبهة الشعائر ونظامها ، وأخذ بلبهم تتابع اللحن المتسم بالورع . والتراتيل المتناسقة ، ولم يكن إقناعهم شيئاً كبيراً بأن جوقة من الملائكة تهبط يومياً من السماء ، لتشارك المسيحيين تعبدهم) .

المهم أن فلاديمير اقتنع باختبار الأرثوذكسية ديانة لروسيا ، وكان قد تزوج أميرة يونانيـة ، ثم تعـمـد سنة ٩٨٨ ، وطلب كهنة من كنيسة الشرق لتـأسيس المسـيحيـة فى روسيا .

وطبقاً للنظام المعمول به فى ذلك الوقت صارت الكنيسة الروسية تابعة لبطريركية القسطنطينية ، واحتلت مرتبة المطرانية الحادية والستين التابعة للكنيسة الأم ، وحتى سنة ١٥٨٥ كان البطريرك الذى يرأس المطرانية الروسيـة غيـر روسى .. ثم استـقلت الكنيسة الروسية بعد ستمائة عام من تأسيسها .

لكن تاريخ الكنيسة يذكر مجمع الأساقفة فى كييف سنة ١٠٥١ ، عندما دعا الأمير ياروسلاف إلى انعقاده ، واختيار قسيس روسى لمنصب رئاسة المطرانية فى كييف، من بين الأساقفة الروس ، وليس من أساقفة القسطنطينية .. وهذه كانت خطوة متقدمة على طريق استقلال الكنيسة الروسية عن الكنيسة التى (عمدتها) .

وفى أوائل القرن الثامن عشر كان فى روسيا ما يقرب من ٧٤٠٠ راهب و ٥٦٠٠ راهبة ، يملكون تحت أيديهم ما يقرب من ٢٧ ألفاً من الأرقاء ، للعمل فى حراثة وزراعة الأراضى الخاصة بالكنيسة .

ووصل الأمر إلى أن البطريرك نيقون - فى عهد ألكسيس والد القيصر الشهير بطرس الأكبر - أصر على أن يكون مكانه بجوار عرش الملك ، وراح يوحى للحاشية ورجال البلاط بما يفيد أن مقعده (الدينى) يجب أن يكون أعلى قليلاً من عرش الملك.

كان موقف نيقون مستمداً من تاريخ سابق ، كانت الكنيسة فيه هى الحاكم الفعلى فى روسيا ، لأن خشية الله كانت سائدة فى كل مكان ، على حين كان سلطان (إيفان) محدوداً ، وكانت قواعد الطقوس الدينية - إن لم تكن قواعد الفضيلة والأخلاق - تقيد الجميع ، حتى القيصر نفسه فى يوم أحد سنة ١٥٦٨ - أثناء الصلاة - رفض فيليب مطران موسكو أن يمنح إيفان البركة التى توسل إليه فيها ، وطلب القيصر ذلك ثلاث مرات ، دون جدوى ، ولما سأل أتباعه عن سبب هذا الرفض أخذ فيليب يعدد جرائم إيفان وفسوقه ، فصاح القيصر : (هدئ من روعك ، وامنحنى البركة) ، فأجاب المطران : (إن سكوتى يوقعك فى الخطيئة ، ويستوجب هلاكك) ، فغادر إيفان المكان ، من دون البركة !!

ويبدو أن هذا الشعور بالقوة استدعى تقوية الورع عن طريق فن العمارة والرسوم الحائطية والتماثيل والأيقونات والعظات وحفلات التنويم المغناطيسى والترانيم التى يشترك فيها عدد كبير من المرتلين .

وكانت ملكيات الأديرة الكثيرة ضخمة ، حتى أن (دير الثالوث المقدس) الذى أسسه القديس سرجيوس سنة ١٣٣٥ جمع من الأراضى الشاسعة ما يحتاج إلى أكثر من مائة ألف فلاح (رقيق) لزرعه[١] .

---

(١) عن قصة الحضارة جـ ٢٦ ص ٢٣ و ٤ ، وبين هذا الرقم والرقم السابق بون شاسع .

● ولم يكتف نيقون بهذا ، بل راح يجمع الأنصار والمؤيدين له من النبلاء والقادة . من أجل ألا يتم (إبرام عقد أو صلح إلا برضاه) ، فلما وجد من رجال البلاط معارضة لمطامعه (الدنيوية) التى تتجاوز حدود ما تسمح به الديانة المسيحية لخدامها ، قام بطردهم من البلاط ، وحظر عليهم الدخول أثناء وجوده .

وكان أن اتُّهِم نيقون بالرشوة ، وجرى نفيه إلى أحد الأديرة ، وانتخب المجمع بطريركاً غيره .

وقد ساعد ألكسيس على الخلاص من نيقون أنه كان حفيداً لأحد المطارنة . فاستطاع استمالة رجال المجمع لتأييده .

وبعد وفاة ألكسيس استولت الأميرة صوفيا على العرش ، باعتبارها الوصية على ابنى أخيها ، ودخلت الكنيسة فى صراعات وانقسامات ، وانتشرت الإشاعات عن محاولات لاغتيال الأميرة ، وبعض رجال الحاشية ، واتهم الأمير كونسكوا ، وأمكن التخلص منه عن طريق كمين قتله وعدداً من أتباعه وأحد أبنائه .

وتولى بطرس الأكبر (١٦٧٢/١٧٢٥) شئون الإمبراطورية ، وراح يجرى التعديلات والتجديدات فى أمور الدولة والمجتمع ، وكان أن اضطر إلى مواجهة الكنيسة ، أملاً فى الحصول على ما تملك من كنوز ينفقها على بناء الجيش والأسطول . وتوفير تمويل الحروب التى شغلت حياته كلها .

واستغل وفاة البطريرك أدريان سنة ١٧٠٠ ، وعطل انتخاب المطران استيفان يافورسكى مكانه ، مدة عشرين عاماً .

وكان قد أصدر مرسوماً فى ٢٢ ديسمبر ١٦٩٨ بإلغاء لقب القيصر ، واستبدل به (الحاكم باسم الله) ، تمهيداً لبسط يده فى شئون الكنيسة .

وانتهز فرصة انتصاره فى معركة (آزوف) ، فى طريقه إلى القسطنطينية ، وأخذ يحاسب الكنيسة على الواردات والنفقات ، ويرغمها على بناء السفن بأموالها ، ويمنع إنشاء أجنحة جديدة فى الأديرة والكنائس ، كما يمنع دفع الرواتب إلى كبار الأساقفة .

وأخذ فى انتزاع ملكية الكنيسة جزءاً فجزءاً ، ممهداً للإجهاز عليها فى عهد يكاترينا الثانية سنة ١٧٦٤ .

وفى أثناء حملته على الكنيسة اكتشف أموالاً غزيرة كانت تنفق من أجل الحصول على منصب البطريرك ، فقام بضم هذه الأموال ومنابعها إلى خزينة الدولة .

وفى سنة ١٧٢١ أصدر قراره بحل البطريركية الروسية وإلغائها ، وأنشأ محلها جهازاً آخر . أسماه (السنودس الحكومى المقدس) ، تحت إشراف (وزارة العقيدة الأرثوذكسية) ، وكان أعضاء السنودس يقسمون يمين الولاء للقيصر (الحاكم باسم الله) .

ثم أمر ألا يترهّبَن أحد من الرعية ما لم يتجاوز الخمسين ، كما عرض على جنوده أكل اللحم أثناء (الصوم الأكبر) ، لأن تحريم اللحم لا يلائم حال الجنود أثناء الحرب .

ومع أن بطرس سمح فى عهده (لكل إنسان أن يعبد الله ، وفق ما يدين به ، بشرط أن يؤدى ما عليه للدولة ، فإنه لم تقم فى روسيا كنيسة كاثوليكية إلا فى (استراخان) ، بينما أصدر أمراً عاماً بطرد اليسوعيين من (عموم بلاد الروسيا) سنة ١٧١٨ ، وذلك لكثرة دسائسهم السياسية .. أما اليهود فلم يكن لهم فى روسيا معابد أو بيع ، واختصت الكنيسة الروسية بألا تجاورها معابد يهودية .

● وبعد موت بطرس أصبحت يكاترينا (١٦٨٤/١٧٢٧) إمبراطورة . وهى ابنة فلاح من ليتوانيا المطلة على بحر البلطيق .. كان اسمها مارتا ، عملت خادمة عند قسيس فى مدينة مايرنبورج ، وعندما استولت القوات الروسية على المدينة عام ١٧٠٢ ، اتخذها أحد الضباط خليلة ، وتسمت يكاترينا ، ثم أعجب بها الفيلد مارشال شيريمتيف ، فاتخذها خليلة ، ومن بعده أصبحت خليلة ألكسندر مينشكف ، اليد اليمنى للقيصر ، ثم شاهدها القيصر ، فطابت له ، وتزوجها زواجاً مدنياً عام ١٧٠٣ ، وتسمت باسم يكاترينا ألكسيفنا ، نسبة إلى ألكس ابن القيصر ، وانتقلت يكاترينا من الكاثوليكية إلى الأرثوذكسية ، وتزوجها بطرس زواجاً كنسياً عام ١٧١٢ ، ولم يعين حتى موته وريثاً للعرش ، فانحصرت الوراثة فى حفيده بطرس ابن ألكس ، لكن مجموعة مينشكف وتالستوى وأبراسكين استطاعت إعلان يكاترينا إمبراطورة ، وكان ألكسندر مينشكف الحاكم الفعلى ، لكنها ما لبثت أن ماتت فى ١٧٢٧ .

وفى عهد الإمبراطورة حنا إيفانوفنا (١٧٣٠/١٧٤١) كان الألمان هم الوزراء والأمراء ، وبالتالى كان المذهب البروتستانتى هو الأقوى والأكثر نفوذاً فى الدولة .. ولما طبع كتاب (صخرة الإيمان) ضد البروتستانتية سجن مؤلفه فى (فيبورج) .

أما إليزابث التى حكمت بعد حنًا فقد دعت (السنودس الحكومى المقدس) إلى إصدار أمر بإلغاء (الكنائس الأرمنية) من موسكو وبطرسبورج ، وأغلقت فى تتارستان عدداً كبيراً من المساجد ، ومنعت بناء غيرها .

وكتبت الإمبراطورة كاترين الثانية (١٧٦٢/١٧٩٦) إلى فولتير تقول : (أعتقد أنك ستسر ، ويسر كل مفكر ذى ضمير حى من إنشائى لجمعية « الإكليروس والموظفون » التى تعرف بمجمع أورنبرج ، ففى هذه الجمعية يجلس الأرثوذكسى بين اليهودى والمسلم، والثلاثة يصغون إلى حديث الوثنى ، والأربعة يتفاوضون لجعل آرائهم مقبولة لدى الجميع) .

لكن كاترين الثانية التى كانت بعيدة عن اضطهاد الكاثوليك ، وسمحت للجزويت بالعمل والانتشار فى روسيا البيضاء ، وأوكرانيا ، رغم أنف البابا كليمان - لم يكن لها مثيل فى تاريخ الإمبراطورية الروسية .

وحسب الإحصاءات المختلفة نجد أن النسبة التقريبية لأتباع الكنيسة الأرثوذكسية الروسية من السكان لا تزيد على ٢٥٪ ، مما يفيد أن ٧٥٪ من سكان روسيا المسيحية عرضة للدخول فى كنائس أخرى .. ومع قدر من الوعى وحسن التأتِّى أو (المداخلة) يمكن تحويل كثير من الروس إلى فكر دينى أكثر عقلانية ، وأكثر ميلاً إلى الإصلاح الاجتماعى ، وهذا ما تنبه إليه الفكر الشيوعى ، فشغل فراغ الملايين فى زمن محدود ، وأوقعهم فى شباكه .

● وعن طريق ملء الفراغ بالشيوعية حوصرت الكنيسة . وأصبحت مجرد هيكل بلا شعار ، وبلا كلمة ، حتى إذا كانت الحرب العالمية الثانية ، وتشابكت مصالح الحلفاء ضد دول (المحور) القومى المتعصب - أمكن تخطى السور الحديدى ، وأمكن تسرب أفكار الغرب ، أو (العالم الحر) إلى داخل الاتحاد السوفييتى ، وبخاصة بعد موت ستالين ، وبعد تعرية جرائمه على يد خروشوف ، كما أمكن انتشار الفكر الشيوعى فى كافة أنحاء المعمورة .

وعن طريق (التبادل الثقافى) ، وعن طريق النشاط الدبلوماسى والقنصلى بخاصة ، نشط الفكر التبشيرى داخل الاتحاد السوفيتى ، بقدر ما نشط الفكر والآداب السوفياتية فى أوربا وأمريكا ، وفى الدول التى تدور فى الفلك الغربى .

وقامت الحرب الباردة على الغزو الفكرى ، بالكلمة المسموعة والمقروءة .. ولهذا تم فى العقود الثلاثة الأخيرة من القرن العشرين تسجيل ما يزيد على ألف بعثة تبشيرية ومركز دينى ووكالة إخبارية أجنبية تخدم جهات دينية خارجية .

وإلى جانب هذه الجمعيات والمنظمات ذات الطابع الدينى المباشر ، أو التى تحمل صفة إنسانية نبيلة ، تسلل ممثلو الاتجاهات (الباطنية) ، وأصحاب العقائد السرية ، مثل (الطريقة البيضاء الكبرى) ، وسكنت الجثمان السوفيتى جراثيم نشطة يسرت انفجار الاتحاد السوفيتى من الداخل ، وعجلت باستقلال أشلائه .

لقد كانت الجمعيات الأجنبية تحمل بين تعاليمها ما هو شاذ وغريب ومتطرف ، مثل منظمة (أناندامارج) ، وتشكل هذه المنظمة خطراً حقيقياً ، ليس فقط على أرواح ونفوس الذين يعتنقون أفكارها ، بل على البيئة التى تنفث فيها سمومها .

وتشعر الكنيسة الأرثوذكسية والمعمدانية بقلق شديد من نشاط الكنيسة المعروفة بـ (كنيسة مون) التى تمارس نشاطاً كبيراً داخل روسيا ، ويتغلغل أتباعها بين السكان بمهارة وقدرة باهرة على اكتساب الآخرين .

ويلاحظ أن المنظمات التبشيرية الوافدة - خلاف المنظمات الدينية المحلية والتقليدية - إنما تسعى بصورة حديثة ، وبطريقة لفتت الأنظار ، للحصول على (الشخصية القانونية) ، وهى بعدما تحصل على التصريح من وزارة العدل ، تبدأ فى طلب أراضى ومنشآت لممارسة نشاطها .

وتستعمر هذه البعثات والمنظمات مناطق الشرق الأقصى ، من روسيا وسيبيريا ، وتتوجه إلى هناك ، كما لو كان الأمر مرتبطاً بتوجيهات وتخطيطات سابقة .

على سبيل المثال ، لم تكن فى جزيرة كامتشاتكا سنة ١٩٨٣ جماعة دينية واحدة ، لكنها الآن تعج بالمنظمات الدينية والبعثات التبشيرية القادمة من كل حَدَب وصوب .

ويلاحظ أنه تم تسجيل المئات من المنظمات الدينية التى تحمل أسماء غريبة ، ودلالات يصعب تفسير ما وراءها ، مثل كنيسة جيش المنتصرين ، وكنيسة تلاميذ المسيح ، وكنيسة الهجرة ، وديانة (الدغاما) ، وكنيسة انتصار المسيح ، وكنيسة إيمانويل ، ومعبد طريقة فرسان مريم العذراء .

هذا عدا الكثير من أسماء الجمعيات التبشيرية الأجنبية ، وبخاصة الآسيوية ، التى تبدو أكثر غرابة وطرافة .

■ **هامش ..**

اهتم الدنمركيون بتأسيس عمل فى جرينلاند ، إحدى أكثر الأماكن برودة على الأرض ، فسافر هانز إيجيد وزوجته وأطفاله إلى هناك سنة ١٧٢٢ ، ليعمل بين الإسكيمو ، لكنه شعر بإحباط تام لعدم تمكنه من الإلمام بلغة القوم ، بسبب صعوبة نطقها وعدم تدوينها ، ومن ثم لم يصادف نجاحاً يذكر كمبشر ، لكنه وأسرته قدموا خدمات اجتماعية كبيرة ، وبخاصة أثناء وباء الجدرى ، ونتيجة الإعياء الشديد توفيت الزوجة ، وقد حظيت الأسرة بتقدير كبير .

وعاد الابن بول بن إيجيد الذى كان قد عرف لغتهم بعد سنوات ، فترجم الكتاب المقدس إلى لغة الإسكيمو ، وأسس الكنيسة الوطنية ، واستمر العمل فى جرينلاند بواسطة المورافيين الألمان .

• • •

زواج باطل

يحكى إيمانويل هيمان (الأصول اليهودية ص ١٧) أن العلاقة تدهورت بين الله و (شعبه المختار) .. فقد تذمرت اليهودية من كثرة القوانين والأوامر والنواهى .. ومن أعالى السموات استمع الرب إلى شكاوى القوم الذين اختارهم ، وارتفعت أصواتهم الغاضبة : اختر لك شعباً آخر .. أجابهم الرب : لا مانع عندى ، ولكن أعيدوا لى التوراة التى أنزلتها عليكم .

توافد المندوبون من جميع أنحاء العالم إلى جبل سيناء ، وهم يحملون لفائف الوصايا العشر ، والأسفار ، وكتب التلمود ، وكتب الصلوات ، وقرارات الحاخامات ، والهوامش ، وهوامش الهوامش .. وسرعان ما تكوّن تلّ من الكتب الواردة من جميع القارات .

انفرجت أبواب السماء ، وسمع صوت الرب واهناً حزيناً يقول : ولكنى لم أبعث إليكم أبداً كل هذه الأشياء !!

هذه (الطرفة) تمثل حقيقة هذا الشعب (صلب الرقبة) ، الشعب الذى عذب نفسه بسماديره وأوهامه ، ودعاواه ، وافتراءاته ، واتخذ من إحباطاته ، وما نزل به من البلاء على يد المصريين والفرس والروم ، ومن المسيحية الأوربية ، أناشيدَ يعصبها على عينيه ، وعلى بطنه ، لتكون (برتوكولات حكماء صهيون) ، ولتكون مواثيق المحافل الماسونية ، ينقبُون بها الجدران ، ويهتكون السرائر ، ويجيّشون العواهر والمرابين والمقامرين والمغامرين وصناع الملاهى والجواسيس ، ويدوّنون فى سجلات مقروءة ومسموعة فضائح رجال السياسة ، ورجال الدين ، ورجال السلاح ، ورجال الاقتصاد ، ويربطون شباكهم بشباك جميع العصابات العاملة فى تهريب المخدرات والسموم ، والأغذية الفاسدة ، والأدوية القاتلة ، والأفكار المشوهة ، والتصفيات الجسدية ، والأخلاقية ، واللعب بكل الأوراق ، يوم لا ينفع عهد ولا ميثاق .

ومع كثرة الجرائم الأخلاقية والعسكرية المدونة بأيدى الحاخامات فى كل من العهد القديم والتلمود ، ومع كثرة قتلاهم من (الأنبياء) ، وبخاصة يحيي وعيسى ، ومع كثرة ما اقترفوا ضد الشعوب ، منذ ابتز قارون أموال قومه إلى ما صنع روسوس باقتصاد (النمور) الآسيوية ، ومع كثرة ما روجوا من فتن ودسائس على مستوى الحروب العالمية بخاصة ، وعلى مستوى الحروب الناشبة بين أبناء الوطن الواحد والقومية الواحدة ، حتى يومنا هذا - مع هذا كله يتبجح الحاخام حاييم يعقوب شلامى ، فيقول : (تتميز بقية البشرية عن العالم اليهودى بأنها عندما تواجه الاختيار الأخلاقى المعروض على كل إنسان ، تختار رغباتها الشخصية ، وترفض طاعة الله ، أما اليهودى فأهم شيء لديه هو أن طاعة الله تأتى قبل إرادة المخلوق) !!

ويبدو أن طاعة الله ، هذه مقترنة بما صنع (يشوع) ، فما دام الرب يقود شعبه لإهلاك الشعوب التى تقيم حيث (يحبّ) أن يقيم شعبه ، فإن القضاء على (كل نسمة حية) يدخل فى (طاعة الله) .. وقياساً على ما صنع (يشوع) بالأقوام التى كانت تستوطن أرض لكَش ، وجازر ، وعَمون ، وغيرها من أرض كنعان - فإن أى (جريمة) يرتكبها اليهود ضد أى شعب تعدّ فى (طاعة الله) ، بل إن أى جريمة تعود بفائدة ما على أى فرد من أبناء (الشعب المختار) تعد فى (طاعة الله) .

ذكر الصحفى الإيطالى ميشيل داجاتا (الأهرام ١٩٩٢/٨/٢٥) أن الحديث كثر عن تواطؤ المافيا والمحفل الماسونى الثانى ، برئاسة (ليشيو جيللى) ، وقد أحدث هذا التواطؤ هِزة سياسية عنيفة فى إيطاليا ، لأن عدداً كبيراً من السياسيين والاقتصاديين والعسكريين وشخصيات مرموقة فى شتى المجالات - كانوا أعضاء فى هذا المحفل الذى اتهم بأنه يشكل فى الواقع منظمة سرية سياسية تهدف إلى زعزعة النظام الديمقراطى فى إيطاليا ، ولها اتصالات دولية خطيرة ، وبخاصة فى الأرجنتين ودول أمريكا اللاتينية الأخرى .

وقد ظل ليشيو جيللى رئيس المحفل بعيداً عن الإدانة ، برغم أن الشواهد قد دلت على أنه ضالع فى إفلاس بنك (أمبروز يانو) المشهور ، وأن له اتصالات برجل المال الصقلى (ميكيلى سندونا) الذى فر إلى الولايات المتحدة ، واعتقل هناك بتهمة ارتكاب فضائح مالية أسفرت عن إفلاس عدة بنوك أمريكية ، وثبت أن شركات سندونا المالية

كانت تُستخدم فى غسل الأموال الملوثة الصقلية الأمريكية المتحصلة من عمليات تهريب المخدرات والنشاطات الإجرامية الأخرى .

وقد ثبت من التحقيقات أن سندونا ورئيس المحفل الماسونى الثانى قاما بعملية ابتزاز لبعض رجال الطبقة الحاكمة فى إيطاليا ، واشتركا فى تصفية (قتل) شخصيات بارزة ، مثل الجنرال كارلو ألبرتو ديلاكيرا .

وفى باريس عام ١٩٨٦ عاد الحديث عن العلاقة بين الماسونية والمافيا ، بعد محاكمة المافيا الكبرى فى باليرمو ، وبعد مراقبة زعيم عصابة تهريب الهيروين . اكتُشف فى باليرمو مركز لمحفل ماسونى اسمه (دياز) ، تخفّى وراء اسم (مركز المؤسسات الاجتماعية الإيطالية) ، اشترك فيه زعماء من المافيا بارزون ، مثل عائلتى جريكو وسالفو ، وقضاة ، ورجال أعمال ، وسياسيون ، وصحفيون[١] .

هذا مجرد (مثال مدوّن فى صحيفة) عن الجرائم اليهودية البشعة .. ولو أنك طالعت ما صنعت الجاسوسية المزدوجة لليهود فى الحربين العالميتين لما كفى أن يشنق كل جاسوس عدة مرات ، لكن - للأسف الشديد - حصل هؤلاء الجواسيس على الأوسمة والجوائز (المالية) ، بالإضافة إلى ما حصلوا عليه من بيع ما لديهم من أسرار، أو من السكوت على ما لديهم من أسرار !!

حتى فى أمريكا التى تبنت إسرائيل ، وزودتها بأحدث ما تنتج مصانعها من أسلحة، ووفرت لها تكنولوجيا جميع أسلحة الدمار ، حتى الأسلحة النووية والبكتيرية والكيميائية - أمريكا هذه التى تدفع المليارات كل عام لتحمى الوجود الإسرائيلى من (أمراض) الشرق الاقتصادية ، لم يكفّ جواسيس إسرائيل عن بيع أخطر الأسرار الأمريكية إلى كل من روسيا والصين ، أخطر منافسى أمريكا ، من أجل تهريب عدد من يهود روسيا إلى إسرائيل ، ومن أجل عدم نقل التكنولوجيا إلى البلاد العربية والإسلامية .

نحن نعلم أن المجرمين والفارين من أوربا هم الذين أقاموا لبنات الوجود الأمريكى، ومن ثم قام هذا الوجود على مبدأ (الإحلال) الذى حدث مع إسرائيل .. أرض بلا شعب لشعب بلا أرض ، أو أرض عليها شعب (لا يستحق البقاء) ، لأنه لا يملك

---

(١) يرجع إلى الماسونية فى كل من كتابيّ : (الساعة الخامسة والعشرون) ، و (اليهود من الجيتو إلى الفاتيكان) .

مقومات البقاء فى شريعة الغاب ، لشعب يملك من المال والسلاح والعون (العالمى) ، ليكون امتداداً لفرض سلطان الأقوى .

وكانت الثروات التى احتفظ بها الهنود الحمر فى (الأرض الطيبة) هى التى استدعت - وما تزال - خيرة الغربان والصقور فى (الدنيا القديمة) .

لكن ظلت أخلاقيات وقيم (رعاة البقر) هى التى تحكم أمريكا ، وتسوّغ التأييد المطلق لإسرائيل .

●● خـــبر..

أذيع فى يونيه ١٩٩٩ أن إيران قبضت على ١٣ يهودياً يتجسسون لحساب أمريكا وإسرائيل ، ومع أن هؤلاء الجواسيس لم يقدموا بعد إلى المحاكمة ثارت ثائرة أمريكا وإسرائيل وإنجلترا وإيطاليا وفرنسا وألمانيا ، متهمة إيران بالعداء للسامية ، وبعدم توفير العدالة فى المحاكمة ، وأن اليهود (الجواسيس) أبرياء مما اتهموا به .. هكذا دون التعرف على حقيقة الاتهام ، وعلى طبيعة المحاكمة ، ودون اهتمام بحق أى شعب فى حماية نفسه .

فى مصر جاسوس إسرائيلى اسمه (عزام) محكوم عليه بالسجن ، ومع هذا يوضع هذا (العزام) على رأس الموضوعات التى يجرى بشأنها حديث فى أى لقاء مصرى أمريكى ، أو مصرى إسرائيلى (!!) هذا مع أن مئات الأسرى المصريين فى حرب (١٩٧٣) قتلتهم إسرائيل ، بعد توقف القتال ، وإعلام إسرائيل هو الذى تكرم أخيراً بإذاعة هذه الجريمة التى تخالف جميع الأعراف الدولية (!!) كأنه يتهمنا بما لا نعرفه!!

● فى سبتمبر ١٩٤٧ كتب لوى هندرسون ، مدير مكتب الشرق الأدنى وشئون أفريقيا وجنوب آسيا فى الخارجية الأمريكية - إلى وزير الدفاع چورچ مارشال :

(إن تقسيم فلسطين ، وإنشاء دولة يهودية أمر يعارضه عملياً كل موظف فى السلك الدبلوماسى ، أو فى وزارة الخارجية ، ممن سبق له التعامل مع قضايا الشرق الأدنى والشرق الأوسط) .

إن جميع مستشارى الرئيس هارى ترومان لشئون السياسة الخارجية ، وفيهم كثير ممن كانوا يوصفون بالحكماء ، مثل مارشال ، وروبرت لوفيت ، وشارلس بوهلن ،

وجيمس فورستال ، ودين أتشيسون - كانوا ضد الاعتراف بالدولة اليهودية الجديدة التى كانوا يرونها عقبة فقيرة نفطياً ، فى مسار العلاقات مع العرب الأغنياء بالنفط ، والمتمتعين بموقع استراتيجى هام ، فى وقت كانت الولايات المتحدة تنطلق فى غمار الصراع - على الساحة العالمية - مع الاتحاد السوفيتى ، **لكن لم يكن منهم من تمسك** برايه متشبثاً ، على نحو ما فعل هندرسون وزملاؤه الدبلوماسيون ، فى مكتب الشرق الأدنى بوزارة الخارجية .

وعندما بات واضحاً أن ترومان لم يكن ليثنيه أحد عن تأييده لإسرائيل ، عمد كل من لوفيت ومارشال وغيرهما من الحكماء إلى سحب معارضتهما ، واصطفوا خلف الرئيس .. لقد كان جميع هؤلاء أعضاء فى المحافل الماسونية ، وكان لهؤلاء جميعاً أصدقاء بارزون فى الصهيونية العالمية .

كتب ترومان فى مذكراته : (خبراء وزارة الخارجية المختصون بالشرق الأدنى كانوا بغير استثناء لا يكنّون الود لفكرة يهودية) .. بسبب خوفهم على المصالح الأمريكية ، لكن فاتهم ما أدركه لوى هندرسون - أحد أعمدة الدبلوماسية الأمريكية - من أن العرب محكومون بالقبلية والعنترية ، وما كانت (الجامعة العربية) التى أوحى بها (إيدن) وزير الخارجية البريطانية ، ثم رئيس وزرائها ، إلا وسيلة لتشتيت شملهم ، والتدريب على الخطابة الخالية من القيم والمبادئ العملية .

والملاحظ أن جميع المنظمات الأفريقية والآسيوية والإسلامية والعربية كانت بإيحاء وتوجيه الدول الاستعمارية ، ولهذا لم تزد على أن تكون وسيلة (تفريغ هوائى فاسد) ، فى خطب وقرارات تنتفخ كالبالونات ، فإذا حميت الشمس تحولت إلى فرقعات!!

فى سنة ١٩٤٨ كانت الأسلحة والذخائر تجمع فى مبنى رمادى مستطيل فى ظل ناطحات السحاب ، فى الشارع الخامس من نيويورك ، لترسل إلى دولة إسرائيل الوليدة.. وقد وصفت جريدة معاريف الإسرائيلية (٩ يوليه ١٩٩٣) أحد معسكرات التدريب فى تلال كانسكيل ، فى منطقة نيويورك ، قائلة : (كان المعسكر يضم مائة وعشرين صبياً ، جاءوا من الولايات المتحدة وكندا وبريطانيا ، واشتركوا فى تدريبات إطلاق النار بالكلاشنكوف ، وحرب العصابات فى المدن ، ومواجهة الإرهاب ، واستخدام

المتفجرات .. وإلى جانب ذلك يتلقون محاضرات أيديولوجية ، ودروساً فى اللغة العربية، كل هذا كان يتم تحت سمع وبصر (الأمم المتحدة) .. واليوم ، فإن مقر المجلس الوطنى لإسرائيل الذى ضم خمسة وعشرين ألف عضو ينتمون إلى مائة وخمسين جماعة أرثوذكسية فى الولايات المتحدة وكندا ، له تأثير قوى على الطائفة اليهودية فى مجموعها .

إن حلم السلام عربى لا إسرائيلى ، فلم توجد إسرائيل بالسلام ، وما يزال الإسرائيليون يلطمون وجوههم لأنهم لم يستغلوا الفزع العربى سنة ١٩٦٧ لتوسيع وجودهم ، حتى يشمل الفرات والنيل ، وقد كانت جميع الطرق مفتوحة ميسرة ، لكن الإنسان بطبيعته تروعه الطرق المفتوحة ، بقدر ما تروعه الطرق المغلقة .. أما السلام بالنسبة للقادة العرب فأرصدة فى البنوك (اليهودية) ، وقروض من البنوك اليهودية ، وخبراء يهود فى زراعة الخيار والتفاح والكنتالوب .

لقد شغف القادة العرب ببناء القصور (القلاع) على شواطئ البحر المتوسط ، شمالاً وجنوباً ، وشرقاً وغرباً .. وقد بنى بطل (أم المعارك) ، بطل النشامى الأشاوس تسعين قصراً ، وأكبر مسجد فى العالم ، مع أنه لا يقيم الصلاة ، وهوايته الرئيسية قتل أصحابه بمدفعه الذى اشتراه من حُرّ ماله ، ومن حُرّ ماله صنع له مقبضاً من الذهب والفضة ، وجراباً من فرو الثعالب الروسية .. وكان له فضل تدويخ لجان الأمم المتحدة بين خرائب (أم المعارك) ، بحثاً عن شيء ، أى شيء ، يمكن أن يشير إلى بقية من الكرامة ، أو بقية من الخجل .

● أحكمت أمريكا سيطرتها على بترول الخليج ، وصارت تستقطع حقها فى الإنفاق على قواعدها الضاربة فى صدر الخليج ، وأحكمت أمريكا سيطرتها على جميع الدول المتخلفة ببيع قروضها ، وبيع خبرائها ، وبيع أسلحتها ، وبيع منتجاتها ، وبيع سندويتشاتها ومياهها الغازية .. ووصلت إلى (قدس الأقداس) فى كل الدول (المتنامية) بكثرة سكانها ، وكثرة حاجاتها ، حاملة على ظهرها أو فى جيوبها (عزرا وماريكا وراشيل) ، (باسم الآب والابن والروح القدس ، آمين) .

ومع هذا ، فإن الأطماع اليهودية التى فرضت على ألمانيا - وهى تعانى من الخراب الماحق الذى نزل بها فى الحرب العالمية الثانية - تعويضات عما أصاب اليهود ، بخاصة

فى محارق (الهولوكوست) المزعومة ، والتى فرضت على سويسرا أن ترد (الذهب) الذى أودعه اليهود (الموتى) فى بنوكها ، منذ أكثر من نصف قرن . والتى فرضت على فرنسا أن تحاكم كل من يتناول أخبار (الهولوكوست) بالدراسة أو بالتعليق - الأطماع اليهودية هذه جعلت تفتش فى علاقة الكنيسة بهذه الأطماع التى بدأت منذ التفكير فى دولة إسرائيل ، التى دعا إليها هرتزل ، ثم أخذت المؤتمرات الصهيونية فى دراسة وسائل التحقيق[1] .

فى عام ١٩٠٤ اعترض البابا بيوس العاشر على الحركة الصهيونية ، وهجرة اليهود إلى فلسطين ، وبعدها اعترضت الكنيسة الكاثوليكية على وعد بلفور سنة ١٩١٧، وعلى زيادة الهجرة اليهودية إلى فلسطين ، خلال الحرب العالمية الثانية ، ثم اتخذ البابا والكنيسة خطأً واضحاً بشأن القضية الفلسطينية ، الذى ما زال (مخطوطاً) حتى الآن . عن تدويل القدس ، ومشروعية قيام دولة فلسطينية .

لكن فرض الوجود الإسرائيلى ، مشمولاً ببركات ومعونات الدول الخمس الكبرى أمريكا وروسيا وإنجلترا وفرنسا وألمانيا - دفع البابا وكرادلة الفاتيكان ورؤساء الأساقفة إلى إعادة التفكير فى موقف الكنيسة من اليهود .

فى عام ١٩٦٠ كلف البابا يوحنا الثالث والعشرون الكاردينال (بيا) إعداد مسودة نص مجمعى عن اليهود ، يزيل عنهم تهمة (قتل الله) .

وبعد اتصالات ومداولات واستشارات دامت عامين ، وضع الكاردينال (بيا) مسودة (مشروع) النص المجمعى فى يونية ١٩٦٢ ، التى عرضت على اللجنة المركزية ، وأثارت (احتجاجات) فى البلاد العربية ، واعتراضات أساتذة هذه البلاد المشتركين فى المجمع .. ثم جدد عرض المسودة ، فقوبلت بالرفض فى ٢١ نوفمبر ١٩٦٣ .

وفى عام ١٩٨٢ تولى الباب يوحنا بولس الثانى أمر البابوية ، وأمر بتبرئة اليهود من خطيئة تعذيب وصلب وقتل المسيح ، واعترفت الكنيسة بأصول يسوع اليهودية ، من خلال الوثيقة التى أقرها الفاتيكان ، ولقيت قبولاً واستحساناً منقطع النظير بين يهود إسرائيل والعالم .

---

(١) انظر للمؤلف كتاب (اليهود تاريخاً وعقيدة) .

وفى إطار استعداد الفاتيكان للاحتفال بالألفية الثالثة ، استضاف مؤتمراً كبيراً حضره ستون من كبار رجال الكنائس العالمية ، لبحث وثيقة دينية مهمة ، تحمل اسم (جذور معاداة اليهودية فى الأوساط المسيحية) .. وهذه الوثيقة هى التى صاغها ، أو أخذ فى صياغتها الكاردينال إدوارد كاسيدى ، منذ عهد البابا يوحنا بولس الثانى ، وكان عنوانها (نحن نتذكر) .. وقد أعلن البابا فى بيانه الختامى عدم رضائه عن المقاومة المسيحية ضد النازية ، خلال الحرب العالمية الثانية ، ووصفها بأنها لم تكن بالشكل المطلوب الذى كانت تنتظره الإنسانية ، ثم طالب بسرعة إجراء عملية ترتيب وتنظيف الذاكرة المسيحية من الشوائب والأفكار المعادية للشعب اليهودى ، وأضاف أن الفاتيكان قد عزم على فتح صفحة جديدة فى العلاقة بين المسيحية واليهودية .

واختتمت الوثيقة بإدانة واستنكار كل المذابح التى ارتكبها العالم (من إبادة الشعب الأرمنى ، ومذابح أمريكا الجنوبية ، وأفريقيا ، والبلقان ، والملايين الذين راحوا ضحية الدكتاتورية فى الصين ، وكمبوديا ، والاتحاد السوفيتى سابقاً) .

وبعد إعلان محتويات الوثيقة رسمياً فى الفاتيكان صباح ١٦ مارس ١٩٩٨ ، وصف البابا الوثيقة بأنها (طلب غفران) للأخطاء التى ارتكبها بعض المسيحيين فى حق اليهود ، إبان الحرب العالمية الثانية ، وقال : إن الكنيسة تدعو أبناءها للصفح والغفران ، وتشجعهم على تطهير قلوبهم من خطايا الحاضر ، **من خلال الندم** ، استعداداً لاحتفالات الألفية الثالثة .

أما الكاردينال كاسيدى فقد ذكر أن الوثيقة فرقت بين معاداة السامية من قبل النازية التى كانت نتيجتها إقامة الأفران والمحارق (الهولوكوست) ، وبين معاداة المسيحيين لليهود التى أدت إلى إغلاق أعينهم عن رؤية الخطأ ، وعدم مبالاتهم بالويلات التى أصابت اليهود .. وقال : **إن الوثيقة إقرار بالشعور بالندم ، واعتراف بالخطيئة** .. وقال : إن اللجنة قد عثرت على شكر رسمى من جانب اليهود موجّه إلى البابا بيوس الثانى عشر ، منشور فى أحد أعداد الجريدة الرسمية للفاتيكان ، سنة ١٩٤٥ .. ثم أضاف : إن الوثيقة لا تخص أوربا فقط ، بل العالم كله .. وختم تصريحاته بأن مؤتمراً سيقام فى الفاتيكان ، تحت رئاسة ورعاية البابا ، خلال العام القادم ، سيتم خلاله بحث تنظيم العلاقة ، وزيادة التعاون بين الأديان الثلاثة : المسيحية واليهودية والإسلام .

ومن المعروف أن البابا بيوس الثانى عشر الذى اتهمه اليهود بالسلبية كان قد تربع على كرسى البابوية خلال الفترة من ١٢ مارس ١٩٣٩ . وحتى وفاته فى ٩ أكتوبر ١٩٥٨، وكان قد بعث بأكثر من رسالة احتجاج إلى الحكومة الألمانية ، مطالباً بوقف المذابح اليهودية .

لكن اليهود غرهم الغرور ، بعد (طلب الغفران) . فأعلن حاخام إسرائيل الأكبر (مائير لاو) عن خيبة أمله الكبيرة . ووصف الوثيقة بأنها عامة ، وهروب من المسئولية . وعودة إلى الوراء ، ولم تتضمن اعتذاراً صريحاً عن الأخطاء التى ارتكبها المسيحيون فى حق اليهود ، وعلى رأسهم البابا بيوس الثانى عشر ، كما أنها خلت من أية إدانة للاضطهاد الفكرى .. وكان يأمل أن تتضمن الوثيقة تفسيراً وتوضيحاً عن المساعدات التى قدمتها الكنيسة وأبناؤها المسيحيون بخصوص هروب أغلب مجرمى الحرب النازية من أوربا ، بعد الحرب العالمية الثانية .. وطالب بأن يعتذر الفاتيكان عن (الموقف المخزى للبابا بيوس الثانى عشر فى ذلك الوقت) ، مشيراً إلى أن عمليات الإعدام كان من الممكن أن تتوقف لو أراد الفاتيكان .

وأعرب زعماء اليهود فى العالم عن خيبة أملهم تجاه الوثيقة ، وطالب الحاخام الأكبر فى فرنسا بفتح ملفات الفاتيكان الخاصة بزمن الحرب ، لكشف الحقيقة كاملة .

وجعل اليهود من قضية الهولوكوست حائط مبكى جديداً ، أقيم له نصب فى إسرائيل ، وآخر فى نيويورك ، والويل كل الويل لمن يتناول أحداث الهولوكوست بالدراسة ، أو بالتعليق ، ولعل محاكمة الدكتور جارودى قصد بها أن تكون (سوط عذاب) لكل من تسول له نفسه أن يمس (مقدساً) يهودياً ، أو أن يعرّى وثناً هو فى الحقيقة مجرد (فزّاعة) من قَشٍّ .

•• خبر ..

تردد فى بعض المجالس الصحفية أن الصهيونية العالمية تفاوض مجلس الكنائس العالمى بشأن إقامة فندق ، على مستوى عال ، بميدان الفاتيكان الكبير ، يخدم السياحة الدينية ، وينفق دخله على مشروعات دينية مشتركة !!

• • •

نابليون فى مصر

ينسبون خطأ ، أو تعصباً ، النهضة الأوربية إلى التراث اليونانى ، متجاهلين أن هذا التراث اليونانى تتلمذ فى بداياته على التراث المصرى ، ومتجاهلين أن هذا التراث اليونانى لم تتعرف عليه أوربا إلا من خلال التراث العربى الإسلامى ، والتراث العربى الإسلامى وصل إلى الأندلس وصقلية عن طريق المشرق العربى الذى تتلمذ على التراث اليونانى (الإسكندرى) بواسطة الرُّها ونصّيبن وحران وجنديسابور . بعدما أصاب مكتبة الإسكندرية الكبرى ، بسبب حروب القياصرة على شاطئ الإسكندرية ، وبسبب الخلافات الحادة بين البطارقة المصريين والبطارقة الرومان ، نتيجة حروب المجامع الإكليروسية ، وبسبب النتوءات الوثنية واليهودية التى كانت تُطلّ من حين لآخر ، مويَّدة بالقوة العسكرية الرومانية أو البيزنطية .

كانت مصر إذن ملء العيون التاريخية فى أوربا ، منذ ما قبل الإسكندر ، وكان وقوعها فى يد الفرس تارة ، وفى يد اليونان تارة ، وفوق الحدود (المتداخلة) بين حكومتى البطالمة والرومان ، والدور الذى لعبه بطارقتها فى إدالة دولة الرومان ، زمن هرقل .. ثم ما كان من نصرتها للإسلام فى الحروب الصليبية ، وتدخلها فى أحداث الأندلس التى تتخبط أمواجها بين أعمدة هرقل - كل هذا جعل من مصر شُغل الملوك والقادة ، بحيث أيقن الجميع أن مصر هى مفتاح التجارة إلى الشرق الأقصى ، وأن من يستولى على مصر يصبح قادراً على تحريك دفة التاريخ .

● فى عام ١٥٠١ أرسل ملكا أسبانيا فرديناند وإيزابلا بعثة إلى مصر ، برئاسة بيير مارتل دانجيرا .. وصلت البعثة إلى الإسكندرية ، ونزلت فى ضيافة القنصل الفرنسى فيليب بيريه .. ثم سافر دانجيرا إلى القاهرة ، فوصلها فى ١٦ يناير ١٥٠٢ .

يصف الرحالة الفرنسى (جان تينو) اللقاء بين الغورى ودانجيرا بأنه (كان لقاءً عاصفاً) ، توعدّ فيه الغورى حكام أسبانيا ، من جراء اضطهادهم المسلمين .. وفشلت

بعثة دانجيرا فى عقد أية اتفاقات تجارية مع الغورى ، وغادر دانجيرا القاهرة فى فبراير ١٥٠٢ .

لم يكن الغورى من القوة بحيث يسيّر جيشاً يخلص بقايا الأرض الأندلسية ، لأنه كان مهدداً بالجيش العثمانى الذى رفض أن يمد يده - وهو قادر - لينقذ ما يمكن إنقاذه من الأرض الأندلسية ، وكان الأندلسيون قد أرسلوا أكثر من استغاثة إلى السلطان العثمانى ، دون جدوى ، ولعل المركب التى أغرقها ملاحوها لم تكن تشجع على مدّ يد العون .

يقول ملك البرتغال إيمانويل للبابا سنة ١٥٠٤ : (إننى أتشوق لرؤية اليوم الذى تدمر فيه الكعبة ، وقبر محمد فى المدينة) ، وطالب البابا بتكوين (حلف من الأمراء المسيحيين لمحاربة المسلمين) .

إن الهزائم المتكررة على شواطئ سوريا ومصر ، ثم تونس ، باسم (الصليب) ، سرعان ما داوت جروحُها هزائم المسلمين على أرض الأندلس ، وكانت هزائم البلقان ، وسقوط القسطنطينية ، حافزاً على الانتصارات الاستعمارية فى كل من أمريكا وأفريقيا وآسيا ، وكانت هذه الانتصارات حافزاً على استعادة (الأرض المقدسة) ، سواء عن طريق البحر الأبيض المتوسط ، أو عن طريق الدوران حول أفريقيا ، والوصول عن طريق البحر الأحمر أو الخليج الفارسى .. وفى جميع الحالات كانت مصر هدفاً أول ، بحسبانها القلب الذى يوقع نبضات الشرق كله .

● وبدأت مرحلة الحروب الإيطالية (١٤٩٤/١٥١٥) بغزو شارل الثامن لإيطاليا ، فقد نجح شارل فى إقناع البابا وحكام جنوة والبندقية أن الغرض الرئيسى من حملته العسكرية أن تكون إيطاليا مركزاً لعملياته العسكرية ، ولمشروعه الصليبى الكبير ، ألا وهو الزحف على البلقان ، ثم الاستيلاء على القسطنطينية وبلاد الشام وبيت المقدس .. وأكد لهم ثقته فى تحقيق مشروعه الكبير ، وتكوين دولة صليبية فى الشرق الإسلامى .

وسرعان ما أدركت القوى الأوربية ، والبابا ، أن هدف شارل الثامن هو بسط سيطرته على إيطاليا ، فتكونت الأحلاف ضده لمنعه من تنفيذ مخططه ، لكن شارل تمكن من احتلال جنِوه وفلورانس وبيزا ، ودخل رومه ، مدعياً حقه فى وراثة عرش نابلى وميلان .

بعد ذلك أرسل فرانسوا الأول بعثة لافوريه إلى اسطنبول ، وتم الاتفاق على تقديم المساعدة لفرنسا أثناء غزوها إيطاليا ، فتقوم القوات الفرنسية بغزو شمال إيطاليا ، متجهة نحو سهل لومبارديا ، بينما تقوم القوات العثمانية بغزو جنوب إيطاليا .

ولم تناقش بعثة لافوريه الأمور السياسية والعسكرية فقط ، بل وقّعت اتفاقاً هاماً مُنح فيه رعايا وتجار فرنسا حق التجول والاتجار فى أنحاء السلطنة العثمانية ، وحررت المبادلات التجارية من الضرائب ، وصار للقنصل الفرنسى فى اسطنبول والإسكندرية حق التقاضى ، وصار لا يحق للقضاة العثمانيين الحكم على رعايا وتجار فرنسا ، بناء على شكاوى الأهالى ، إلا فى حضور الصدر الأعظم ، كذلك منع حجز الأسرى بصفة رقيق ، ومنحت السلطة الفرنسية حق الرسوّ فى الموانئ العثمانية ، ولا يجوز تفتيشها إلا فى حالات خاصة ، وقد جُدد هذا الاتفاق فى عام ١٥٦٩ و ١٥٨١ و ١٥٩٧ و ١٦٢٤ و ١٧٢٩ .

ولم تكن فرنسا بقادرة على مثل هذا الاتفاق لو أنها حاربت البابا وانتصرت ، لأن السلطان كان سيظل على حذر وريبة ، أما الآن فكل ما تريده فرنسا يمكن تحقيقه فى ظل هذا الاتفاق ، سواء أكان مشروعاً أم غير مشروع .. لقد وصلت الأذرع الفرنسية إلى كل مكان ، على شاكلة (التطبيع العربى الإسرائيلى) أيام مفاوضات إسحق رابين ، وآن للفرنسيين أن يثبوا إلى الهدف (الصليبى) الذى طال الطريق إليه .

● عندما انهزمت الدولة العثمانية سنة ١٥٧١ فى معركة ليبانتو، وتحطم أسطولها، لم تقدم فرنسا أى عون ، بل ضحكت فى كمها ، مقدمة (أطيب التمنيات).

وقد آن للرحالة الفرنسى جريفان أفاجار - بعد عودته من مصر - أن يحث حكومته على (أن تسعى للاستيلاء على مصر ، بدلاً من سعيها للوصول على دوقية ميلان ، ويجب ألا يتوسط المسيحى فى قتال أخيه المسيحى ، كما حدث فى إيطاليا ، ومن الأفضل توجيه جهود فرنسا للاستيلاء على مصر ، وما أيسر الاستيلاء عليها) .

كان ليبنتز الفيلسوف الألمانى قد رأى رأى الرحالة جريفان ، فأعد مخططاً (متكاملاً) لغزو مصر ، تقدم به إلى لويس الرابع عشر ، مؤكداً أن هذا (المخطط) يرسّخ - بشكل حاسم - (السيادة فى البحر ، وفى التجارة ، ولا يتطلب من تموين

إلا ما أُعِدّ سلفاً ، وسوف يحظى بالتعاطف الدولى مع الملك ، حال انقشاع الشكوك ، وانتهاء العداوات .

وبعدها يصبح الملك المتحكم الأوحد فى التجارة ، وصاحب اليد العليا فى الشئون المسيحية ، كما أنه سيفتح طريق العز للملك نفسه ، عندما يقوم بمثل هذا المشروع المرتبط تاريخياً بعظمة الإسكندر ، ولن يكون هناك مجال للندم على التأخير ، إذا ما أحسنا استغلال الفرصة) .

ويجب ألا ننسى أنه (بسبب مصر فقد المسيحيون الأراضى المقدسة ، ذلك أنها كانت المنقذ للمسلمين الذين يجب أن يختفوا من الأرض) .

لم يكن لويس الرابع عشر (المباهى بقدرته - أنا الدولة) ليلجأ إلى المغامرة ، ويضحى بما حصل عليه من امتيازات ، دون أن يتخلى عن شيء ، وهو يعلم أن تحالفه مع العثمانيين لا يشجع ملوك أوربا الذين يتربصون به أن يقفزوا إلى مكانه فى تركيا وإيطاليا ، ثم ينهشون لحمه من كل جانب ، وما تزال الأساطيل الإنجليزية والأسبانية تتجول فى بحر الظلمات ، وفى البحر المتوسط .

فلما اندلعت الحرب بين الترك والروس عام ١٧٦٨ تبين المؤرخون مدى حكمة لويس الرابع عشر ، وزعموا أنها كانت بتدبير فرنسى ، تمهيداً لاحتلال مصر .

وإذا كان شوازيل (كبير الوزراء ، ووزير الخارجية ، والبحرية ، ورجل التدابير الساخنة) قد استطاع إهداء فرنسا حلمها الكبير ، بضم كورسيكا ، فإن لويس الخامس عشر لم يكن ليتركه يقوم بحملة على مصر ، تجعل منه فى النهاية بطلاً قومياً تصعب إزاحته ، هذا فضلاً عن أن شوازيل كان حريصاً على أن يجمع بين الحصول على مصر والإبقاء على صداقة تركيا ، فيتم الاحتلال عن طريق المفاوضات ، ولم يكن يرى غضاضة فى أن تتنازل تركيا عن مصر لصديقتها فرنسا ، لأن الحكومة العثمانية لم يبق لها فى مصر سلطة فعلية .. ثم إن الحرب التركية الروسية كانت قد أنهكت الجانبين ، وبقدر من إغراء تركيا ، وعن طريق الضغط الروسى - وكانت روسيا صديقة لفرنسا - يمكن سقوط ثمرة مصر .. لكن ما لبثت حكومة شوازيل أن سقطت سنة ١٧٧٠ ، بعد خلافات مع الملك وكبير الوزراء ، وانتهى الأمر بنفى شوازيل خارج فرنسا .

● كانت كل تقارير (دوسارتين) ، وزير البحرية فى عهد لويس الخامس عشر ، ومندوبه فى الوزارة (سان بريست) - هى أن مصر والقِرم أغنى أقاليم الإمبراطورية المريضة ، وبما أن القِرم ذاهبة لا محالة إلى فم الدب الروسى ، فعلى فرنسا أن تعمل جاهدة لاحتلال مصر .

وهناك ما يدل على أن (دوسارتين) جُنّ بالفكرة ، وأرسل دبلوماسياً ، أو جاسوساً أو الاثنين معاً ، إلى مصر ، والبحر الأحمر ، وجدة ، هو البارون دى توت الذى كان يرافقه ضابط فى البحرية ، يدعى (سونينى) ، له كتاب عن مصر ، باسم (سياحة فى مصر العليا والوجه البحرى) سنة ١٧٧٧ ، وأرسل (دى توت) تقارير على درجة عالية من الخطورة ، مصحوبة بخرائط دقيقة لتحصينات القاهرة والإسكندرية ورشيد وجدة ، لكن الحكومة انشغلت عن المشروع باشتراكها فى حرب استقلال أمريكا سنة ١٧٧٨ .

وما فتئ التجار الفرنسيون فى مصر يشكون إلى حكومتهم من سوء معاملة المماليك ، فعينت الحكومة المسيو (شارل مجالون) قنصلاً عاماً لفرنسا فى مصر سنة ١٧٩٣ .. وكان مجالون تاجراً من سكان مارسيليا ، رحل إلى مصر ، وأقام بها أكثر من ثلاثين سنة ، فاكتسب خبرة واسعة بالشئون المصرية ، وسافر إلى فرنسا سنة ١٧٩٧ يدعو إلى احتلال مصر ، ويبرر سرعة التنفيذ .

وبعدما توارى لويس السادس عشر ، وأمسكت (حكومة الإدارة) بزمام الأمور ، وحقق نابليون انتصارات في إيطاليا - أصبح مؤهلاً لتأديب إنجلترا .. لكن الظروف لم تكن مواتية ، وكانت مصر موئلاً لطموحات (النسر الصغير) .

كان التوقيع على معاهدة (كامبو فورميو) قد تم فى ١٧ أكتوبر ١٧٩٧ ، وبهذه المعاهدة بسطت فرنسا سلطانها على بلجيكا ، وعلى الضفة اليسرى لنهر الرين ، وفى الوقت ذاته ضمنت لفرنسا السلطة فى إيطاليا ، بإقامة جمهورية مستقلة عبر جبال الألب .. وعاد نابليون فى ٣ ديسمبر ١٧٩٧ إلى باريس ، بعد أن حصل على انتصارات باهرة فى مختلف الميادين ، فاستقبله الشعب استقبال الأبطال .

وكان نابليون قد أرسل من (ميلان) فى ١٦ أغسطس ١٧٩٧ رسالة إلى حكومة الإدارة . جاء فيها :

(إن المواقع التى نحتلها على شواطئ البحر الأبيض المتوسط تجعل لنا السيادة

على هذا البحـر ، والآن يجب علينا أن نرقب تطورات السلطة العثمانية التى أخذت تنهار دعائمها من كل جانب .. فعلينـا إما أن نؤازرهـا ، ونمنـع انحلالها ، أو نأخذ ما نستطيع من أسلابها، ويمكننا أن نحرم إنجلترا مزايا سيادتها فى الأقيانوس الأعظم، فإذا كانت تنازعنا رأس الرجاء الصالح فى مفاوضات « ليل » ، فلنتجاوز عنه ، ولنحتل مصر، فسيكون لنا فيها الطريق المفضى إلى الهند ، ويسهل علينا أن ننشئ بها مستعمرة من أجمل مستعمرات العالم ، وإذا أردنا أن نهاجم إنجلترا فلنهاجمها من مصر) .

ومن مذكرات نابليون التى أملاها فى منفاه بسانت هيلين ، أنه كان يزمع إنشاء دولة شرقية كبيرة ، وينوى بعد توطيد مركزه فى مصر أن يغزو الهند .

وجاء فى هذه المذكرات : (على الإنسان أن يصطنع الدجل فى هذه الدنيا ، لأنه السبيل الوحيد إلى النجاح) ، وقال : (إن المرء فى هذه الدنيا يجب أن يبدو صديقاً للناس ، وأن يبذل الوعود الكثيرة ، ولا يفى بوعد منها) .

إنها مذكرات رجل (مكيافيلى) انتهازى ، لا خلاق له ، ضحى بكثير من أصدقائه، ونسب إلى نفسه جهود غيره ، وحين خانته زوجته اتخذ من الخيانة أسلوب حياة .

● لما أوشكت معدات الحملة أن تتم أصدرت حكومة الإدارة قرارها بتاريخ ١٢ أبريل ١٧٩٨ بتسمية الجيش المعَدّ لها (جيش الشرق) .

كانت الحملة الفرنسية (١٧٩٨/١٨٠١) أول مشروع رمى إلى تكوين دولة (شرعية) من الأجزاء العربية التابعة للدولة العثمانية ، وقد استغل بونابرت مقومات العروبة ، فلجأ إلى اللغة العربية فى كتابة منشوراته ولوائحه ، وطبع كتيباً فى تعليم اللغة العربية وهجائها بالمطابع الفرنسية المرافقة للحملة .

وعلى حين كان الحكم التركى يستأثر بكل شيء ، ممثلاً فى مندوب الباب العالى ، وفى المماليك ، أعلن نابليون اشتراك الشعب فى الحكومة ، تزييفاً لصورة الحكم ، و(اصطناعاً للدجل) ، على حد قوله .. وأنشأ (ديوان القاهرة) من علماء الأزهر ، تكبيلاً لنشاط هؤلاء العلماء ، واتخاذهم أقنعة ، و (مَصدّات) للأمواج الثورية ، وقد (صنع) مثل هذا الديوان فى الأقاليم ، لتشريع الحياة وتيسيرها ، وليكون سياط عذاب فى أيدى الجلادين .

وحتى يكون لجيش الشرق مقام ومستقر ، صحب معه ١٩٧ من العلماء

المتخصصين فى سائر فروع المعرفة ، أثريين ، ومهندسين ، وأطباء ، ومترجمين من اللبنانيين والسوريين والمصريين .. منهم ٢١ عالماً فى الرياضة ، و٤ فى الفلك ، و ١٥ فى الطبيعة ، و ١٧ مهندساً مدنياً ، وموسيقيان ، ورسامان .. واصطحبوا معهم ٥٥ مؤلَّفاً ، ومجموعة كاملة من الأدوات العلمية ، ومطبعة عربية ، وأخرى فرنسية ، وثالثة يونانية.. وقد تم إصدار صحيفتين ، واحدة إخبارية ، وثانية ثقافية .

وفى ٢٢ أغسطس أصدر نابليون مرسوماً بإنشاء المجمع العلمى المصرى ، وقسّمه أربعة أقسام ، قسم الرياضيات ، وقسم الطبيعة ، وقسم الاقتصاد السياسى ، وقسم الفنون والآداب ، على غرار المجمع العلمى الفرنسى ، كأنه أراد الإعلان عن أن مصر صارت جزءاً من فرنسا ، كما حدث بعد ذلك فى الجزائر .. ولولا استمرار الكفاح المصرى ، واضطراب الأحوال فى أوربا ، ونشاط الأسطول الإنجليزى ، وتمزق جنود الحملة خلف المماليك والعربان ، والبحث فى القرى عن الطعام ، وكسر جناح (النسر الصغير) على جدران يافا وعكا - لتحقق الحلم الذى اعترف به نابليون لمدام دريموزا ، إذ قال :

« فى مصر وجدت نفسى ، وقد تحررت من قيود حضارة مزعجة ، كانت الأحلام تملأ رأسى ، ورأيتنى أؤسس ديناً ، وأزحف على آسيا ، وأنا امتطى فيلاً ، وعلى رأسى عمامة ، وفى يدى القرآن الجديد ، الذى كنت سأؤلفه ، ليلائم حاجاتى ، وكنت سأجمع فى مشروعاتى من خيرات العالمين ، وأسخّر لمنفعتى مسرح التاريخ كله ، وأهاجم قوة إنجلترا فى الهند ، فأجدد بهذا الفتح الاتصال بأوربا القديمة » .

لكن الرياح ألوت بالجناح .

● لقد نشر العلماء الفرنسيون بحوثهم ورسومهم وخرائطهم فى كتاب (وصف مصر) ، فى ثلاثة وعشرين مجلداً ، بهدف احتواء مصر ، وتطويعها من خلال جمع جوانب المعرفة .. ونجح أحد العلماء فى التعرف على اللغة الهيروغليفية ، من خلال فك أسرار حجر رشيد سنة ١٨٢٢ .. وقد ألف لها أجرومية ومعجماً سنة ١٨٣٢ ، فوضع بذلك أساس علم الآثار المصرية .. وبهذا كانت حملة نابليون البداية الحقيقية لاهتمام كثير من الكتّاب الفرنسيين بالشرق ، أمثال : شاتوبريان ، ولامرتين ، وفلوبير ، ووليام لين ، وريتشارد بيرتون

ثم ازداد الدور الذى لعبه المستشرقون فى القرنين التاسع عشر والعشرين ، نتيجة ازدياد قوة العلاقة بين أوربا والشرق ، أو بين الغالب والمغلوب ، فأصبح الشرق مجالاً للتنافس السياسى ، والاقتصادى ، الغربى .

وقد قام المستشرقون بجمع تراث الشرق ، برديات وتماثيل ومسلات ومقابر ومعابد ، حتى اكتظت المتاحف ، وقاموا بجمع المخطوطات وتحقيقها وفهرستها ، ونشرها ، وقاموا بدراسات ميدانية فى طول البلاد وعرضها ، للتعرف على الشعوب (المغلوبة) ، من خلال عاداتها وتقاليدها ومعتقداتها .

وقد يضيف المحتفلون باللاتينية فى مصر استعانة محمد على بكثير من الفرنسيين ، مستشرقين ، وعسكريين ، ومهندسين ، وأطباء ، لبناء مصر الحديثة ، ثم لشق قناة السويس ، فى عهد ابنه سعيد ، وحفيده إسماعيل .

وهذا كله لا يستدعى الاحتفال فى (مصر) بذكرى مرور مائتى عام على حملة نابليون ، فلو أن نابليون بقى حياً ليشهد هذا الاحتفال لما جرؤ على الاشتراك فيه ، بعد ما اعترف به ، من (اصطناع الدجل) ، و (عدم الوفاء بالوعد) ، وبعد ما سجله رجاله من اعترافات يتساقط من خزيها زغب جناحى (النسر الصغير) .

جاء فى كتاب (الثورة الفرنسية) للمؤرخين فوريه وريشيه :، تقويماً لحملة نابليون: (كان هذا العمل عابراً ، ولم يكن له تأثير على مستقبل مصر) .

وقال باتريس بريه فى كتابه (مذكرات ما وراء القبر) : (كان المقدونى ينشئ الإمبراطوريات ، وهو يركض ، بينما كان نابليون يحطمها ، وهو يركض ، وكان هدفه الوحيد أن يصبح سيد الكرة الأرضية ، دون أن يزعج نفسه بوسائل الاحتفاظ بها) .

وقال المسيو ريبو فى كتابه : (التاريخ العلمى والحربى للحملة الفرنسية جـ ٣ ص ١٥٤) : (كانت هناك عقبات وطنية ودينية تحول دون ثقة المصريين بحكامهم الجدد - الفرنسيين - فقد كان من الصعب أن توجد أمة تبلغ بها السذاجة مبلغ أن تنتظر الخير من جيش يركب متن البحار ، ويستهدف الأخطار ، ويحتل بلادها ، ويخوض غمار الحرب - لمجرد الدفاع عن مصالحها ، ولا يمكن أن تؤثر المنشورات والكلمات الفخمة فى تغيير حالة الشعب النفسية ، لذلك كان الوجه البحرى - بالرغم من انهزامه واحتلاله - غير خاضع ولا مستسلم ، وكثيراً ما تمردت القرى التى مر بها الجيش الفرنسى . ورفعت علم الثورة) .

● لم يكن الشعب الذى انتصر فى حطين، وفى عين جالوت ، وأسر لويس التاسع ، ، من البلاهة بحيث يصدق الطاغية الذى ادعى الإسلام ، ولبس ثوب الأزهر ، جاراً خلفه ٣٤ ألف جندى برى ، و ١٦ ألف جندى بحرى وملاح ، وآلاف البنادق والمدافع ، مُحدِثاً فى طريقه مئات المجازر ، لأن الفلاحين (العُزّل) استنكروا السلب والنهب والاغتصاب!!

يقول الجنرال فرانسوا برنوابيه فى كتابه (مع بونابرت فى مصر وسوريا) :

(فى اليوم التاسع من أكتوبر مثلاً ، وصلنا فى الصباح الباكر إلى كفر يبدو بائساً، فأغلب المنازل كانت مبنية بالطين ، وكان منظر الأطفال العرايا يثير الشفقة ، وعلى الرغم من ذلك كان لابد من أخذ مال هؤلاء التعساء الذين أرعبهم مجرد اقترابنا منهم.. وبينما كنا ننصب الخيام رأينا بعضهم يهرب وأولادهم على ظهورهم ، ويسحبون وراءهم كل ما يملكون .. كان أول عمل لنا استدعاء كبير هذا الكفر ، وإبلاغه أننا حضرنا لنأخذ الضرائب .. جاء الشيخ وهو يبكى ، ليقول : إن البدو مروا عليهم منذ أسبوع ، وأخذوا كل شيء ، لكن المحصّل دوفاك - مع أنه رجل طيب القلب - لم يكتف بهذا الشرح ، سواء كان صادقاً أو كاذباً ، وقال إنه لابد أن يحصّل المبلغ ، وإلا نفذ الأوامر .. وضربهم بالعصى) .

(كانت الساعة الثانية ظهراً ، ولم يظهر أحد ، فأراد قائد فرقتنا أن يستعمل أعنف الوسائل لتحصيل الضرائب ، فذهب إلى الكفر ومعه مائة جندى) .

(كنا نقول : إنه من القسوة أن ينفّذ الجمهوريون مثل هذه الأوامر التى تمثل أقسى وسائل الطغاة ، لابتزاز هذا الشعب ، والعصى فى أيديهم .. ألقينا اللوم على بونابرت الذى كان يستعمل وسائل المماليك ، الذين زعم أنه جاء ليخلص الشعب من عسفهم وطغيانهم) .

(وفى تمام السادسة مساء عادت فرقتنا إلى المعسكر ، ومعها عشرة فلاحين مقيدين ، لأنهم لم يدفعوا الضريبة) !!

ومن خطاب برنوابيه إلى ابن عمه : (إليك قصة طريفة : عندما حضر جنرالاتنا إلى القاهرة استولوا بالقوة على النساء اللاتى تركهن المماليك فى قصورهم ، ظنو أنهم غنيمة طيبة ، بسبب ثراء ملابسهن ، وجمال زينتهن ، وهجموا عليهن ، دون تمييز بين

فريسة وأخرى ، ولكن عندما هدأت رغبتهم بدءوا يتعرفون على فرائسهم .. كانت خيبة الأمل كبيرة عندما اكتشفوا أنهم لم يرثوا إلا بقايا مهملة .. ومنذ تلك اللحظة مرت هؤلاء النسوة على كل الأيادى ، حتى وصلن إلى الجنود) .

كتب نابليون إلى مينو فى ٣١ يوليه ١٧٩٨ :

(إن الأتراك لا يحكمون إلا بأعنف صرامة ، لذا ترانى أصدر كل يوم أمراً بقطع خمسٍ أو ستّ رءوس فى شوارع القاهرة .. لقد اضطررنا إلى مهادنتهم حتى الآن لمحو سمعة الإرهاب التى سبقتنا ، أما اليوم ، فعلى العكس من ذلك ، لابد لنا من استخدام اللغة التى تلائم هذه الشعوب حتى تطيعنا ، والطاعة بالنسبة إليهم هى الخوف) .

لقد استخدم نابليون رجلا (من أسافل الأروام العسكريين القاطنين بمصر ، وكان من الطوبجية عند محمد بك الألفى) - ليكون رئيساً للمباحث (كتخدا مستحفظان) ، فكانت له سيطرة كبيرة ، وسفك دماء كثيرة ، وضج الناس من فظائعه وشروره .

● وأراد نابليون أن يخفف من معاناة جنده ، ومن معاناة الشعب المصرى الذى لايزال يقاوم الغزاة ، وما زال يغذى الثائرين بالمال والسلاح والرجال - فأعد العدة لغزو الشام ، إيحاء بعدم مبالاته بما يحدث فى مصر ، وإشعاراً لجنوده بقدرتهم على إحراز مزيد من الانتصارات ، وفى الوقت نفسه يغلق الطريق أمام الأتراك ، إذا هم فكروا فى مدّ يد العون للمماليك .

وصلت القوات الفرنسية إلى أسوار يافا فى ٢٢ مارس ١٧٩٩ ، فأرسل بونابرت ضابطاً يطلب من الحامية أن تستسلم ، فما كان من قائد الحامية إلا أن أمر بقتله ، بسبب وقاحته ، وفداحة طلبه ، فكان الهجوم أبشع ما يكون الانتقام ، مما حدا بالمحاصرين أن يستبسلوا ، حتى تم قتل وحرق كل شيء .

ثم و عد بونابرت ألفاً وخمسمائة جندى أن يعيدهم سالمين إلى بلاد الشام ، إذا ما استسلموا ، وعندما وافقوا أمَر بقتلهم جميعاً رمياً بالرصاص .

وساد السلب والنهب فى المدينة ، وحدث اغتصاب الفتيات ، والاتجار بهن ، (وعندما علم بونابرت ما تسببه أولئك البائسات من فوضى فى المعسكر أمر بإعدامهن جميعاً) .

وطال وقوف بونابرت تحت أسوار عكا ، وعانى من فقد الإمدادات ، وحَصد

الطاعون والجوع رجاله ، بينما تضاعفت إمدادات المحاصرين عن طريق البحر ، تركية وإنجليزية .. فقد (النسر) صوابه ، فجعل همه الانتقام من المدنيين .. نشر جنوده فى القرى ، يستولون على كل ما يجدون ، ويحرقون الأبنية .. وعند انسحابه (بقى الجيش فى يافا ثلاثة أيام ، حتى ينتهى من تدمير المدينة ، وتحطيم التحصينات) .

وقد سجل الميجور ديترو بياناً بعدد من أعدموا فى يافا ، كما يلى :

فى ٧ مارس مات أثناء الهجوم أكثر من ٢٠٠٠ تركى .

فى ٨ مارس رمى بالرصاص ٨٠٠ تركى .

فى ٩ مارس رمى بالرصاص ٦٠٠ تركى .

فى ١٠ مارس رمى بالرصاص ١٠٤١ تركى .

وكتب ستيف مساعد كبير الصيارفة فى ١٠ مارس إلى سيدة فى كاركاسون :

(إن قيام الجنود الحانقين - بعد اقتحام المدينة ، والاستيلاء عليها عنوة - بأعمال السلب والنهب والحرق والتقتيل ، كيفما اتفق ، أمر تقتضيه قوانين الحرب ، والإنسانية تُسدل ستاراً على هذه الفظائع ، لكن صدور الأمر بقتل ٣٠٠٠ رجل[1] استسلموا لنا بسلامة نية ، فى وحشية ضارية - بعد انقضاء يومين أو ثلاثة على الهجوم ، وبعد أن هدأت ثورة الغضب - فتلك جريمة بشعة ، ستُدينها الأجيال القادمة ، ما فى ذلك ريب، وسيجد الذين آمروا باقترافها مكانهم بين جزارى البشرية) .

● أخذ نابليون طريق العودة إلى القاهرة ، مجلّلاً بالخزى والعار ، لكن طبيعة (الدجَل) التى اتخذها شعاراً ، جعلته يكتب إلى حكومة الإدارة فى باريس : (بعد أن نقلنا الحرب إلى قلب سوريا ، ومعنا حِفنة من الجند ، أخذنا أربعين من مدفعية الميدان، وخمسين من العلماء ، وأسرنا ستة آلاف أسير ، ومحونا تحصينات غزة ويافا وحيفا وعكا ، ونحن نعود الآن إلى مصر) .

لكن أخبار الهزائم سبقته إلى مصر ، فاشتعلت الثورة من جديد فى الأحياء الشعبية .

يقول نقيب فى الجيش الفرنسى : (اقتحمنا حى بولاق الوقح البائس ، وقد دافع

---

(١) سبق أنهم ١٥٠٠ ، وهذا يعنى أن مرجع الترقيم إلى بشاعة الجرم ، لا إلى الإحصاء .

عن نفسه بإصرار ، وبعد ساعات من القتال كسرنا الأبواب ، ودخلنا بالقوة .. كم دفع هذا الحى المسكين ثمناً لفتنته الطائشة .. رأيت السكان وقد ذُبحوا عن آخرهم ، بينما المنازل تحرق بعد أن نهبت على أيدينا ، ولم يعد ممكناً لمن رأى بولاق من قبل أن يتعرف عليه ، بعد تلك الأفعال البشعة القاسية .. كأن جهنم قد انتقلت إلى المدينة) .

وبينما كان الثائرون مجتمعين فى الأزهر قذفت أول قنبلة من المدافع القائمة على رُبى المقطم ، فانفجرت فى المسجد ، وكانت هذه القنبلة نذيراً بابتداء ضرب المدينة بالمدافع ، حتى قال ريبو :

(أوشك الجامع الأزهر أن يتداعى من شدة الضرب ، فقد دُفِنت تحت أنقاضه الجماهير الخاشدة فيه ، وأصبح الحى المجاور للأزهر صورة من الخراب والتدمير ، فلم يكن يُرى فيه إلا بيوت مدمرة ، ومتاجر محترقة ، ومات تحت الأنقاض آلاف من السكان الآمنين .. كان يسمع لهم أنين موجع ، وصيحات مرعبة) .

وقد أحصى نابليون القتلى فى تقريره إلى حكومة الإدارة بعدد يتراوح بين ٢٠٠٠ و ٢٥٠٠ قتيل ، على حين قدرهم ريبو بأربعة آلاف .

يقول الجبرتى : (ثم دخلوا إلى الجامع الأزهر ، وهم راكبون الخيول ، وبينهم المشاة كالوعول ، وتفرقوا بصحنه ومقصورته ، وربطوا الخيول فى قبلته ، وعاثوا بالأروقة والحارات ، وكسروا القناديل والسّهارات ، وهشموا خزائن الطلبة والمجاورين والمكتبة ، ونهبوا ما وجدوه من المتاع والأوانى والقِصاع ، والودائع والمخبآت بالدواليب والخزانات ، ودشتوا الكتب والمصاحف ، وعلى الأرض طرحوها ، وبأرجلهم ونعالهم داسوها) .

(وجعلوا جامع الظاهر بيبرس خارج الحسينية قلعة ، ومنارته بُرجاً ، ووضعوا على أسواره مدافع ، وأسكنوا به جماعة من العسكر ، وبنوا فى داخله عدة مساكن تسكنها العسكر المقيمة به) .

(وانقضت هذه السنة بحوادثها وما حصل فيها ، فمنها توالى الهدم والخراب ، وتغيير المعالم ، وعمّ الخراب خطة الحسينية خارج باب الفتوح ، والخرّوبى ، فهدموا تلك الأخطاط والحارات والدروب والحمامات والمساجد والمزارات والزوايا والتكايا وبركة جناق وما بها من الدور والقصور المزخرفة ، وجامع الجنبلاطية العظيم بباب

النصر ، وما كان به من القباب المعقودة من الحجر المنحوت ، المربعة الأركان الشبيهة بالأهرام ، والمنارة العظيمة ذات الهلالين ، واتصل هدم خارج باب النصر بخارج باب الفتوح وباب القدسى إلى باب الحديد ، حتى بقى ذلك كله خراباً متصلاً واحداً .. ونبشوا القبور ، فوجدوا الموتى فى توابيت من الخشب ، فظنوا داخلها دراهم ، فكسروا بعضها ، فوجدوا بها عظام الموتى) .

وكتب المسيو بورين ، السكرتير الخاص لنابليون فى مذكراته : (سيق المسجونون إلى القلعة ، وكنت أتولى مساء كل يوم كتابة الأوامر القاضية بإعدام اثنى عشر سجيناً كل ليلة ، وكانت جثث القتلى توضع فى زكائب ، وتغرق فى النيل ، واستمر ذلك ليالى عديدة ، وكان كثير من النساء ممن نفذ فيهم أحكام الإعدام الليلية) .

هذا ، على حين كتب فيفان دينون ، شاهد أحداث القاهرة ، يقول :

(رغم فوارق العادات والأخلاق والدين واللغة التى كانت تفصل بيننا ، وبينما كان شبح الموت والدم ينتقل فى الشوارع - فإن أصحاب المنازل التى كان يسكنها الفرنسيون قد آووهم وأظلّوهم بحمايتهم ، وأمدوهم بما يحتاجون) .

فهل آن للتنويريين أن يفهموا لماذا (يجب) الاحتفال بذكرى (حملة نابليون) ، محرر مصر والشرق ، وراعى الحضارة والمدنية ؟!

● فر (النسر الصغير) من مصر ، ليخفق بجناحيه فى أوربا ، تاركاً كليبر قائداً لجنود فرنسا ، فكانت أوامر كليبر إلى المواطن برتلمى : (ستتوجهون إلى قرية غطاس ، لتقبضوا على كل من يقاومكم ، واحتجزوا الشيوخ والنساء والأطفال ، أما عن عرب القرية الذين سيقتلون فى هذه الحملة ، فلتفصل رءوسهم بيد أهل القرية الموجودين معكم - العملاء - وتوضع كل رأس على قمة زانة ، ليراها المارة ، ولتدمّروا بعد ذلك القرية عن آخرها ، ثم أشعلوا النار فيها) .

يقول الجاويش فرانسوا : (إن قرية رفضت إمداد الفرنسيين بالمؤن التى طلبوها ، فضرب أهلها بحد السيف ، وأحرقت بمن فيها .. وكان عدد من ذبح وأحرق ٩٠٠ رجل وامرأة وطفل ، ليكونوا عبرة لشعب همجى نصف متوحش) .

وحتى يطمئن الجنرال (النسر) الذى صار (القنصل) المسيطر على حكومة الإدارة ، كتب كليبر إليه فى ٢٢ يناير ١٨٠٠ يقول : (عزيزى الجنرال ، علينا الآن أن

نعصر مصر كما يعصر « الشريتلى » الليمونة ، وبعد أن نقوم باستخلاص كل شيء ، من نقود وعينيات ، فإننا بالكاد نكون قد حصلنا على ما نحتاج إليه فى هذه الظروف) .

وفى ٦ مايو ١٨٠٠ كتب كليبر إلى قائد منطقة دمياط ، بعد أن انعدمت الثقة بين المصريين والفرنسيين : (استمر فى حماية المراكب اليونانية التى تصلك من الموانئ المختلفة ، وقل لهم أن يخبروا مواطنيهم بأننا سنستقبل الذين يريدون الهجرة ليستوطنوا مصر ، بكل الحفاوة الممكنة ، سأُلحق بالخدمة من كان منهم جندياً أو بحاراً، وسأعطى أرضاً للفلاحين ، والتجار منهم سيتمتعون بأكبر قدر من الحرية ، وسيكون من حقهم بناء الكنائس فى كل المدن ، حيث سيكون لهم مطلق الحرية فى ممارسة دينهم علنـاً) .

وهكذا أراد كليبر أن يُحِلّ شعباً (متحضـراً) مكان (شعب همجى متوحش) . أو كما قال الكونت د . شوازيل - جوفييه : (الباشا صِفْر ، ومصر ليست ملكاً لأحد) . وهى العبارة التى رددها زعماء إسرائيل بعد هزيمة ١٩٦٧ ، وكما قال الوزير الفرنسى تاليران فى (مشروع غزو مصر) لحكومة الإدارة : (كانت مصر مقاطعة فى الجمهورية الرومانية ، فيجب أن تصبح كذلك فى الجمهورية الفرنسية) !!

● قتل كليبر ، وتولى (شيخ الإسلام عبد الله مينو) أمر مصر ، وحدث فى أوائل شهر يولية ١٨٠٠ أن (دفع نقص أقمشة الثياب مسئولى المجلس إلى اقتراح بإنشاء مصنع للنسيج فى مصر) ، فاشترط كونتيه : (إن تم إنشاء هذا النوع فلن يعلَم **المصريون شيئاً ، ولا يسمح لهم بدخوله ، وفى حالة الجلاء عن مصر لابد من إخراج المعدات أو تدميرها) !!**

و (يا بخت من عاش تنويرياً ، ومات تنويرياً) !!

د . كامل سعفان
١٣ يونية ١٩٩٩

عنوان المؤلف : ١٤ ش عبد القادر المغربى / النزهة / مصر الجديدة / القاهرة

مصادر ومراجع

١ - القرآن الكريم .
٢ -الكتاب المقدس .
٣ - مصر القديمة	سليم حسن .
٤ - التراث المسروق	چورچ جيمس .
٥ - تاريخ العلم	چورچ سارتون .
٦ - مختصر دراسة للتاريخ	توينبى .
٧ - أثينة السوداء	مارتن برنال .
٨ - المسيحية والحضارة العربية	چورچ قنواتى .
٩ - اضمحلال الإمبراطورية الرومانية	جيبون .
١٠ - قصة الحضارة	ول ديورانت .
١١ - قصة الفلسفة	ول ديورانت .
١٢ - الدولة والكنيسة	رأفت عبد الحميد .
١٣ - الكنائس القبطية	ألفرد بتلر .
١٤ - الدين والعلم	برتراند رسل .
١٥ - ميلاد العصور الوسطى	سانت موس .
١٦ - حكمة الغرب	برتراند رسل .
١٧ - التاريخ وكيف يفسرونه	ألبان ويدجرى .
١٨ - أفكار ورجال	كرين برنتن .
١٩ - المعتقدات الدينية لدى الشعوب	جفرى باربندر .
٢٠ - تاريخ الحضارة الإسلامية	بارتولد .
٢١ - تراث الإسلام	تصنيف شاخت .
٢٢ - تراث الإسلام	تصنيف جيوم .
٢٣ - تاريخ الفكر الأندلسى	جونثالث بالنثيا .
٢٤ - الإسلام والمسيحية	جورافسكى .
٢٥ - الحروب الصليبية	إيرنست باركر .
٢٦ - الفكر الصينى من كونفوشيوس إلى ماوتسى تونج .
٢٧ - تاريخ الكنيسة	لوريمر .
٢٨ - الحضارة البيزنطية	رنسيمان .
٢٩ - كنوز الفراعنة	ت. جيمس .
٣٠ - آسيا المعاصرة	رومين .
٣١ - الأصول اليهودية	هيمان .

٣٢ - الحملة الأمريكية	كابلان .
٣٣ - بونابرت فى مصر	هيرولد .
٣٤ - عجائب الآثار فى التراجم والأخبار.	الجبرتى .
٣٥ - مظهر التقديس بزوال دولة الفرنسيس .	الجبرتى .
٣٦ - فتح العرب لمصر	ألفرد بتلر .
٣٧ - رواد الفلسفة الحديثة	شاخت .
٣٨ - تكوين العقل الحديث	راندل .
٣٩ - المسيحية القديمة	تايلور .
٤٠ - مصر الرومانية	نمتالى لويس .
٤١ - الفكر التاريخى عند الإغريق	توينبى .
٤٢ - المخطوط السرى لغزو مصر	لَيْبنْتز .
٤٣ - معالم التاريخ الأنسانية	هـ . ج . ويلز .
٤٤ - الإسلام فى الصين	فهمى هويدى
٤٥ - دين الله واحد	محمود أبو رية .
٤٦ - هداية الحائرين	ابن القيم .
٤٧ - عبقرية المسيح	عباس العقاد .
٤٨ - حياة المسيح	عباس العقاد .
٤٩ - أبو الأنبياء	عباس العقاد .
٥٠ - الله	عباس العقاد .
٥١ - فى النفس والعقل	محمود قاسم .
٥٢ - المسيح عيسى بن مريم	السحار
٥٣ - الفكر الإسلامى وتراث اليونان	أميرة مَطَر .
٥٤ - عصر الإسكندر الذهبى	نبيل راغب .
٥٥ - المجمل فى تاريخ القانون المصرى	ناصر الأنصارى .
٥٦ - مصر فى عصر الولاة	سيدة الكاشف .
٥٧ - المسيحية والإسلام على أرض مصر	وليم قلادة .
٥٨ - حرية الفكر	سلامة موسى .
٥٩ - البلاغة العربية	سلامة موسى .
٦٠ - المسيح بين الحقائق والأوهام	محمود وصفى .
٦١ - الأقباط فى وطن متغير	غالى شكرى .
٦٢ - الطاغية	إمام عبد الفتاح .
٦٣ - المستشرقون والتاريخ الإسلامى	على الخربوطلى .
٦٤ - الاستشراق فى الفكر العربى	محسن الموسوى .
٦٥ - الفكر الإسلامى الحديث	محمد البهى .

٦٦ - بطرس الأول (مسرحية) — إلكسى تولستوى
٦٧ - مصر فى كتابات الرحالة الفرنسيين — إلهام ذهنى .
٦٨ - غرام نابليون فى مصر — روجيه ريجيس .
٦٩ - الحملة الفرنسية فى محكمة التاريخ — ليلى عنان .
٧٠ - تاريخ الحركة القومية — عبد الرحمن الرافعى .
٧١ - النصرانية والإسلام — محمد الطهطاوى .
٧٢ - الإسلام فى مواجهة حملات التشكيك — محمود زقزوق .
٧٣ - الكنيسة المصرية تواجه ..... — وليم قلادة .
٧٤ - المصريون — قاسم أمين .
٧٥ - الإسلام بين العلم والمدنية — محمد عبده .
٧٦ - الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغانى . محمد عمارة .
٧٧ - الاستعمار — مصطفى الشهابى .
٧٨ - تراثنا بين ماض وحاضر — عائشة عبد الرحمن .
٧٩ - رسالة التوحيد — محمد عبده .
٨٠ - لغتنا والحية — عائشة عبد الرحمن .
٨١ - الاستشراق الفرنسى والأدب العربى — أحمد درويش .
٨٢ - الاستشراق والخلفية الفكرية — محمود زقزوق .
٨٣ - مصر فى عيون الغرب وأدبه — منى حسين مؤنس .
٨٤ - مسيحية بلا مسيح — كامل سعفان .
٨٥ - اليهود تاريخاً وعقيدة — كامل سعفان .
٨٦ - دراسة فى التوراة والإنجيل — كامل سعفان .
٨٧ - اليهود من الجيتو إلى الفاتيكان — كامل سعفان .
٨٨ - الساعة الخامسة والعشرون — كامل سعفان .

●● دوريـات ..

١ - مجلة الهلال يونية ١٩٩٥ .
٢ - مجلة الهلال (عدد خاص) يونية ١٩٧٢ .
٣ - مجلة الرسالة ١٩٣٨/١٠/١٠ .
٤ - مجلة القاهرة يونية ١٩٩٥ .
٥ - مجلة شمس الإسلام سبتمبر ١٩٩٣ .
٦ - مجلة (الفكر العربى) الأعداد ٣٣/٣٢/٣١ عام ١٩٨٣ .





التاريخ يتحدث عن أناجيل كثيرة تزيد على الخمسين ، تمت تصفيتها فى مجمع نيقيه ، فى عهد قسطنطين ، سنة ٣٢٥ ، والمعروف أن عملية التصفية لم تخضع لدراسة ومقارنة بين كل الأناجيل ، وأن قسطنطين لم يكن على علم باللغة التى كتبت بها الأناجيل ، ولا باللغة التى جرى بها الحوار بين أعضاء المجمع ، ومع هذا كان هو الذى أعان على صدور (قانون الإيمان) ، الذى جعل من (التثليث) مبدأ أساسياً لا يغتفر الكفر به ، أو الشك فيه ، مع أن هذا المبدأ كان من صناعة (بولس) اليهودى الذى دخل المسيحية لينقض كيانها ، ويمزق وحدتها ، ويجعل منها شيئاً آخر يبرأ منه السيد المسيح .

ولقد ذكر الأستاذ سلامة موسى (حرية الفكر جـ ١ ص ٣٢ ط الهيئة العامة للكتاب ١٩٩٣) : أن (المسيحية نشأت فى حضن اليهودية ، وعاشت مدة غير قصيرة ، والمؤمنون بها يعتبرون أنفسهم يهوداً لهم مذهبهم الخاص ، ولذلك جرت المسيحية فى نظامها على ما رأت من النظم اليهودية ، فصار لها كهنة ، وكان هؤلاء الكهنة هم المضطهدون للعلم والفلسفة ، مدة الف عام تقريباً ، فالكنيسة اضطهدت العلماء ، والمسيح الذى كان يطلب من المسيحى أن يدخل غرفته ويصلى ، لم يفكر قط فى إنشاء كنيسة ، وإقامة كهنة عليها ، وإنما جاءت هذه الفكرة من بولس ، فالمسيحية الفاشية الآن ، ومنذ القرن الأول للميلاد ، هى مسيحية بولس ، وليست مسيحية المسيح) .

وانطلقت (البولسية) تمزق المسيحية إلى طوائف ، وأخذت الطوائف تتقاتل ، وتنشر آفاتها فى أنحاء العالم ، باسم التبشير والتحرير وحماية الأقليات ، واستعانت (البولسية) بالبروتوكولات الصهيونية لتجعل من العالم قرية تحكمها أنظمة (شيطانية) تلبس مسوحاً شوهاء ، وتتحكم فى جميع أسلحة الدمار الشامل من (شمة) الهيروين إلى الأمطار السوداء التى تنشرها الأقمار الصناعية .

الناشر

دار الأمين - القاهرة